الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة تلمسان

مجلة منبر التراث الأثري

مجلة علمية محكمة تهتم بالبحوث والدراسات في مجال التراث الأثري

تصدر عن مخبر التراث الأثري وتثمينه- جامعة تلمسان

العدد الرابع - ديسمبر 2015

2012 - 4129
ISSN: 2335 - 1500

مجلة منبر التراث الأثري

مجلة علمية محكمة تهتم بالبحوث والدراسات في مجال التراث الأثري

تصدر عن مخبر التراث الأثري وتثمينه- جامعة تلمسان

العدد الرابع - 2015 minbarettourath@gmail.com

مديرالمجلة: أ.د. معروف بلحاج balmar2004@yahoo.fr

رئيس التحرير: د.جودي محمد djoudi1974@gmail.com

هيئة التحرير:

د. مهتاري فائزة

د. يوسفي أمال

د. بن حمو محمد

د. بلجوزي بن عبد الله

أ. حمزاوي فضيلة

اللجنة الإستشارية:

أ.د حاجيات عبد الحميد(جامعة تلمسان)
أ.د.بن بلة خيرة(جامعة الجزائر2)
أ.د بوباية عبد القادر(جامعة وهران)
أ.د سلاطنية عبد المالك محمد (جامعة قالمة)
أ.د حمدادو بن عمر(جامعة وهران)
أ.د عبيد بوداود(جامعة معسكر)
أ.د ثاني قدور عبد الله (جامعة وهران)
أ.د بوغفالة ودان (جامعة معسكر)
أ.د سعيدي محمد (جامعة تلمسان)
أ.د. بوبة مجاني(جامعة قسنطينة)
أ.د زمري محمد (جامعة تلمسان)
د. دحدوح عبد القادر (المركز الجامعي تيبازة)
أ.د شهيدة قادة (جامعة تلمسان)
أ.د.بحاز ابراهيم (جامعةغرداية)
أ.د لعرج عبد العزيز(جامعة الجزائر2)
أ.د جراي فتحي (جامعة تونس)
أ.د. بويحياوي عز الدين(جامعة الجزائر2)
أ.د حسن محمد (جامعة تونس)
أ. د. بلهواري فاطمة(جامعة وهران)
أ.د طيان شريفة (جامعة الجزائر2)

أ.د العقون خيرة(جامعة وهران)

شروط النشر:

- لا يتجاوز عدد الصفحات 30 صفحة
- أن يكون المقال متخصصا ومسايرا لاهتمامات المجلة ولم يسبق نشره من قبل
- أن يرفق المقال في بدايته بملخص باللغة الإنجليزية مهما كانت لغة البحث
- أن تكون لغة البحث إما بالعربية أو الفرنسية أو الإنجليزية
- الملاحق من أشكال وصور تكون في نهاية المقال
- أن يكون البحث:

* خط العنوان الرئيسي للمقال يكون بـ Simplified Arabic Gras 14
* خط العناوين الفرعية بـ Simplified Arabic Gras 13
* خط المتن بـ Simplified Arabic 14 العادي
* خط الهوامش بـ Simplified Arabic 11

يجب وضع الهوامش في نهاية المقال متسلسلة

- يجب احترام تقنية المنهجية العلمية المتعارف عليها في التهميش كما يلي:

اسم المؤلف، العنوان، الجزء أو المجلد، الطبعة، الترجمة أو التحقيق، دار النشر، مكان النشر، تاريخ النشر، الصفحة المقتبسة،

- هيئة التحرير غير ملزمة برد الأعمال التي تصلها سواء نشرت أم لم تنشر ،
- الآراء والأفكار الواردة في الأعمال المنشورة لا تعبر بالضرورة عن آراء المجلة ولا تعني إلا أصحابها،
- كل عمل مرشح للنشر على صاحبه إرساله في نسخة مطبوعة ونسخة في قرص مضغوط أو عن طريق البريد الإلكتروني للمجلة بصيغة 2003-Document Word 97 ،
- بعد صدور كل عدد ترسل نسخة مجانية إلى من كانت لديه مساهمة منشورة في ذلك العدد.

الفهرس

افتتاحية	9
المكنون الحضاري للتاسيلي نزجر **أ. حفيظة لعياضي (جامعة المسيلة)**	11
القصبات في منطقة القورارة مفهومها وإشكالية وظيفتها **د. بن عبد الله نور الدين (جامعة الجلفة)**	21
نماذج من العمارة الدينية في منطقة وادي ريغ **التيجاني العمودي (جامعة الجزائر2)**	35
المصلّيات الجنائزية بمنطقة وادي مزاب دراسة وصفية وتنميطية من خلال بعض النماذج **أ. د. معروف بلحاج (جامعة تلمسان)**	59
دراسة أثرية واجتماعية تحليلية للمجتمع الصحراوي من خلال القصور الصحراوية – تقرت نموذجا- **أ. بوقزولة عبد المالك (جامعة المسيلة)**	77
الخصائص المعمارية والفنية للمسكن التقليدي بقصر ورقلة **د. جودي محمد (جامعة تلمسان)**	89
عمارة المساكن بمنطقة وادي سوف **أ. حسونه عبد العزيز (جامعة وادي سوف)**	123
الفخار في الجنوب الجزائري دراسة تحليلية وجمالية (مدينة بشار أنموذجا) **د. مهتاري فائزة (جامعة تلمسان)**	149
عوامل وأسباب اندثار القصور الصحراوية وسبل المحافظة عليها قصور منطقة توات أنموذجا **أ. أمحمد منصوري (المركز الجامعي للبيض)**	159
المحافظة على قصر قنادسة في ظل التحديات **أ. بوجلابة فوزية سعاد (جامعة تلمسان)**	177

الحظائر الثقافية كآلية للحفاظ على التراث الصحراوي في إطار التنمية المستدامة - حظيرتي الأهقار والطاسيلي نموذجا **أ.د جنان عبد المجيد، أ. كحول بسمة (جامعة فرحات عباس سطيف1)**	195
الحفظ الوقائي للمواقع الأثرية بغرداية **زعابة عمر، مخبر التراث الأثري وتثمينه (جامعة تلمسان)**	211

افتتاحية

يسر مخبر التراث الأثري وتثمينه أن يضع بين أيدي القراء المهتمين بالتراث والعاشقين له العدد الرابع من مجلّته السنوية «منبر التراث الأثري» .

ويشتمل هذا العدد على مجموعة مهمّة من البحوث والدراسات المتميزة من حيث الموضوع، إذ ارتأت هيئة تحرير المجلة تخصيصه للتراث الصحراوي الجزائري في شقه المادي، وقد غطّت البحوث المقدمة كلّ العصور التاريخية تقريبا والمجالات المختلفة في علم الآثار.

لقد استهوى التراث الصحراوي الجزائري المتنوع العديد من الباحثين المستشرقين أمثال مارسيل مرسيي وشاخت وإيف بوني وليتييو ومارغريت فان برشم وأندري رافيرو وغيرهم فألّفوا فيه كتبا ومقالات شتّى، لكن تلك الدراسات تبقى سطحية نظرا لعوامل كثيرة وتحتاج إذا إلى تعمّق، ومن هنا جاءت فكرة تخصيص هذا العدد لهذا الموضوع بالذات، فكانت الاستجابة كبيرة من قبل الباحثين الذين لم يتوانوا في المشاركة ببحوثهم القيمة تثمينا وإثراء للموضوع.

وأملنا أن استفادة القرّاء عامّة والآثارين بخاصّة كبيرة من الكم المعرفي المطروح أمامهم، ونحن نسعى في كل مرّة من خلال البحوث المنشورة فتح شهية المتخصصين على النقاش وإبداء رأيهم حول التراث الأثري عامة والصحراوي بخاصة والمشكلات التي يواجهها باستمرار من تدهور وتخريب وتدمير وسرقة وتهريب في ظل التحدّيات الراهنة المختلفة، لاسيما ما يتعلق بالتراث الأثري الموجود في وطننا الجزائري وفي العالم العربي والإسلامي ككل.

إن البحوث المقدمة من قبل الباحثين تعد في نظرنا مساهمة فعَالة منهم في المحافظة على التراث الصحراوي الذي يعاني الإهمال والضياع، باعتبار أنّ هذا أسلوب مهم وناجع في مجال الحماية.

ومن هنا فمجلّة «منبر التراث الأثري» تبقي صفحاتها مفتوحة لكلّ الباحثين والمختصين في ميدان الآثار لاحتضان طروحاتهم العلمية والفكرية، وتنتظر منهم المشاركة بقوّة في الأعداد القادمة.

وأخيرا نعتذر لقرائنا الكرام عن نشر الصور بالون الأبيض والأسود، وذلك راجع إلى قلة الإمكانات المادية، وندعوهم للإطّلاع على مستجدات المجلّة من خلال صفحتها في الفايسبوك، كما نؤكّد بأنّ استمرار صدور المجلّة يعتمد أساسا على تلك البحوث التي سيرسلونها عبر بريدها الإلكتروني.

تلمسان يوم 10 ديسمبر 2015

مدير المجلة

أ.د بلحاج معروف

المكنون الحضاري للتاسيلي نزجر

أ. حفيظة لعياضي (جامعة المسيلة)

Abstract:

Tassili N'Ajjer is an important part in the Sahara of the Maghreban countries. And if that part is dry nowadays, it had known in the prehistorical era a humid environment. The ancient humans left drawings reflecting their way of living and their environment, such as plants or animals on Tassili rock, from the bubaline period and the period of Roundheads, the Bovidian period untilcaballine and camelina. All in tables left large areas in the writings of ancient historians such as Herodotus and archaeologists and researchers. The continuation of these successive tables reflects the continuity of civilization in Tassili n'Ajjer. Since it is an open letter ancestral to current and future generations which means their identity.

مقدمة:

تشكل منطقة التاسيلي نزجر جزءا مهما من الخارطة الصحراوية لبلاد المغرب، وإن كانت هذه الرقعة اليوم بيئة جافة، فإنها عرفت خلال فترات ما قبل التاريخ وسطا رطبا، شهد على تعمير الإنسان المغاربي بها واستقراره، خاصة أنه خلد مشاهد لحياته اليومية ومحيطه الحيوي، من نبات وحيوان على جداريات التاسيلي الصخرية، منذ فترة الجاموس إلى الرؤوس المستديرة، فالمرحلة البقرية ثم الخيلية، وصولا إلى عصر الجمل. كلها في لوحات فنية أدهشت المؤرخين القدامى مثل هيرودوت, وكذا الأثريين والباحثين في خباياها، فاستمرار هذه اللوحات عبر فترات متلاحقة، عكس التواصل الحضاري لإنسان التاسيلي نزجر، سلف الإنسان المغاربي، من خلال فن صخري، يعكس إرثا حضاريا يتوجب الحفاظ عليه، لأنه رسالة الأجداد إلى الأجيال الحاضرة واللاحقة، تعبيرا عن هويتهم الحضارية والوطنية التي تمتد جذورها في عمق التاريخ.

شهدت الصحراء الوسطى لشمال إفريقيا تغيرات عديدة منذ فترة ما قبل التاريخ وإلى الوقت الحاضر، عبر حلقات متواصلة من مراحل تاريخها، تجسدت في مواقع مختلفة، من بينها منطقة

التاسيلي نزجر، الذي عرف فنا صخريا راقيا يعكس الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية لصانع تلك اللوحات الصخرية، فإذا كان هذا الفن يعد دليلا قاطعا على تاريخ إنسان هذه المنطقة وثقافته،فإنه يدعونا إلى التساؤل عن ماهية هذا الفن؟ وعن البيئة الطبيعية التي جعلت من الطاسيلي مركزا حيويا له؟ وكذا المراحل التي عرفها الفن الصخري؟ وأيضا عن صاحب هذه الرسوم وأبعادها الحضارية والفنية؟

1. معطيات عامة:

عرف تاسيلي نزجر بيئة رطبة، مشبعة بغطاء نباتي وحيواني ومائي قبل أن تؤول الصحراء إلى الجفاف، الذي هي عليه اليوم. وإن بحثنا عن تلك الحياة الرطبة، جعلنا ندرك من خلال الأبحاث الأثرية ودراسات الجغرافيا الفيزيائية, أن الطاسيلي الذي يترادف لفظه ومعنى الهضبة باللسان التارقي، وآزجر تمييزا له عن تاسيلي الآيير بجنوب الهقار، يتراوح معدل ارتفاعه ما بين 1200-1500م، ويصل علو ذروته إلى ارتفاع 2335م.[1]

يمتد عرض التاسيلي حسب ما أورده الباحث لوت(Lhote) ، الذي عاينه عن قرب من إقليم فزان (ليبيا الحالية) إلى واد إيغارغار، أما طوليا، فهو يمتد على أكثر من 700كم، من أمقيد بالشمال الغربي إلى الحدود النيجرية بجنوب عين قزام[2]، ويتشكل هذا التاسيلي من هضبتين تتطابق إحداها على الأخرى مثل درجتي سلم، ونعني بها التاسيلي الداخلي والتاسيلي الخارج[3].

جعلت الجيولوجية التي شكلت جزءا من التحولات التي عرفتها الصحراء الوسطى، التاسيلي يتكون خلال حقبة الباليوزويكي، لكن ليس كما هو ممثل اليوم، بل بدأ بالتكدس والترسب تدريجيا في شكل كتل ضخمة من الرمال، في محيط قاري وبحري، وبفعل عوامل ديناميكية قارية وبحرية تخللتها بعض النشاطات البركانية، فبعد أن أصبحت هذه الكتلة منتصبة على شكلها الحالي، أمكن لهضبة التاسيلي أن تتربع على مساحة 350 ألف كلم^2.[4]

وقد ساهم المناخ في إرساء بنية هذه المظاهر الطبيعية للتاسيلي، وتطور جيولوجيتها منذ بداياتها الأولى، خلال فترات باكرة. إذ عرفت خلال العصر الجيولوجي الرابع، ثلاث مراحل مناخية متعاقبة، ونعني بها المرحلة الرطبة الأولى التي تزامنت والباليوليتيك الأسفل، ثم تلتها مرحلة جافة طويلة، بدأت خلال العصر الآشولي، حيث امتدت على طول الباليوليتيك الأعلى وجزء من النيوليتي. وأخيرا مرحلة رطبة ثانية خلال النيوليتي[5].

وانعكست هذه التغيرات المناخية التي عرفها التاسيلي نزجر منذ زمن بعيد، على شبكة المياه والغطاء النباتي والحيواني، فمن الوديان التي كانت دائمة الجريان خلال تلك المراحل الرطبة، نجد واد جرات مثالا على ذلك[6] . وأما الحيوان، فإنه يكفينا أن نتتبع المكتشفات العظمية المتنوعة، والتي تعبر عن مكنون التاسيلي نزجر في الماضي، حيث تعود إلى فصائل تغيب كليا في الوقت الحاضر، ونعني بها حسب ما عاينه المكتشفون بالمنطقة، كلا من الفيل القديم، الجاموس، الحمار الوحشي، الزرافة، وسمكة السلور بالنسبة لفترة الباليوليتيك. كما وقد وجدت عظام لفرس النهر، وحيد القرن، ظباء، تماسيح، سلاحف وأسماك متنوعة ترجع إلى العصر الحجري الحديث[7].

إذا كان هذا هو حال البيئة الحيوانية التي عرفها التاسيلي نزجر في تلك الفترة، فإن للنبات الذي عاصره هو الآخر نصيب في المساهمة في إثراء هذه المنطقة، وجعلها محيطا حيويا آنذاك، ففي الألف السابع ق.م، ساد جبال هذه المنطقة مناخ رطب جعل قممه مكسوة بالغابات، كما ساد الارتفاعات المتوسطة صنوبر الألب، وأشجار الزيتون. وقد بقي هذا الغطاء النباتي على كتل الهقار والتاسيلي نزجر إلى غاية الألف الثالث على أقل تقدير، وهي الفترة التي دخلت فيها الصحراء الوسطى مرحلتها النهائية من الجفاف[8].

إلى جانب تلك الفصائل، نجد فصائل نباتية أخرى بالتاسيلي نزجر في تلك الفترة، مثل السرخس الذي عاصر مرحلة النيوليتي الرطب، وبعض الفصائل من الأرز، وكذا شجر القطن في السهوب[9]، هذا ونجد في جانت بالتاسيلي نزجر على ارتفاع 500م الغطاء النباتي المعشب للمستويات الأثرية العائدة إلى الألف الثاني ق.م، تحتوي على أنواع من السرمقيات (فصيلة نباتية من ذوات الفلقتين) والنجليات[10].

وإن كانت معطيات هذه الدراسات الجيولوجية والعلمية، المتعلقة بتلك المكتشفات النباتية والحيوانية لا تكفي لإثبات الكنه الحضاري لمنطقة التاسيلي نزجر، فإن الرسوم الصخرية التي وافقت نفس تأريخ هذه المكتشفات، لأكبر دليل على وجود حياة للإنسان وثقافته وفنه، التي تركها ماثلة للعيان على مر الزمان، في لوحات فنية متعددة المراحل. فالرسوم الصخرية تشهد على بيئة حيوانية وحشية وكذا عشبية في مراحل لاحقة[11] . كما أن النقوش الصخرية التي احتوت على رسوم الأبقار بالآلاف، تؤكد وجود أعشاب كثيرة من النجليات، حتى ذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن تلك القطعان العديدة من الأبقار قد أدت إلى هدم الغطاء النباتي، وبالتالي إلى التصحر فيما بعد[12] . هذا وإن اللوحات الفنية المتعددة بواد جرات لدليل آخر على

اختيار الإنسان للاستقرار على ضفاف ذلك النهر، وبالتالي حيوية هذا الأخير، وتدفقه خلال تلك الفترة المواكبة لإنجاز تلك الرسوم والنقوش.

2. أهم المراحل التاسيلي نزجر:

هذه الوثائق المكتوبة والمتعددة، نقوشا أو رسوما كانت، قدمتها لنا الواجهات الصخرية ومغارات التاسيلي نزجر، تعد من بين المصادر، التي تحدد طبيعة الإنسان المغاربي القديم بالصحراء، وآثارا لوجوده، كما تعكس الذوق الفني العالي له. ودراسة هذه الرسوم مكنت من التعرف على عدة أطوار لها تعود إلى أكثر من فترة[13]، إذ مرت تاسيلي نزجر بخمس مراحل كبرى، استحضرت معظمها الحيوان الأكثر تجسيدا بمشاهدها.

أ. مرحلة الجاموس:

وأقدم هذه المراحل تلكم المسماة بمرحلة الجاموس(Bubaline) ، تمييزا للجاموس القديم الذي يعتبر فصيلة أحفرية من نوع إفريقي[14]، وتعود نقوش هذه المرحلة إلى النيوليتي القديم مع اتصاله بالباليوليتيك الأعلى، حيث استمرت إلى غاية الألف الخامس ق.م. ويمكننا أن نلاحظ على نقوشها نوعا مقلدا للطبيعة، إذ تجسدت مشاهد لفيلة، أفراس النهر، وحيد القرن، ظباء كبيرة، جاموس، نعامات، تماسيح، أفاعي ضخمة وأسماك[15]، فعبرت بذلك عن إنسان صياد، أو صاحب الحجارة المصقولة، ومهما كان هذا الإنسان قادرا على صناعته في ذلك الوقت، من مقصات ومسلات أو صنارات حجرية أو عظمية، فإنه اكتفى بتنظيم اجتماعي مبكر جدا[16].

ب. مرحلة الرؤوس المستديرة:

وأما عن الطور الذي تلي فترة الجاموس، فقد سمي بمرحلة الرؤوس المستديرة Les têtesrondes))، التي أبدع لوحاتها جماعات بشرية شغلت االتاسيلي نزجر منذ الألف العاشر ق.م، حيث تحولوا عبر مدة قصيرة تمتد إلى 800 سنة ق.م إلى النيوليتي واقتنوا الفخار حوالي سنة 9000 ق.م، إذ دلت الأقداح التي لوحظت محمولة في موكب للنساء ضمن رسوم الرؤوس المستديرة على ذلك[17].

ومن بين أروع الجداريات الرمزية التي شهدت على ذلك, نجد اللوحة الفنية التي عرفت بالإله الأكبر بمنطقة سفار (Sefar)، والتي تميزت بصور تحمل أقراص وبداخلها أشكال هندسية. ويشير الباحثون إلى أن أصحاب هذه الرسوم قدموا ملامح زنجية، سيما وأن هناك خاصية

منتشرة بكثرة في الفن الزنجي، وهي أنه إضافة إلى الرسوم الجسدية التي تكون إما رسوما أو وشما، فسنجد أنفسنا أمام سلسلة من الوقائع التي تدخل في المعنى الزنجي[18]، وهذا ما جسدته رسوم هذا الطور بالتاسيلي نزجر.

ت. المرحلة البقرية:

وتمثل المرحلة التي عرفت بالبقرية (Bovidienne)، الطور الذي تلي الرؤوس المستديرة، إذ شغلت البقرة الأليفة مركزا مهما في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فأصبحت الموضوع الأكثر انتشارا في الفن الصخري، وفسحت بذلك المجال للمختصين لأن يمنحوا اسمها لهذه المرحلة[19]، وقد امتد الطور البقري ما بين الألف الرابع ق.م، إلى غاية الفترة التاريخية، فالتاسيليون القدامى، تبنوا البقرة بواسطة رعاة يعتقد بأنهم عرفوا تربيتها عن طريق جيرانهم المصريين. ذلك أن القبائل التي استوطنت غرب مصر، كانت قد عرفت هذا التدجين في وقت مبكر. وبالمقابل نجد بأن الغطاء الحيواني الإثيوبي كما يسميه الباحثون، والذي سبق البقرة، قد تراجع في رسوم هذه المرحلة[20].

وبالنسبة لأصحاب فن هذا الطور، فقد أشار المختصون إلى أن زنوج مرحلة الرؤوس المستديرة، قد استمروا في تطورهم في المخطط الاقتصادي، ووصلوا إلى إحدى التجديدات الهامة للعصر الحجري الحديث، وهو استئناس الماشية، والبقرة بشكل خاص، فعرفوا بالبقريين[21]، وما يمكن أن نشير إليه في المرحلة البقرية، هو أنه إلى جانب البقرة وذلك الإنسان الزنجي الذي صور معها، فقد أظهرت رسومات التاسيلي نزجر سكانا من عرق أبيض، فشكلوا بذلك نوعا هجينا لهذه المرحلة[22]، وكأمثلة على لوحات هذا الفن، يشير ميزوليني(Muzzolini) إلى رسوم سفار، التي احتوت على راعي زنجي بجانب البقرة، وكذا مجموعة إيهرير تاهيلاهي، التي أظهرت بدورها رعاة بقريين من جنس أبيض، وهو يدل على تعايش الجنسين الأبيض والزنجي في هذه المرحلة نفسها[23]، ولئن كان هؤلاء الزنوج هم النازلين من فترة الرؤوس المستديرة، فإن الفجر بربريين الذين هاجروا من الشمال نحو الجنوب، تتبعا للظروف المناخية الملائمة، يعتبرون أصحاب ذلك العرق الأبيض المصور في فن البقريين، وهذا دليل على التواصل بين إنسان الشمال والجنوب من بلاد المغرب منذ تلك الفترة[24].

ث. المرحلة الخيلية:

وبعد البقرة نجد الفن الصخري للتاسيلي نزجر يدخل مرحلة أخرى من تاريخه ومكنونه

الحضاري، وهو المرحلة الخيلية (Caballine)، التي أنجزت مشاهد لوحاتها الفنية بعد انقلاب كبير حصل في إفريقيا عموما، وهو دخول الحصان، حيث يعتقد بأنه دخل إلى ليبيا، ونقصد بها شمال إفريقيا كما عرفها المؤرخون الإغريق، عن طريق شعوب البحر خلال الألف الثاني قبل الميلاد، بالموازاة مع جفاف الصحراء الذي سيدوم إلى اليوم، وكذلك مع ظهور المعادن. هذه الأخيرة التي سمحت بالتسلح بواسطة الحربة، والدرع الدائري والمثلث، التي حلت محل القوس بالنسبة لصحراويي شمال إفريقيا[25].

هؤلاء الخيليين الذين اجتاحوا جداريات التاسيلي نزجر، مثلوا فئة حربية فرضت نفسها علي البقريين الهجينين، وكذا على الزنوج الذين سبقوهم (الرؤوس المستديرة) ولم يختفوا من المشاهد الصخرية، حيث يشير المؤرخون إلى أنهم جاؤوا من الشمال الشرقي، عن طريق برقة وفزان[26]، وقد سمي أصحاب هذه المرحلة الخيلية بالليبيين الصحراويين عند المؤرخين الكلاسيكيين، فالخيليين سائقي العربات ظهروا في الفن الصخري، مع تزايد الأهمية الاجتماعية وحتى الديمقراطية للشعوب المتوسطية، خلال المرحلة التي توافق النيوليتي النهائي وحتى فجر التاريخ[27].

وأما عن عرباتهم التي طبعت هي الأخرى هذا الطور من الفن الصخري، فقد صورت بالتاسيلي نزجر في شكلا لعدو السريع الطائر (galop volant)، وهي قديمة جدا وغالبيتها ملون بمادة المغرة[28]، وهو ما جعل هيرودوت يتحدث عنها واصفا إياها بالعربات الطائرة في نص حديثه عن قبائل الجرامنت التي عاشت بجوار التاسيلي نزجر، والتي اتخذت من العربات الحربية وسيلة لها في ذلك العصر، وصورتها على الجداريات الصخرية، حتى ذهب هيرودوت إلى القول بأن الإغريق قد عرفوا استعمال العربات التي تجرها أربعة خيول من الليبيين[29].

ج. مرحلة الجمل:

وإذا كان هذا حال التاسيلي نزجر خلال فجر التاريخ وبداية العصور التاريخية، فإن القرنين الثالث والرابع ميلاديين، الموافقين للتواجد الروماني ببلاد المغرب، قد طبعا الفن الصخري بمشاهد تصور الجمل، حيث تختفي العربات والأحصنة نهائيا في بداية هذه الفترة، فاتخذت هذه المرحلة الجافة، التي استوجبت حضور هذه الحيوان بقوة اسم طور الجمل[30] (Cameline) (30)، هذا الأخير الذي مثل آخر مرحلة للفن الصخري بالمنطقة.

الخاتمة:

الفن الصخري بهذه المراحل الخمس، وباستمرار صاحبه في إبداع لوحاته الفنية عبر فترات متواصلة، عكس التواصل الحضاري للإنسان الذي عاش بالتاسيلي نزجر، ومثل سلفا للإنسان المغاربي، من خلال مشاهد فنية تعكس إرثا حضاريا يتوجب الحفاظ عليه، لأنه رسالة الأجداد إلى الأجيال الحاضرة واللاحقة، تعبيرا عن هويتهم الحضارية والوطنية التي تمتد جذورها في عمق التاريخ.

ملحق الصور:

الصورة رقم (1): مرحلة الجاموس (واد جرات، تاسيلي نزجر)

الصورة رقم (2): مرحلة الرؤوس المستديرة (تان زومايتاك، تاسيلي نزجر)

الصورة رقم (3): المرحلة البقرية (صفار، تاسيلي نزجر)

الصورة رقم (4): المرحلة الخيلية (تيهونت تيووساكيت، تاسيلي نزجر)

الصورة رقم (5): مرحلة الجمل (هضبة ميداك)

(M .Hachid ,2009,pp .1O5-116)

هوامش البحث:

1 . Breuil (A. H), « Les roches peintes du Tassili- n- Ajjer », congrè spanafricain de préhistoire. 1952, Ed. Art et métiers graphiques, Paris, 1955, p.8.

2 . Duveyrier (H), Les Touaregs du nord, T. 1, éd. Libraire Challanel Ainé, (1864), p. 55.

3 . Hachid (H), Le Tassili des Ajjer, éd. E. D. I. F, (Alger 2000), p. 19.

4 . Ibid., p. 25.

5 . Lhote (H), Les Touaregs du Hoggar, deuxième édition, (Paris 1955), p. 32.

6 . Pomel (A), Le Sahara, Ed. association ouvrière victoire Aillaude et Compagnie, (Alger 1872), p. 16.

7 . Lhote (H), OP. Cit, p. 44.

8 . Camps (G), Les civilisations préhistoriques de l Afrique du nord et du Sahara, Ed. DOIN, Paris , 1974, p.222.

9 . Furon (R), Le Sahara, Ed. Payot, Paris, 1958, p. 32.

10 . Anonyme, C. R. A. P. E, «le site préhistorique de Tin-Hanakaten. Tassili- n-Ajjer», Bulletin inférieur, N. 5, 1976, p. 6.

11. Capot- Rey (R), Le Sahara français, T. 2, Ed. presse universitaire de France, Paris , 1953, p. 75.

12 . Lhote (H), Le Sahara désert mystérieux, Ed. Bourrelier, Paris, 1958, p. 95.

13 . Ibid., pp. 92. 93.

14 . Hachid (M), L'art rupestre du Tassili n Ajjer, Racines, N. 1, Ed. Office du Parc National du Tassili, l Algérie, 2009, p. 107.

15 . Lhote (H), Les touaregs du Hoggar, pp. 65-66.

16 . Basil (D), Les royaumes africains, Ed. Time Inc., (1966), p. 46.

17 . Hachid (M), Op. Cit, p. 106.

18 . Lhote (H), Le peuplement du Sahara néolithique d'après l'interprétation des gravures et des peintures, Journal de la société des africanistes, T. XL, Ed. Au siège de la société Musée de Lhomme, Paris , 1970, p. 96.

19 . Hachid (M), Op. Cit, p. 108.

20 . Mauny (R), Gravures peintures et inscriptions de l'Ouest africain, Ed. 1. F. A. N, Dakar, 1954, p. 9.

21 . Hachid (M), Les premiers Berbères entre Méditerranée. Tassili et Nil, Ed. Ina- Yas, Alger, 2001, p. 77.

22 . Camps (G), Les Berbères mémoire et identité, Ed. Barzekhe, l'Algérie, 2007, p.73.

23 . Muzzolini (A), L'art rupestre du Sahara central, T. 1. 2, Ed, laboratoire de pays du méditerranée occidental, 1983, p. 375.

24 . Hachid (M), Op. Cit, p. 89.

25 . Mauny (R), Op. Cit, p. 14.

26 . Camps (G), Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du nord et du Sahara, p. 246.

27 . Camps (G), Les Berbères mémoire et identité, pp. 74-77.

28 . Lhote (H), Les Touaregs du Hoggar, p. 72.

29 . هيرودوت، التواريخ، الكتاب الرابع، نصوص ليبية، ترجمة علي فهمي خشيم، منشورات دار الفكر، طرابلس، ليبيا، 1967، ص: 88.

30 . Mauny (R), Op. Cit, p. 14.

القصبات في منطقة القورارة
مفهومها وإشكالية وظيفتها

د. بن عبد الله نور الدين (جامعة الجلفة)

Abstract:

Casbah or "Old Medina" is considered as an architectural form that had spread in North Africa. It is also a model of traditional architecture, yet it is qualified as a defensive architecture, which raises a problematic in its concept and function. In this paper I tried to answer the question in relation with the region of Gourara (province Touat).

We conclude that it was the first nucleus of construction in those areas, and it was arranged to be used in case of necessity, which gives a defensive characteristic.

مقدمة:

تعد القصبات من أهم العناصر المعمارية في منطقة الصحراء خاصة إقليم توات منها، فقد حظيت باهتمام العديد من الدارسين الغربيين، كما كثر الحديث حول جدوى وجودها ووظيفتها، أكان ذلك لأسباب دفاعية؟، أم لأسباب اقتصادية؟ إذ يذهب جل من درسوها إلى القول أن القصبة في قصور الجنوب، هي عبارة عن مخازن جماعية لسكان القصر، خاصة في منطقة القورارة،أما في منطقة توات الوسطى فهي سكن عائلة أو مجموعة من العائلات تربطها علاقة قرابة.

إلا أن النمط المعماري الذي بنيت به القصبات، يجعلنا نحتمل أن وظيفتها لم تكن للتخزين فقط فشكلها الحصين (أبراجها وخنادقها وأسوارها، إضافة إلى اختيار المواقع المرتفعة لبنائها)، يجعلنا نحتمل أنها قد تكون النواة الأولى لعمران القصر خاصة وأنها تحتوي على كل المرافق الضرورية لحياة الناس؛ أو أنها من العمائر الدفاعية لتلك المناطق. ولهذه الأسباب كانت ورقتنا البحثية من أجل استجلاء ما أغمض من أسرار القصبات.

1. مفهوم القصبة:

القصبة في اللغة تعني جوف القصر، وقصبة البلد مدينته، وقيل معظمه، والقصبة جوف الحصن، يبنى فيه بناء هو أوسطه، وقصبة القرية وسطها[1]. وهذا التعريف ينطبق على عمارتها.

أما اصطلاحا فالقصبة هي بناية كبيرة تتخذ في الغالب شكلا مربعا، كما تتشكل من عدة طوابق يخصص الأرضي منها للبهائم والدواب، أما البقية فهي للسكن وبقية الشؤون المعيشية الأخرى؛ كما تتميز القصبات بارتفاع نسبي في أركانها الأربعة، فيما يشبه غرفا مستقلة (الأبراج)، والقصبة قد تكون مشتركة بين عائلتين أو أكثر مع وجود باب خارجي وحيد، كما أنها تشيد في الغالب من مزيج من الطوب والحجارة، وتطلى بعد ذلك بالطين، حيث يراعى في بنائها المتانة والجودة، مما يمكنها من الصمود لدهور عديدة؛ وهي بهذا تأخذ شكل البناء الحربي[2].

أما بداياتها فيرى Henri Terrasse، أنها ترجع الى الأصل الروماني[3]، ويرجعها البعض إلى الأصول المشرقية، العراقية والمصرية[4].

والقصبة في المناطق الشمالية من الجزائر هي المدينة القديمة بعمرانها وعمارتها ومرافقها، والمحاطة بالأسوار التي تتخللها أبواب معلومة، على غرار قصبة الجزائر، وبجاية، وغيرهما.

2. القصبة في القورارة:

إذا كانت القصبة هي المدينة القديمة كما في المدن الشمالية، فيختلف الأمر، في المنطقة، فهي تارة سكن عائلة، أو مجموعة من العائلات المتصلة بصلاة الدم، كما في منطقة توات الوسطى، وهي كذلك المخزن الجماعي لكافة أهالي القصر، وهو ما نلاحظه في منطقة القورارة، والجدير بالذكر أن القصبة تزود بكل العناصر الدفاعية، إضافة إلى المرافق الأخرى (بعض البيوت، المسجد، والبئر).

غير أن هذه الوضعية تطرح عدة أسئلة أهمها لماذا تمت تهيئة القصبات بكل تلك المرافق؟ حتى أضحت عبارة عن حصون حصينة، أكان ذلك كله بسبب خشية الأهالي على محصولهم، أم هو الاستعداد لأي طارئ قد يفاجئهم؟.

والجدير بالذكر أن مصطلح القصر قد يطلق على القصبة، في هاته المنطقة (القورارة)

ومعنى هذا أن القصر يساوي القصبة، والقصبة تساوي القصر، الشيء الذي يجعلنا نحتمل أن هذا الازدواج في المصطلح مرده إلى أن القصبة هي النواة الأولى للعمارة، بمعنى أن الأهالي سكنوا القصبة في بداية الأمر، ولما تزايد عددهم صار لزاماً عليهم الانتقال من اجتماع اقل إلى اجتماع أوسع، مما افرز عمران القصر بالشكل الحالي.

وبالتمعن في شكل القصبة،نقف على حقيقة مفادها أنها بنيت لأسباب أمنية محضة،وهو ما يمكن استنتاجه من خلال النزاعات التي شهدتها المنطقة، مما جعل الخوف يسيطر على أهاليها وهو ما ظهر في شكل عمائرهم،ذلك لأن الغاية من العمارة هي توفير الحماية الكافية لساكنتها.

ولهذا فنحن نميل إلى القول أن القصبة كنموذج معماري هي أقدم من القصر، ونظرا لتزايد عدد السكان وضرورة الانتقال من اجتماع ناقص إلى اجتماع كامل، وبانعدام عوامل الخطر التي كانت تهدد السكان خرجوا من هاته العمائر ليعمروا بجانبها وبالقرب من بساتينهم، فاتسع بذلك العمران وكثرت المباني.

ومهما يكن فقد حظيت القصبة باهتمام الكثيرين، ومنهم (بييترو لورو) حيث قال:(..إن البربر المنحدرون من شعوب فترة العصر الحديث والتي توجهت نحو السفانا الجنوبية بسبب التصحر الذي حل بمناطقها وكونت اكبر سلسلة من القرى الحجرية الدائرية الشكل الواقعة بين حوض المتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء، هاته القرى الواقعة على مرتفعات معزولة تحمل صفة القرى الدفاعية فالأجزاء المبنية في الأعلى محصنة بالحجارة ومنظمة في شكل حجرات صغيرة بشكل مخازن)[5]، أما (ر-كابوراي) في مؤلفه

(greniers domestiques et greniers fortifies au Sahara le ca du Gourara):

فيقول:(يتم الاحتفاظ بالمحصول الزراعي في الصحراء إما في مطمورات أرضية أو في حجرات داخل المنازل، غير أن الأمر يختلف بالنسبة للقورارة فهي المناطق الوحيدة التي بها مخازن محصنة كالقلاع تسمى (القصبة) وهي تشبه القلعة في أغادير)[6].

وقد أشار في نفس المقال إلى ظاهرة وضع المحاصيل الزراعية في قلاع شديدة التحصين(تعرف بالقصبات) وهي من مميزات منطقة القورارة[7]. وعلى هذا الأساس تكون القصبة حسبه هي:

مخازن القصر $\sum$=القصبة

كما يضيف أن معظم سكان القورارة يستعملون كلمة قصبة للدلالة على القصر أي أن:

القصبة= القصر

ويضيف أن هذا الاستعمال يطابق ما يعرف في الجنوب التونسي بالغرف

(الغرف (الجنوب التونسي $\sum$=القصبة=القصر

وعندما تحدث عن قصبة بني مهلال، قال أنها توجد داخل القصر، وهو ما ثبت لنا من خلال الزيارات الميدانية للمواقع.

القصر ⊃ القصبة

أما (إيشالييه) في معرض حديثه عن عمارة الصحراء، (توات – القورارة - المنيعة) قال:(إن جل قصور القورارة بنيت فوق تلال صخرية، وقد بنيت بالحجارة، أو مزيج من الحجارة والطين، إضافة إلى شكل السور الدائري، أو الشبه الدائري. وبخصوص شكل السور(الدائري) يقول انه محلي النشأة أو بربري، وذلك لسهولة إنشاء الشكل الدائري الذي لا يعتمد على الزوايا)[8]، وهذا راجع بطبيعة الحال حسب نفس الكاتب لعدم خبرة البناءون في هذا المجال.

ومع هذا كله فالفرنسي (مارتان) يرى أن طريقة تخزين المحصول في قلاع حصينة خاصة بالبربر، وبما أن منطقة القورارة منطقة بربرية، فكان لزاما وجود هذا النوع من المخازن المحصنة.

و يورد كدليل على صحة فرضيته وجود القصبة في منطقتين متجاورتين (توات، القورارة)، واحدة سكانها من العرب، والثانية من البربر، وهو ما أدى إلى اختلاف وظيفة القصبة فيهما.

ويذهب إلى ابعد من ذلك فيقول أن القصر في منطقة القورارة هو سكن جميع طبقات المجتمع، (فقراء وأغنياء)، بينما تستعمل القصبة لحفظ المحصول، أما في منطقة توات فالأمر مختلف، ذلك لأن القصبة هي ملك لعائلة ميسورة الحالة، أو تعود ملكيتها إلى مجموعة من العائلات تربط بينها قرابة النسب، أما القصر فتسكنه الطبقات الدنيا في المجتمع (فقراء، عبيد..)[9].

وعلى هذا الأساس يكون وجود نمط المخازن المحصنة له علاقة بالبربر؛ إلا انه نسي أن قصور تبلكوزة في منطقة القورارة على سبيل المثال تسكنها قبائل عربية، ومع ذلك نجد فيها نفس القصبات المحصنة ولنفس الغرض، وإذا سلمنا بهذا الافتراض لكان من الممكن وجود نفس الوسيلة للتخزين عند قبائل بربرية أخرى(بنو ميزاب، الطوارق).

إلا أن (كابوراي) يرى أن وجود هذا النمط من المخازن المحصنة في منطقة القورارة يعود في غالب الأحيان إلى محاولة وضع المحصول في معزل عن النهب والسرقة، وبما أن هذه المنطقة توجد بمحاذاة القبائل العربية في الشمال والبربرية (العبيدين) في المغرب، وهو ما يجعلها عرضة للسرقة والاعتداء[10]. وما يدعم هذا الرأي هو احتفاظ ذاكرة الأهالي للعديد من الذكريات السيئة، عن تحرش المغاربة بالمنطقة إلى نهاية القرن19م (علما أن تلك المخازن تتميز بصغر مداخلها وهو ما يطرح إشكالية جدوى هذا الصغر).

ومع كل هذا نرى أنه من الممكن أن يكون السبب الأساسي في وجود هاته الظاهرة المعمارية راجع للغرض التجاري، ذلك كون المنطقة اعتبرت همزة وصل في طريق التجارة العابرة للصحراء في العصر الوسيط، فجاءت القصبة لحفظ المحاصيل الموجهة للتصدير، أو المبادلات التجارية؛ وبهذا يوجه الفائض عن حاجة الناس للمقايضة في الأشهر التي تلي موسم الحصاد[11].

وعلى هذا الأساس تكون القصبة في منطقة القورارة، عبارة عن مستودعات للسلع الموجهة للتصدير أو المبادلة التجارية.

وعلى افتراض صحة كل ما ورد من أراء هؤلاء الدارسين، فما جدوى وجود المساكن، والبئر والمسجد في تلك القصبات؟، فهذه العناصر تمكننا من افتراض أن القصبات سكنت، أو أعدت لتسكن في حالة معينة، وكلاهما له جانب من الصحة، فالقول بأن القصبات في القورارة سكنت

من قبل يعني أنها هي أول العمائر في تلك المناطق، حيث أن أول من عمر تلك المناطق شيدها لتوفر له الأمان والحماية، فجاءت في شكل قلاع محصنة.

والدليل ما أورده ابن خلدون أثناء حديثه عن من سكن القصور التي اختطتها زناته في الصحراء ومنها قصور السوس غربا ثم توات....ثم تيقورارين شرقا؛ وهذا دليل على أن من شيد تلك العمائر في القفر هم قبائل زناته، كما أن مناطق توات هي مواطن بنو يالدس من مغراوة[12].

وعلى اعتبار أن منطقة القورارة تقع على طريق الذهب، فطبيعي أن تلقى اهتمام من قبل الدويلات التي قامت في المغرب الإسلامي، محاولة منهم السيطرة على طريق الذهب، ولهذا سعى الفاطميون إلى الاستيلاء على تاهرت سجلماسة، اللتان كانتا سوقين كبيرتين، تتحكمان في المحورين التجاريين الشرقي والصحراوي[13].

كما أن الرأي القائل، بأنها عبارة عن مستودعات السلع الموجهة للتصدير، يرجح فرضية، أن تلك القصبات عبارة عن فنادق، عدت للتجار في طريق ذهابهم وإيابهم، وقد يؤيد هذا الطرح، الوظائف التي أفرزتها الحركة التجارية في تلك المناطق، حيث كان من الأهالي أدلاء الطريق، الذين استعان بهم التجار في شق تلك القفار الصحراوية.

أما الرأي الآخر فهو أن تكون القصبات أماكن يلجأ إليه الأهالي عند أي خطر يهددهم، فكذلك له جانب من الصحة، بالنظر إلى ما قلناه آنفا، بأن المنطقة كانت محل نزاع بين جميع الدويلات، التي قامت في المغرب الإسلامي كونها تقع على طريق الذهب، مما يجعل أهلها معرضون للخطر باستمرار.

إضافة الى أن وجود عدد من القبائل والإثنيات (عرب، بربر، يهود...)، في منطقة واحدة، ولد بينهم العديد من الصراعات، في محاولة السيطرة على المكان، وهو ما يعرف بمبدأ التدافع.

ومن هذا نستنتج أن حياة الناس كانت بين الكر والفر، مما حتم عليهم تشييد حصونا تقيهم من كل هجوم، فقد ذكر ابن خلدون أن سكان هاته القصور من زناته وقد كانت بينهم حروب وفتن على رئاستها[14]، ويدعم هذا الرأي قول أحد المؤرخين المحليين بأن العداوة التي سادت بين هؤلاء القوم هي عداوة الشيطانية[15].

والملاحظ في قصبات منطقة القورارة، أنها جاءت في غالب الأحيان، دائرية الشكل أو شبه مربعة، كما أن عدد بيوتها قليل جداً، إذ لا يتعدى العشرون بيتاً، مما يعطينا صورة جلية عن كثافة سكان القصبة، وهو ما يدعم فرضية كونها (القصبة) النواة الأولى لإعمار تلك المناطق، ولما كثرت الكثافة السكانية اضطر السكان للانتقال إلى فضاء أوسع يستوعب اجتماعهم.

كما أن هاته القصبات جهزت بكل عناصر العمارة الدفاعية؛ إضافة إلى هذا يلاحظ وجود عدد من المغارت الكبيرة، تحت كل قصبة من قصبات القورارة، وهي مغارات مهيأة في الصخرة التي تم البناء عليها، قيل أنها كانت في القديم تملأ بالماء، ثم تسد مداخلها بالحجارة لكي تفتح عن أي هجوم خارجي فتملأ الخندق بالماء، وقد جاءت مداخلها في مستوى مرتفع عن أرضيتها مما سهل عملية الاحتفاظ بالماء مدة طويلة، إلا أنها في الوقت الحالي تستعمل من قبل الأهالي كمطمورات لخزن بعض المحاصيل الزراعية، إضافة إلى استعمالها أماكن يلجأ إليها الناس في الصيف، هروبا من حرارة الجو، وهذا لما تتميز به من البرودة، والجو المنعش.

الخاتمة:

وبعد عرض ما جاء من أراء الدارسين لظاهرة القصبات في مناطق القورارة، ومقارنتها بالقرائن الأثرية التي وجدناها بعد الزيارة الميدانية لتلك المواقع، إضافة إلى معرفة الواقع المعاش من خلال مساءلة أهالي تلك القصور، استطعنا أن نخرج ببعض النتائج جملت في مايلي:

- ❖ إن القول باستعمال القصبات لتخزين المحصول خوفا من نهب قطاع الطرق وغيرهم، له جانب من الحقيقة، غير أنه يعترض مع وجود كل المرافق الضرورية لحياة الأهـالي (بئر، مسجد، مساكن) مما يجعلنا نحتمل أن هاته القصبات قد تمت تهيئتها لظروف استثنائية (تعرض القصر لهجوم خارجي) ولاحتوائها على جميع مقومات الحياة، فإنهم يستطيعون الصمود ومواجهة العدو لعدة أيام.

- ❖ أما الفرضية الثانية وهي كون القصبات عبارة عن النواة الأولى لإعمار تلك المناطق الصحراوية، فنعتمد فيه على الهجرات البشرية التي عرفتها تلك المناطق من إقليم توات، فقد كان اللجوء إلى هذه الصحاري البعيدة بحثاً عن الأمن الذي فقدته في مواطنها الأصلية، ومن تلك الأقوام تكون النسيج الاجتماعي للقصور (بربر، عرب، أفارقة ويهود)، وبالرغم من بعد المسافة عن الموطن الأصلي، غير أن هاجس الخوف من المجهول، أو من تكرار المآسي السابقة

ظل مسيطراً عليها، وهو ما دفعهم إلى بناء مساكنهم بشكل الحصون، كما أن الحروب والفتن التي قامت بين تلك الأقوام (للسيطرة على المكان) كان لها دور في ظهور القصبة بشكلها الدفاعي، وبعد استقرار الأوضاع الأمنية، وتزايد عدد السكان، كان لزاما عليهم الخروج من تلك القصبات، ليعمروا بجانب بساتينهم فكان ما يعرف الآن بعمارة القصر، التي جاءت على هيئة القرى الزراعية، وبهذا يكون عمران القصبة أسبق من عمران اقصر.

نمو السكان	**نمو السكان**
...عمران المدينة←... عمران القصر.....← عمران القصبة.....	

❖ أما ظاهرة صغر مداخل المخازن، التي تنتشر في كامل قصبات منطقة القورارة، فنرى أن التفسير الوحيد لها هو الزيادة في الحرص على المؤونة، الموجودة داخلها، فصغر المدخل حتما يعمل على إعاقة السارق، هذا فضلا على أن صغر المداخل يعمل على الاحتفاظ بقسط كبير من الرطوبة اللازمة لتفادي تلف المحاصيل الزراعية داخل تلك المغارات، وهذه التقنية تبين لنا مدى وعي إنسان المنطقة بالظروف الصحية لسلامة المحاصيل الزراعية.

❖ وبالنسبة لشكل القصبات الذي يغلب عليه الدائري، وحسب (إيشالييه) فهو محلي النشأة، وقد دام استعماله لمدة ثمانية قرون، ويرى معمري مولود، أن استعمال الشكل المربع ذي الأبراج الركنية، لم يكن إلا بدءا من القرن16م؛ وذلك بعد دخول السلاح الناري[16].

فنرى أنه من الطبيعي أن يكون الشكل الدائري هو الشائع في تلك المناطق، وذلك للأسباب الجغرافية التي تتميز بها منطقة القورارة، وهو السبب في استدارة الجدار، وهي كون أن تلك العمائر بنيت على مرتفعات صخرية غير مهيأة، وبالنظر إلى بدائية أدوات العمل فإنه لم يتسنى للبناة تهيئة الصخرة قبل البناء عليها، ولهذا جاءت الأسوار منحنية، والدليل على ذلك هو تكرار الظاهرة في جدران البيوت، دون أن ننسى سهولة تنفيذ الشكل الدائري الذي يشبه الأكواخ المستديرة المنتشرة في إفريقيا، وهذا ما يؤيد فرضية انتقال النمط الثقافي مع الانتقال البشري.

وفي هذا يورد عبد القادر:(لقد كان الفن المعماري الأصيل لإفريقيا قبل الإسلام، هو البناء المستدير المغطاة سطوحه بالأخصاص والقش، في شكل هرمي لا أضلاع له، وربما يعود ابتداع ذلك الى عامل التكيف مع المناخ...، وهي نفس الطريقة الموجودة لدى سكان البوادي والواحات، في بلدان المغرب العربي)[17].

ومع كل هذا تبقى القصور والقصبات في منطقة القورارة، شاهدة على إنسان استطاع أن يفقه واقعه فعمر وفقه.

ملحق الصور:

(بناء الصور انظلاقا من الهضبة (القورارة

قصبة بني مهلال

المزاغل في القصبات

الجسر الرابط بين القصبة والقصر

البئر في وسط القصبة

إحدى الابراج

هوامش البحث:

1 . ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين)، لسان العرب، دار الحديث القاهرة، 2003، ص:376.

2 . Montagne R, Les Berbères et Le Makhzen dans le sud marocain, Paris 1930, p.347.

3 . HENRI.T, Kasbah Bérbér de L'atlas et Oasis, ed des horizon, paris, sd, p.25.

4 . Meuniee. Dj ; Architecture et habitat de Dadis Maroc présaharienne, Libraire cklinkseik, Paris, sd, p.35

5 . Pietro-Laureaux, Les Ksours du Sahar Algerien, un exemple d'architecture globale ,sd p.02

6 . R. Capot-Rey, Grenniers Domestiques et Grenniers Fortifies au Sahara, Le Cas du Gourara,I.R.S,XIV,1956, p.139.

7 . Ibid, p.142

8 . Echallier, Op. Cit, P.20

9 . A.G.P-Martain, Les Oasis sahariennes ,Paris, challamel, 1908 p.35

10 . R-Capot-Rey, Op. Cit p.149

11 . Ibid, p.150

12 . بن عميرة (محمد)، دور زناته في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، م.و.للكتاب، الجزائر، 1984، ص:20

13 نفسه، ص:185.

14 ابن خلدون (عبد الرحمان)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة مصححة ومنقحة، للأبي صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، (ب-ت)، ص: 1582.

15 البكراوي (محمد بن عبد الكريم التمنطيطي)، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة أبناء عبد الكريم المطارفة ادرار، ب-ت)، ص:04.

16. Mameri (m) et Augier (p); Le Gourara, élément d'étude anthropologique, IRS, T.14, 1956, p.255.

17 زبادية (عبد القادر)، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، دراسات ونصوص، مؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989، ص:52

نماذج من العمارة الدينية في منطقة وادي ريغ

التيجاني العمودي (جامعة الجزائر2)

Abstract:

Religious architecture of the highlights of the Arts of Islamic civilization, are those which have had the bulk in the proliferation and evolution, until it became the dominant feature in the Islamic urbanization ,over the historical development in different regions of India in the east to the Atlantic Ocean to the west, and thus represents a significant personal Muslim civilization.

The first types of Islamic architecture is the mosque, which is the first interest of Muslims, was first built by peace be upon him when he moved to Medina Quba mosque and after the Prophet mosque , which Muslims have built quickly and easily, Scientifics and consultants beneficed from the abundant artistic interest in the various stages of the Islamic state, east and west. So was this important religious establishment centers of the city are distributed around the houses and markets and Koranic schools and other facilities that characterize the city of islamical Umran. Building schools and then come after the mosque because the mosque in its origins is a place of worship and also to study and learn.

مقدمة:

إنّ الصحراء بوجه عام ومنطقة وادي ريغ بوجه خاص تفتقر إلى دراسات أثرية وتاريخية مفصلة تميط اللثام عن الوجـــه الحضاري والعمراني، حيث يذكـــر ليون الإفريقي، خلال الرحلة التي قادته إلى المنطقة أنها كانت عامرة بالصناع والنبلاء، ذات علاقة تجارية بالشرق الجزائري[1]، كما كانت منطقة عبور القوافل المتوجهة نحو السودان وأفريقيا. وتكتسي أهمية الإقليم التجارية الأهمية البالغة لتمركزه في محور طريقين تجاريين هاميـــــن وهما:

طريق غرب- شرق وطريق شمال جنوب. يربط الطريق الأول تافيلالت المغربية بغدامس

الليبية ومنها نحو السودان، والمشرق العربي، أما الثاني يربط شمال الجزائر وموانئها بالصحراء الكبرى والسودان الغربي[2].

1. الموقع الفلكي والجغرافي:

الموقع الفلــكي: تقع بين خطي 32 ′، °04 شرقا و32 ′، °43 شمالا.

الموقع الجغرافي: تقع منطقة وادي ريغ في الجنوب الشرقي من القطر، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى وادي ريغ، ويؤكد ذلك ابن خلدون في قوله : ((...وكثر في قصورها العمران من ريغة وبهم تعرف لهذا العهد ...))[3].

يبدأ هذا الوادي من جنوب عاصمة المنطقة على بعد 30 كلم جنوبا، من نقطة التقاء وادي اغرغـار ووادي مية، عند المنطقة المسماة الدلتا السفلية[4] ليواصل سيره نحو الشرق ويصب في شـــط ملغيغ جنوب أم الطيور، ويذكر ابن خلدون مسار الوادي في قوله :((...فاختطوا قرى كثيرة في غدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق...))[5].

المنــاخ: يسود منطقة وادي ريغ وهـو كباقي مناخ مناطق الصحراء الجزائرية، مناخ صحراوي قاري يتميز بحرارته الشديدة في فصل الصيف وكثرة سطوع الشمس، بينما يكون شديد البرودة في فصل الشتاء، ويصاحب هذه الحرارة هبوب الرياح الموسمية خصوصا الشمالية الشرقيـة. درجات الحرارة تصل فيها إلى مستويات قياسية فيصل معدل الحرارة إلى °45 شهري جويلية وأوت، وشتاءا، فيصل معدل البرودة إلى أدناه حيث يصل معدل البرودة إلى °9 شهري ديسمبر وجانفي. في باقي الفصلين تتميز باعتدال نسبي في درجات الحرارة يصل متوسطها بين 25 ° و°35.

2. التكوين الجيولوجي:

كان لعاملي المياه والرياح دورا أساسيا في تكوين المظاهر الجيولوجية الكبرى وفي تكوين الأشكال المختلفة للسطح. وقد استمرت ظواهر التغيير والتعرية تحت تأثير المناخ الرطب الذي ساد المنطقة في حقبة الزمن الجيولوجي الرابع ليتحول المناخ تدريجيا إلى الجفاف، وفي هذه الفترة بالذات حدثت الحركات التكتونية الكبرى[6]. وإذا لاحظنا التقسيم الستراتيغرافي نجد أن هذه الناحية مرت بمراحل الأزمنة الجيولوجية المعروفة، وتظهر على نحو متدرج من الأقدم إلى الأحدث، الصخور القديمة للزمن الجيولوجي الأول ومن ثم الزمن الجيولوجي الثاني[7].

3. مدخل تاريخي:

السؤال الذي يطرح نفسه في بداية هذا المدخل التاريخي، هل شهدت المنطقة تواجد إنسان ما قبل التاريخ؟ لم تشر الدراسات لا القديمة منها ولا الحديثة إلى ذلك، لكنه في السنة الماضية تم العثور على بقايا عظام حيوان على عمق 25 مترا تقريبا في إحدى مناجم الطين المستخدم في مصانع الآجر بالمنطقة لم تتح لي فرصة التأكد من ماهية هذه اللقى.

فيما يتعلق بالفترة القديمة تذكر العديد من الدراسات بأنّ منشآت عديدة حول المدينة من الجهة الشرقية تعود إلى الفترة الرومانية[8]. المنطقة من ناحية المدى الجغرافي تعد في ضمن تجاويف الأطلس الصحراوي، وحواف الصحـراء محاذاة الوديان، والتي كانت مطمع الاحتلال الروماني, ألم تتعرض المنطقة على غرار منطقة الزاب المجاورة لها، وقد ثبت تاريخيا أنّها نقطة تجـــارية هامة تربط أقصى الجنوب وبلاد السودان بالشرق الجزائري[9] الحركة الفعلية لتعمير الإقليم بدأت مع قدوم بني ريغة اعتمادا على المؤرخ ابن خلدون وذكر بهذا الخصوص: ((...كثر في قصـــورها العمران من ريغة هؤلاء، وإليهم تعرف بهذا العهد...))[10]. الرواغة كما يسمون من القبائل التي تفرعت عن قبيلة زناته الوافدة على المنطقة، استقروا بمحاذاة وادي ريغ كما سبق الإشارة إلى ذلك. اعتمد بنو ريغة في الحكم والنظام السياسي على السلطة المحلية، مع ازدياد الأهمية الإستراتيجية للمنطقة، الشيء الذي فتح شهية الدول المركزية للسيطرة على الإقليم، وتم السيطرة علية تداولا بين العواصم المركزية للإمارات والدول التي حكمت خلال وبعد القرن العاشر[11].

بعد السيطرة الرستمية، تداول حكمها العديد من الدول والإمارات ويذكر الرحالة حسن الوزان في هذا الشأن قوله:)) ...تقـــرت تبعت نفوذ سلاطين مراكش، ثم خضعت لملوك تلمسان، وبعدها أصبحت تحت نفوذ حاكم تونس وتؤدي له غرامة مالية...))[12].

لم يدم هذا الوضع السياسي طويلا، وفي ضل فترات الاضطراب التي شهدتها الدولة الحفصية كما سبق الإشارة إليه، فسح المجال للإمارات وخاصة تلك التي بسطت نفوذها على منطقة الزاب تحديدا خلال القرن الرابع عشر وما قبله ويقول ابن خلدون:))...وكل وادي ريغ من عمل الزاب وفي إقطاع الدواودة، فكثيرا ما يعسكر عليهم بنو مزني أو الدواودة لاقتضاء الجباية, أكبر تلك الأمصار تقرت...))[13]. فحكم الإقليم بنو رومان، ثم بنو مزني ثم إمارة الدواودة ابتداءا من سنة 1381م[14].

الحاج سليمان الجلابي أول سلاطين هذه الإمارة كان ذلك سنة 1414م، وانتهجت في نظامـها السياسي ولاية العهد. يبين هذا الوضع السياسي مقتطف من وصف الرحالة العياشي في رحلته التي زار فيها المنطقة في جانفي 1663م قائلا : ((...وأمراء هذه البلدة أولاد الشيخ أحمد بن جلاب وأسلافهم من بني مرين...)) [15].

في سنة 1830 تقلد الشيخ إبراهيم بن جلاب مقاليد حكم الإمارة، وأناب أخوه علي في الفترة التي توجه فيها إلى البقاع المقدسة. في ظل حكم هذا الأخير شهدت المنطقة أحداثا داخلية عديدة بإيعاز غير مباشر من قبل السلطة الفرنسية، والتي لم يكن لها تواجد عسكري بالمنطقة و، اكتفت في هذه المرحلة بإيفاد بعثات استكشافية للتعرف عن قرب على طبيعة المنطقة تمهيدا لاحتلالها عسكريا، وأهمها تلك التي قادهـا كل من DE CHEVARRIER و MARIOS GAREIN سنة 1847م وفي نهاية نفس السنة أوفدت بعثة ذات طابع عسكري بتكليف من وزارة الحربية، قادها PRAX أحيطت بالسرية التامة[16] في مارس 1852 تقلد الشيخ سليمان بن علي الكبير مقاليد حكم الإمارة، وكان هذا الأخير آخر أمراء إمارة بني جلاب. في يوم 29 نوفمبر 1854م بادر الشيخ سليمان برفقة الثائر الشريف محمد بن عبد الله، بالهجوم على القوات المعسكرة في منطقة لمقارين، في البداية كانت لصالح أهالي المنطقة، ولكن سرعان ما رجحت الكفة للقوات المعادية باعتبارها أكثر عدة وعتادا وتنظيما، ولم يبق أمام الشيخ سلمان الجلابي إلا الخروج من المدينة لتجنيب محاصرتها. في يوم 5 ديسمبر1854م دخل العقيد DESVAUT المدينة لتسقط عاصمة إقليم وادي ريغ في يد الاحتلال الفرنسي.[17]

4. الحركة العلمية والدينية في إقليم وادي ريغ:

عرفت الحركة العلمية ازدهارا في مختلف العلوم الأدبية واللغويـة والعـلوم المختلفة الأخرى. وتواصلت مما يدل على ذلك أن منطقة وادي ريغ، تضم عددا كبيرا من خزائن المخطوطات التي مازال عدد كبير منها غير مجرود. فقد تحدثت بعض المصادر والمراجع الإباضية عن بعض القصور في المنطقة ومنهم ما أورده أبو اليقظان واصفا قصر تقديدين (تجديت سابقا): ((... تجديت كانت مدينة قرب جامعة، كان لها شهرة واسعة في العلم والعمران...)) وذكر الرحالة العربي العياشي في وصفه لمدينة تقرت عاصمة إقليم وادي ريغ، يتحدث عن فقهائها ومكتبة الإمام بالمسجد الكبير، العامرة بأنفس الكتب وأثمنها وأندرها[18]. ويضيف الشيخ إبراهيم العوامر أن علماء وادي سوف ونفطه وتوزر[19]. تأثرت العمارة الدينية في الجنوب بعوامل مختلفة، منها

العوامل الجغرافية تتعلق بطبيعة وتضاريس الأرض والمناخ والمواد الخام المتوفرة في المنطقة التي تشيد فيها الأبنية.هذه العوامل لها تأثيرها على التخطيط العمراني وعلى أشكال المباني وعلى العناصر المعمارية.

5. نماذج من العمارة الدينية بمنطقة وادي ريغ:

أولا: مساجد وادي ريغ:

أ. المسجد الجامع الكبير بتقرت:

يتوسط الجامع الكبير بتقرت القصر مقابلا للساحة العامة.

ونقرأ في اللوحة الرخامية الموجودة بأعلى المدخل ما يلي:

بسم الله الرحمان الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد
كمل بناء هذا المسجد وعظم بحول الله وحسن عونه
على يد من أسس بناءه بتقوى الله ورضوانه الأمير الأسعد والأمين الأرشد
قاصدا به وجه الله الأكرم الشيخ إبراهيم بن محمد بن جلاب سنة 1220 هـ عشرين ومائتين وبالله التوفيق

ليرمم فيما بعد على يد إبراهيم الثاني ابن جلاب سنة 1250ه/1834م[20] بحيث جلب له البناءون والصناع من مختلف المناطق المجاورة خاصة الصناع التونسيون[21]. يمتاز بشكله الهندسي العام غير المنتظم، وعدم استقامة أضلاعه. المدخل الرئيسي في جدار القبلة لبيت الصلاة يؤدي مباشرة إلى الرواق المطل على الصحن، ومدخلين ثانويين إحداهما بالجدار الغربي يفتح على سقيفة تؤدي إلى الجزء المخصص لصلاة النساء ومنه إلى الشارع، ومدخل ثاني بالجدار الجنوبي كان يؤدي إلى الزقاق.

بيت الصلاة ذو شكل مستطيل عرضه أكبر من عمقه، يقوم على دعامات تأخذ شكل + متساوية رباعية الأضلاع ترفع أقواسا نصف دائرية الشكل تشكل البلاطات العمودية على جدار القبلة والأساكيب الموازية له، يبلغ عدد بلاطاتها 08، أما الأساكيب يبلغ عددها 08. تربط بينها قطع خشبية وترفع سقفا بأقبية متقاطعة. يتوسط جدار القبلة محراب الجامع ذو تجويف نصف دائري يعلوه عقد متجاوز يكتنفه عمودان رخاميان اسطوانيان. واجهة جدار القبلة تزينها بلاطات خزفية ذات لون أزرق سماوي يعلو المحراب القبة المركزية تقوم على أربع حنايا

ركنية ـ يحتوي بيت الصلاة، على منبر خشبي مزدان بزخارف متنوعة.

ويحمل المنبر تاريخ تحديده وهو نفس تاريخ ترميم المسجد من خلال الكتابة الموجودة بإحدى عريضته وهي كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلي الله على سيدنا محمد
حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير
نصر من الله وفتح قريب
وبشر المؤمنين
لا إله إلا الله محمد رسول الله
جدد هذا المنبر الشيخ الذي اسمه إبراهيم بالجود أثنا عليه كثير الناس في كل موطن وهو ابن جلاب فبالفضل اجلبنا وجاء رضي عن طيبة النفس مخلصا قد اختار ما يبق على دنيا تفنا

الصحن عنصر مهم في هذه المنشآت مما يوفره من إنارة وتهوية لبيت الصلاة هو ذو شكل مستطيل وهو يؤدي إلى رواق من ستة عقود متجاوزة ترتكز على سبعة دعامات مربعة بفتح بالركن الجنوبي الغربي للصحن مدخل المئذنة .

تأخذ مئذنة الجامع العتيق بقصبة تقرت شكلا مربعا يعلوها جوسق مربع الشكل أيضا ،ينتهي بقبيبة مخروطية تشغل هذه المئذنة الركن الجنوبي الغربي للصحن يفتح مدخلها مباشرة على الرواق وهي ذات ارتفاع متوسط قاعدتها مربعة، وتتكون المئذنة من بدن وجوسق، يزخرف أعلى المئذنة من جهاتها الأربعة عمودين يعلوهما ثلاثة عقود متجاوزة منكسرة، ويتوسط الشرفة جوسق تعلوه قبة محمولة على أربعة عقود نصف دائرية محمولة بدورها على دعامات مربعة.

ب. مسجد سيدي عبد الله المغراوي قصبة تماسين:

يقع مسجد عبد الله المغراوي في الجهة الغربية للقصر ليشغل بذلك أعلى موقع بالربوة يفتح على الشارع المحوري المؤدي إلى باب (خوخة)، قام ببنائه الحاج عبد الله المغراوي، ويذكر العياشي في هذا الصدد :"وفي مسجدهم مئذنة وثيقة البناء طويلة جدا فيها نحو مائة درجة ،على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي، وتاريخ بنائها سنة سبع عشر وثمانمائة" وما تجدر الإشارة إليه أن استعمال الآجر ظاهرة معمارية فريدة في العمارة الدينية

للمنطقة. يمتاز بشكله الهندسي العام القريب من المربع. يتكون من بيت للصلاة وصحن وسقيفة وغرفة للإمام، وغرفة جنائزية (مقام) ومخزن، وسباط. المدخل الرئيسي يتوسط الجدار الشمالي يؤدي إلى سقيفة مربعة، قسمت بشكل تناظري بواسطة دعامتين بارزتين تحملان قوسا نصف دائري لتفتح على الصحن. بيت الصلاة قريب لشكل المربع بشكل عام. يقوم السقف على دعامات تأخذ شكل + متساوية رباعية الأضلاع ، ترفع أقواسا متجاوزة تشكل البلاطات العمودية على جدار القبلة والأساكيب الموازية، وترفع سقفا بأقبية متقاطعة. يحتوي المسجد على محرابين محراب قديم بالجدار الجنوبي ذو تجويف نصف دائري يقوم على عمودين من المرمر ينتهيان بتاج يعلوهما عقد متجاوز، وهو خال من أي زخرفة، تعلوه قبيبة صغيرة. الصحن ذو شكل مستطيل .يفتح الجدار الشمالي من الصحن على مدخل يؤدي إلى المئذنة وقد الحق الصحن من الجهة الشرقية بميضأة، والجهة الغربية قاعة لتعليم الصبية وهي ذات شكل مستطيل. يحتوي على رواقين مسقوفين، الأول يطل مباشرة عليه من خلال ثلاثة أقواس نصف دائرية، قوسين كبيرين والثالث صغير. الرواق الثاني يحاذي بيت الصلاة من الجهة الغربية من خلال قوسين نصف دائريين تحملهـــما 4 دعامات بارزة، يتوسط جداره الشرقي كغيره من مساجد الجنوب بشكل عام، محراب مسطح خال من الزخارف لأداء صلاتي المغرب والعشاء صيفا نظرا لحرارة الجو. حظيت المئذنة بأكثر التشكيلات الزخرفية لتنتهي بشرفات مسننة غاية في الإتقان، كما زود البدن بأربع فتحات في كل جهة زيادة في التهوية والإنارة للسلم كما أنها تساعد في توزيع الثقل لتنتهي المئذنة جوسق مربع مشبع بنوافذ معقودة بعقود حدوية.

ثانيا: أضرحة وادي ريغ

انتشرت أضرحة وادي ريغ في أماكن مختلفة حول وداخل النسيج العمراني للقصر فتواجدت في المقابر القديمة وملحقة بالمساجد وبين بساتين النخيل، وقد شيدت هذه الأضرحة قريبة من القصبات أو على حدود أسوارها، لقد اهتم السكان بمكان هذه المقابر فحظيت بكل العناية والتبجيل والاحترام، لأن السكان يعتبرون تلك الأماكن معالم روحية. وقد بني في الإقليم عدد كبير من الأضرحة مختلفة الأشكال المعمارية.

أ. أضرحة سلاطين بني جلاب:

أضرحة سلاطين بني جلاب مشايخ إقليم وادي اتسمت بطابع البساطة، وعدم التكلف والتفاخر في الإنجاز. تقع الأضرحة في مقبرة قصبة تقرت (مستاوة)، في الجهة الشمالية الشرقية

من المقبرة في شكل مجموعة تضم غرفة جنائزية كبيرة، وثلاثة أضرحـــة متجاورة. غرفة جنائزية، ذات شكل مستطيل، تعلوها قبة ذات شكل نصف كروي، وثلاثة أضرحة تقع في الجهة الجنوبية منها يعلو كل ضريح قبة. تظم الغرفة الجنائزية للأضرحة، عددا كبيرا من القبور تخص عائلة بني جلاب، يتم الدخول إليها، عبر مدخلين الأول رئيسي يتوسط الجدار الشرقـــي عبارة عن باب خشبي ذو مصرع واحد تزينه زخارف محدودة مشكلة برؤوس المسامير، أما المدخل الثاني يفتح على الجدار الجنوبي، هذا الأخير يؤدي مباشرة إلى الأضرحة الثلاثة المشكلة لمجموعة أضرحة سلاطين بني جلاب.

من خلال الشواهد يتبين أنه يدفن فيه النساء أو الأطفال، في حين قبور الرجال تتوزع على الأروقة، تخلو الغرفة من أية زخارف، وتأخذ شواهد القبور الموجودة شكل شواهد القبور في الأضرحة العثمانية. ويمكن أن نعتبر ذلك تأثيرا عثمانيا بحتا، لأن هذا النوع من الشواهد غيـــر معروف ومستعمل في الجنوب يشكل عام، وفي منطقة وادي ريغ بشكل خاص في الجهة الجنوبية من الغرفة الجنائزية تقع 03 غرف مربعة الشكل تضم كل منها قبرا يرجح أنها لمتوفين من سلاطين الإقليم في أواخر فترة الحكم الجلابي، قبور الأضرحة لا تحمل تسمية المتوفى، ويمكن معرفته جنسه من خلال الشواهد الموضوعة فوق القبور.

ثالثا: الزوايا في إقليم وادي ريغ

الحركة العلمية المتواصلة رسخت في أذهان السكان العناية الكبيرة بتدريس أبنائهم أصول الدين الإسلامي وآداب اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم. فكانت حلقات التعليم تتم داخل المدارس القرآنية والمساجد والزوايا التي تتواجد داخل القصور. وكان لهذه الزوايا في المنطقة دور كبير في توفير المأوى والمطعم وكل ما يحتاجه الزوار إلى هذه الديار،وبينت العديد من المراجع دور الزوايا الاجتماعي والتربوي في المنطقة

ويذكر التجاني في رحلته: ((ومن عادتهم إكرام الضيف ، والمسافر لا يحتاج إلى حمل الزاد معه ، لأن في كل قصر من قصورها زوايا .. فإن المسافر يقصد دار الزاوية فيجد فيها كل ما يحتاج إليه هو ومن معه، فيجد حتى علف الدواب ..))[22].

أ. التجانية (تماسين) نموذجا

تقع الزاوية التجانية في الجهة الجنوبية الغربية خارج سور قصبة تماسين، ولأن سكان

المنطقة بشكل خاص والجنوب الجزائري بشكل عام يولون رعاية خاصة للزوايا ومؤسسات التعليم ما تزال سائدة إلى وقتنا الحاضر، وقد سبق الإشارة إلى الاهتمام المتزايد في إقليم وادي ريغ برجال الدين والعلم ويحضون بمكانة اجتماعية خاصة.

يعود تاريخ تأسيس الزاوية إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي سنة 1217هـ/1803م على يد الحاج علي التماسيني[23]. بنيت الزاوية في شكل مجمع ديني يتشكل من دار اقامة ومسجد وضريح ومدرسة قرآنية نقع دار الإقامة في الجهة الشمالية الشرقية من مجمع الزاوية التجانية تفتح عليها الشارع المحوري مجاورة لواحات النخيل من الجهة الشرقية، يحدها المسجد من الجهة الجنوبية والضريح من الجهة الجنوبية الغربية ووحدات سكنات من الجهة الشمالية ذات شكل مستطيل تطل على واحات النخيل المحاذية لمجمع الزاوية التجانية. مدخلها الرئيسي يفتح على الشارع المحوري المؤدي إلى مجمع الزاوية تزينه زخارف جصية بحفر غائر مشكلة أشكال هندسية ونباتية دفتي باب المدخل من الخشب المرصع بزخارف مشكلة برؤوس المسامير ذات أشكال هندسية ومدخل آخر يفتح على واحات النخيل عبر الصحن الخلفي بفعل تهدم الجدار الخارجي للصحن يؤدي المدخل الرئيسي إلى فضاء مغلق تعلوه قبة ومنه إلى سقيفة في شكل رواق تؤدي إلى صحن بوسط الدار مستطيل الشكل تفتح عليه الوحدات المعمارية للطابق الأرضي وبه السلم الذي يؤدي إلى الطابق الأول. ألحق بطابقي دار الإقامة جمله من الوحدات المعمارية تتكون من مطبخ ودورات ميــاه وغرف للإقامة. الغرف متنوعة الأشكال من حيث مساحاتها إلا أنها في عينات منها تفتح على بعضها البعض غير مداخل دون أبواب تحتوي على نوافذ صماء فردية. يحتوي الطابق العلوي على غرف زخرف بعضها بزخارف جصية، هندسية شكلت بطريقة الحفر الغائر.

المعلم الأساسي الثاني المشكل لمرافق الزاوية التجانية بتماسين هو المسجد فإنه هدم عن آخره ولم يتق له أثر وقد تم تحديده بالكامل.

الزاوية التجانية المعلم الثالث وكغيرها من الزوايا في عموم الوطن منذ تأسيسها تقوم بواجب يحفظ كتاب الله ونشر الوعي وزاد دورها في فترة الإستدمار الفرنسي بعد دخوله المنطقة في سنة 1854م المعلم الأخير للمجمع ضريح الحاج علي التماسيني في الجهة الغربية الجنوبية من قصبة تماسين بجوار واحات النخيل المحيطة بالقصبة في شكل مجمع، بني حسب اللوحة التأسيسية سنة 1868م من طرف نجله الشيخ محمد العيد. يتشكل الضريح من

وحدتين معماريتين القاعة التي تظم ضريحه، ومصلى، الضريح ذو شكل مربع يعلو الضريح قبة مركزية، قطرها حوالي 5م تقوم على قاعدة مضلعة.

رابعا: مواد البناء

اختار البناء الصحراوي مواد تتلاءم وطبيعة المنطقة وأهمها:

1. الطين: من المواد الأكثر وفرة في البيئة الصحراوية، فهي سهلة الاستعمال ولذلك أتجه البناءون إلى استخدامها بشكل أساسي لما أثبتته هذه المادة من دوام ومقاومة للعوامل الطبيعية منذ مئات السنين. إن تحضير عجينة الطين تتم بمزج المادة الخام التي تستخرج من أماكن معينة بالماء ويضاف إليها القليل من الرمل وفي بعض الأحيان يضاف التبن لزيادة تماسكها، وتكتمل العملية بعد تركه يجف تحت أشعة الشمس فيتحول ليتلاءم ولون البناء الصحراوي الفاتح .

2. الجبس: يعد المادة الأساسية الثانية بعد الطوب في البناء، تتم طريقة إعداده في أفران بالقرب من مقالع الحجارة، يستخدم في أماكن متعددة في التلبيس والتبليط والبناء. فيما يتعلق بإعداد هذه المادة فيقوم العامل باقتلاع الحجارة بواسطة أدوات حديدية متنوعة الاستعمال بحسب الحاجة، في شكل كتل حجرية كبيرة، بعدها يتم تفتيتها إلى قطع صغيرة الأحجام، توضع في فوهة الفرن المخصص لعملية الحرق كي تكتسب خاصيتها الكيمائية المعدة للبناء.

3. الحجـار: استعملت هذه المادة في انجاز الأساسات والجدران والسقوف في المنشآت الدينية والمدنية، وإذا ما عرفنا أن هذه المادة غير متوفرة بشكل كبير في محيط الإقليم، فان السكان حرصوا على استخدامها عند الضرورة لتقوية المباني، لما تضيفه من خاصية الصلابة، رغم صعوبة نحتها واستعمالها بالشكل الذي يريده البناءون، ولذلك وضعت على شكلها الخام.

4. الملـاط: من المواد التي تستعمل في كسوة الجدران الداخلية والخارجية وفي أماكن أخرى كتلبيس الأسطح من تسرب المـاء. ويتكون الملاط من خليط من الطين التي تترك داخل الماء لمدة طويلة تتجاوز الأسبوع حتى تصبح سائلا لزجا ثم يضـاف إليه الرمل. وبعد ذلك يستعمل الملاط في تلبيس جدران الطوب وفي آخر مرحلة تملس بواسطة اليـد، وفي بعض الأحيان توضع عليه زخارف بالأصابع عبارة عن خطوط أو أشكال هندسية .

5. الجـص: إن التسمية التي تطلق على الجص هي الجير، وهو يستعمل في عملية تبييض الأضرحة أو يخلط بالرمل ليوضع كطبقة عازلة فوق الأسطح. والجير كمادة أولية هو خام من

كبريتات الكالسيوم المهدرنة، وأما الجص العادي الذي يستعمل في الطلاء فهو نوع غير نقي يحرق إلى درجة حرارة معينة ثم تطلى به الجدران الخارجية للمباني.

6. الخشب: ويوفره في الصحراء شجر النخيل من المواد الأكثر استخداما في انجاز الأبنية في القصر، فكل مكونات النخلة تقريبا تستخدم في التسقيف وصناعة الأبواب، وجميع متطلبات الحياة الصحراوية بشكل عام .

أ. جذع النخلة: الجـذع أو ساق النخلة، له شكل أسطواني ينحصر شكله تدريجيا من الأسفل إلى الأعلى. الجذع مغطى بقواعد الجريد القديم مما يجعله خشنا، ولكن عندما تصبح النخلة قديمـة وكبيرة السن تذبل تلك القواعـد ويصبح الجدع أملـس.

ب. الجريــد: تتكـون جريدة النخلة من العصي والسعفة، فيتم نـزع السعف من «الجريـدة» عندما تكون لينة وخضراء، لتستخلص العصي التي تستخدم في أغراض مختلفة وذلك لأنها سهلة التشكيـل وفي عمل الأقواس.

ت. الكرناف: تمثـل «الكرنافة» الجزء الأسفل من الجريـدة الذي يبقى ملتصقا بالجذع بعد أن تقطع الجريدة، يتم نزعها من الجـذع وتوضع لتجفف فترة من الزمن، ثم تستعمل للتسقيف بحيث توضع فوق الخشبـة على الجهة المسطحة وهي بذلك تغلـق الفراغات بين الأخشاب.

ث. الليــف: هو عبارة عن شبكة من الألياف تغطي الجزء العلوي من جذع النخلة، وهو يستعمل كذلك في غلق المساحات الصغيرة والفراغات التي يتركها الكرناف، ويقوم البناءون بتبليله قبل نشره على الكرناف، ولذلك يعتبر استخدام هذا العنصر في السقف ضروري لغلق كل المساحات والثغرات الصغيرة قبـل وضع الطين.

خامسا: تقنيـــات البناء

1. تقنية وضع الأساسـات: وضع الأسس هي أول الأعمال التي يبدأ بها البناء، فهذه الأساسات تبني بواسطة قطع متفاوتة من الحجارة أو الكتل الصلصالية، التي توضع في صفوف متوازية في وسط حفر ذات عمق محـدد، فأول خطوة يقوم بهـا البناء هي حفر حفـرة عميقة، وغالبـا ما يكون من الحجارة الصلبة، وبعد ذلك يتم رفع الجدار مباشرة على تلك الأرضية الصلبة. وكان

الهدف من كل ذلك هو وضع أسس الجدران للحصـول على قاعدة متينة للبناء.

2. تقنية بناء الجـدران: تتم طريقـة بنــاء الجدران بوضع قطع الطـوب او الحجارة ، ويتراوح سمك الجدران الداخلية مـا بين0.3م إلى0.5م، وفي العموم أن هذه الجدران هي عبارة عن بناء طيني أو جبسي مكون من لبنات الطوب التي توضع بشكل يسمح لها بالتمـاسك فيما بينها، وكان عامل البناء يبدأ بتشييد الجدران الخارجية ثم ينتقل بعد ذلك إلى الجدران الداخليـة.

3. تقنية بناء السـلالم: السلم من العناصر المعمارية الهامة في تكوين المباني الدينية، وتأتي هذه الأهمية انطلاقا من دور عملية التواصل بين الطابق الأرضي والسطح، فيقبل المصلون على استعمال السلم للوصول إلى السطح لتأدية الصلاة في فصل الصيف. في المساجد أو المصليات التي تفتقد إلى الصحن وتتمثل طريقة بناء السلالم فهي تقوم على استعمال جذوع النخيل، بحيث توضع ثلاثة أخشاب بشكل مـائل حيث يستند طرفها العلوي على الجدار، أما الطرف الثاني فيرتكز على الأرضية، وتوضع عليها طبقة من الحجارة المسطحة ثم تغطى بطبقة من الطين وأخيرا تبنى عليها درجات السلم تدريجيا إلى غايـة السطـح.

4. تقنية بناء العقود: يقوم الأسلوب المتبع في إنشاء العقود أولا ببناء عمودين من الطين الملبس بالجبس لزيادة التماسك ويتم بنـاء العقد بواسطة عصي الجريد الخضراء التي تقوس ويشد طرفها بالجدار والطرف الآخر بالدعامة أو العمود، ثم يبنى فوقها قوس بالطوب ويملس بالملاط عادة ما يكون من الجبس، وبعد أن يجف ينزع القوس لنحصل على العقـد. إن الأسلوب المعروف في إنشاء العقود في عمائر المغرب الإسلامي، استعمل أيضا في إنشاء العقـود في عمارة منطقة وادي ريغ. وإن إحدى أهم الأساليب التي وصفها جورج مارسي، تتمثل بأن يبدأ البناء أولا بوضع قطعة خشبية على منشأ العقد الحدوي، على أن تكون في النقطة الأكثر اتساعا في العقد، ثم توضع فوقها قطع من الآجر ثم فوقها لوحة خشبية ثانية وهكذا صعودا إلى غاية نهاية العقد، وفي الأخير تسوى دائرة العقد جيدا بالمــلاط وعندما يجف العقد تنزع الأخشـــاب.

5. تقنية التسقيف: تأخذ السقوف عناية كبيرة اعتبارا لدورها في العمارة بوجه عام المتمثل في الوقاية من مختلف العوامل الطبيعية في مختلف فصول السنة. وهي نوعين:

أ. الأسقف المسطحة: إن الحوامل التي تشد السقف تتمثل في جذوع النخيل، فيجب أن لا تتعدى المسافة بين جذع وآخر الحد الأقصى 2.5م. وتتكون الأسقف عموما من جذع النخلة والكرناف والجريد والطين، وقد يضاف إليها في بعض الأحيان الجير في حالة ما إذا كان السطح معدا للاستعمال، في حالة وجود طابق علوي.

ب. الأسقف المقببة: يقتصر استعمال جذوع النخيل في هذا النوع من التسقيف، كتدعيم داخل الجدران أما السقف المقبب، يشيد باستخدام الحجارة المسامية والغرض من ذلك لأنها خفيفة الوزن، ويستخدم الجبس كملاط تماسك بين الحجارة وفي عملية التلبيس إذ لا يمكن في هذه التقنية استخدام مادة الطين.

6. تقنية التقبيب: يتم بناء القبة انطلاقا من القاعدة المربعة أو المضلعة بالاعتماد على تقنية الحنايا الركنية التي تقوم عليها القبة، بعد تحديد نقطة مركزية تتجه نحوها الجدران الأربعة ، فتأخذ جدران القبة انحناء تدريجيا كلما ارتفع البناء إلى غاية الالتقاء في مركز القبة وهو أعلى نقطة فيـها. ويغلب على العمارة الدينية في إقليم وادي ريغ استخدام القباب نصف الدائرية.

7. تقنية بناء الأعمدة: تختلف أنواع الأعمدة في مختلف العمائر الدينية بإقليم وادي ريغ، فنجد الأعمدة المربعة، المتصالبة والمستطيلة، وقد أشرت إلى أنواعها في التطرق لوصف مختلف أنواع العمائر المدروسة، وقد استخدمت الحجارة التي يستخدم البناء الطين في تماسكها، ثم يقوم بتلبيسها بمادة الجبس.

8. تثبيت الأبواب: اهتم مشيدوا العمائر الدينية في إقليم وادي ريغ في كثير منها بالأبواب، وقد سبق الإشارة إلى أنه في كثير من الأحيان كانت تجلب من مناطق عديدة بحكم التواصل التجاري الذي كان سائدا في المنطقة. فكانت الأبواب تزخرف بمختلف العناصر الزخرفية، وخاصة الزخرفة برؤوس المسامير.

سادسا: العنـــاصر الزخرفية

أجاد فنانو الإقليم كما أجاد بناؤه بعد كل ما سبق وصفه من عمائر وخاصة الدينية منها في إقليم وادي ريغ، فتعددت العناصر بتعدد المواد وتعدد الجانب الزخرفي، ونلخصها فيما يأتي:

1. العناصر الهندسية: هي التي يمكن تكوينها من العلاقات الخطية، والأشكال الدائرية والمربعة والمستطيلة، والمعينة وغيرها فاستعمال الإنسان للعناصر الهندسية وقد اهتم الفنان المسلم بهذه الأشكال بحكم الضوابط الدينية التي قيدته، لأنه مطالب بالابتعاد عن المحاكاة والمضاهاة. وقد تمثلت العناصر الهندسية في العمارة الدينية بالإقليم في الأشكال المعهودة، ومنها:

- المربع: هو من بين الأشكال الهندسية التي اتخذها المزخرف كأطر للزخارف الرئيسية سواء كانت هندسية أو نباتية خاصة الأزهار، ويظهر هذا العنصر بشكل واضح في زخرفة قبة المسجد الجامع بتقرت، والتي يحيط بها شريط من المربعات المتقاطعة فيما بينها كأساس لتكوين ما يعرف بالأطباق النجمية.

- المستطيل: وجد المستطيل في معظم المواضيع الزخرفية ، ويحتوي بداخله على عناصر هندسية على شكل خطوط متقاطعة أو متوازية وعناصر نباتية عبارة عن أزهار مفصصة زخرفت بها قبة محراب الجامع العتيق بتقرت والعقود المحيطة بها.

- المعين: فاستعملت المعينات بكثرة على مختلف أحجامها سواء على الجص بقبة محراب الجامع العتيق بتقرت أو بالألوان المائية طليقة أو مرتبطة مع بعضها البعض على شكل شريط أو بالأجر في زخرفة مئذنة مسجد عبد الله المغراوي تماسين،وقبة جامع تقرت شريط من المعينات المتراصة تتناوب فيه بين البارزة والغائرة، مما يسمح للضوءوالظل أن يلعبا دورهما في إضفاء نوع من السحر على هذه الزخرفة.

- الدائرة: تعتبر الدائرة من العناصر الكثيرة الاستعمال في الفن الإسلامي فاستخدمت الدائرة في وضعيات مختلفة: دوائر أحادية أو مزدوجة خالية من أي زخرفة تزين المحراب بالمسجد الجامع الكبير قصبــة تقرت دوائر تتضمن عناصر نباتية خاصة الأزهار أو عناصر هندسية بزخرفة الجهة اليمنى من جدار القبلة وقبة المسجد الجامع الكبير قصبــة تقرت.

2. العناصر النباتية: قد شغلت العناصر النباتية أماكن متعددة حيث تملأ الأشكال الهندسية خاصة المربع والمستطيل، فنادرا ما وجد عنصرا نباتيا منفردا، وحتى وإن وجد فإن الفنان لجأ إليه لملأ الأماكن الشاغرة ومن العناصر النباتية التي وجدت بالعمائر الدينية بإقليم وادي ريغ :

- الأزهار: استعملت الأزهار بمختلف الأشكال والأحجام سواء رسمت منفردة أو بداخل أشكال هندسية وهي على عدة أنواع منها:

* زهرة ذات أربعة فصوص ضمن زخرفة قبة المسجد الجامع الكبير تقرت.

* زهرة ذات ستة فصوص تزين منبر المسجد الجامع الكبير قصبــة تقرت ويتوسط هذا العنصر الزخرفي قاعدة قبة المسجد الجامع الكبير بتقرت .

- الأغصان: تخرج الأغصان للتشابك فيما بينها، فمنها من هي على شكل تفرعات بسيطة كالأغصان التي تخرج من كيزان الصنوبر المسجد الجامع الكبير بتقرت، ومنها التي تنطلق منها أوراق مختلفة أو أزهار التي تزين منبر المسجد الجامع الكبير بتقرت.

- الأوراق: اختلفت الأوراق بين البسيطة والمفصصة الحواف ذات وضعيات مختلفة حرة أو مرتبطة بأغصان، ومن أهم الأوراق المميزة للزخرفة النباتية في العمارة الدينية في إقليم وادي ريغ، ورقة العنب التي تزين تاج العمودين الموجودين على جانبي محراب المسجد الجامع الكبير بتقرت، والتي أنجزت بكل عنايةوإتقان، والأوراق النخلية بعضها مزدوجة وبعضها على شكل علامة استفهام.

- الثمار: إن الثمار الوحيدة التي يمكن ملاحظتها هي الزخرفة المكونة من كيزان الصنوبر في المنشآت الدينية في إقليم وادي ريغ تلك الموجودة أعلى جدار القبلة المسجد الجامع الكبير بتقرت.

3. العناصر الكتابية: لم يكن الخط العربي بعيدا عن مواكبة الحركة الفنية التي شهدتها الحضارة العربية الإسلامية، ويظهر لنا استعمال العناصر الكتابية في زخرفة العمائر الدينية في منبر المسجد الجامع الكبير بتقرت وضريح مؤسس الزاوية التجانية الشيخ الحاج علي التماسيني بتماسين، وكذا دار الإقامة في الزاوية التجانية، ويجب الإشارة إلى أن العناصر الكتابية منجزة على الجص أو بالألوان المائية أو محفورة على خشب المنبر، أو على طبقة معدنية نحاسية بحيث الخط المستعمل بين الخط الكوفي المغربي، وخط الثلث. وقد سبق الإشارة إلى النص المكتوب على منبر الجامع الكبير تقرت.

4. العناصر الرمزية: كانت ومازلت تنتشر في العديد من المجتمعات رموز ارتبطت ارتباطا

وثيقا بعادتها وتقاليدها، الحضارة الإسلامية أخذت منحى آخر مغايرا بعيدا عن الشرك بالله ويظهر تأثر الإنسان الصحراوي بما يحيط به واضحا من خلال استعماله لكل من عنصري الهلال والنجمة في زخرفته لما تمتاز به الصحراء من صفاء سماءها واتساع أفقها كما لا ننسى مدى تمسكه بكل ما له علاقة بالدين الإسلامي لأنهما يرمزا إليه.

- الهلال: يعتبر الهلال عنصرا رمزيا أبدع الفنان في رسمه ونقشه بأشكال مختلفة وقد استعمل الهلال في المنشآت الدينية بإقليم وادي ريغ بشكل نادر، فوجد يزين تاج العمودين الموجودين على جانبي المحراب وبأعلى كيزان الصنوبر المنقوشة في الجهة اليمنى لجدار القبلة وأعلى بدن مئذنة المسجد الجامع الكبير قصبة تقرت وبأعلى قبيبة جوسق مئذنة مسجد عبد الله المغراوي بتماسين.

- النجمة: تنوعت هذا العنصر الزخرفي الرمزي في زخرفة سواء كانت منفصلة أو مرتبطة بعناصر زخرفة أخرى، واستخدم هذا العنصر في زخرفة أعلى كيزان الصنوبر في جدار قبلة المسجد الجامع الكبير بتقرت، والعقود المحيطة بقبته ناتجة عن الحفر على الجص وقبة ضريح الحاج علي التماسيني بتماسين.

بعد تسليط الضوء على نماذج من العمارة الدينية في إقليم وادي ريغ بمختلف أنماطها وقبل الدراسة الميدانية لمختلف عناصرها المعمارية، والتي سبقت بتمهيد جغرافي وتاريخي أماط اللثام عن موقع الإقليم جغرافيا، ولمحة تاريخية صورت الوضع التاريخي لمنطقة وادي ريغ، وما نستخلصه أنها شهدت تواجد الإنسان منذ أقدم العصور حيث هيأت الظروف المناسبة لاستقرار أهالي المنطقة في هذا النطاق الجغرافي الرحب. إن الموقع الجغرافي، إضافة إلى الاستقرار السياسي في مرحلة محددة أهلها لأن تحتل مكانا اقتصاديا هاما في منطقة الجنوب الجزائري بوجه عام.

عمارة الإقليم الدينية ومنها مساجد المنطقة الجامعة منها أو مساجد الصلوات الخمس، حاولت تتبع أثرها التاريخي، رغم صعوبة تحديد تواريخ تأسيس الجوامع والمساجد وذلك نظرا للمعلومات القليلة المتوفرة. عموما لم تعرف اختلافا كبيرا في تصميمها العام ولكنها حافظت على نفس التصميم بحيث نجد تشابها واضحا بين تصميم الجامع والمسجد. ومن جهة أخرى فإن الخاصية التي تلاحظ على هذه المنشآت الدينية اشتراكها في صغر حجمها بالنسبة للمنشآت المشابهة لها في الشمال لأنها شيدت داخل القصبة ، وكما عرفنا أن القصبة (القصر) يحيطها

دائما سور خارجي، وتكون المباني صغيرة الحجم تلبي فقط حاجة العدد القليل من أهاليها. إن الجوامع والمساجد كانت المؤسسة الدينية الأكثر أهمية في إقليم وادي ريغ، بالرغم من بساطتها من الجانب الفني والزخرفي، لأنها جاءت بسيطة بساطة أهل المنطقة، وسلاطينها وحرصهم البالغ على عدم التباهي وتخليد فترة حكمهم كما هو الحال عليه في الشمال.

أخذت عمارة الأضرحة حيزا هاما من اهتمامات، أهالي إقليم وادي ريغ وحكامها، وكان ذلك ضمن مسايرة متوازية مع الحركة العلمية التي شهدها الإقليم لعدة فترات تاريخية متعاقبة. الزوايا في إقليم وادي ريغ لم تشد عن قاعدة دور الزوايا في عموم الدولة الإسلامية في مختلف الفترات التاريخية، وتجلى الاختلاف في التصميم، والتخطيط، وفق معطيات مادية وبشرية، وحتى بيئية. المدرسة القرآنية لم تخرج عن التقليد المتبع في التعليم بإقليم وادي ريغ الذي يبدأ منذ المرحلة الأولى، يتعلم فيها الصبية حفظ مبادئ اللغة العربية الأولى، ثم التدرج في مرحلة الحفظ القرآن.

بخصوص استخدام مواد البناء في العمارة بشكل عام في منطقة وادي ريغ ، لم يخرج عن ما عرف في مناطق الجنوب عامة، فقد راعى سكان الإقليم استعمال الطين والحجر والخشب، وهذه أهم المواد المتوفرة في المنطقة ومحيطها. كل المواد المستخدمة في بناء العمائر الدينية والمدنية حرص البناء في اختيارها على أن تكون ملائمة للبيئة والظروف الطبيعية التي يعيشون فيها، وهذا لم يمنع أن تستقدم بعض المواد من جهات أخرى ونذكر على وجه الخصوص الآجر المستورد من منطقة الجريد. من ناحية الزخرفة وموادها أيضا عرفت نوعا من الاهتمام لدى فنان المنطقة مع إثراء مهاراته الفنية، من خلال احتكاكه بفناني المناطق المجاورة وخاصة منطقة الجريد التونسي.

ملحق الصور:

صورة رقم (01): منظر عام لمنشآت دينية قصر مستاوة (Google Earth)

صورة رقم (02): منظر عام لمنشآت دينية قصر تيماسين (Google Earth)

صورة رقم (03): في المقابل على اليمين المسجد الجامع الكبير قصر مستاوة (أرشيف)

صورة رقم (04): اللوحة الرخامية التأسيسية للمسجد الجامع قصر مستاوة

صورة رقم (05): أسكوب جدار القبلة المسجد الجامع قصر تقرت

صورة رقم (06): مئذنة المسجد الجامع قصر مستاوة

صورة رقم (07): قبيبة المدخل الرئيسي لمسجد سيدي عبد الله المغراوي قصر تماسين

صورة رقم (08): مئذنة مسجد سيدي عبد الله المغراوي قصر تماسين

صورة رقم (09): أضرحة بني جلاب سلاطين منطقة وادي ريغ

صورة رقم (10): فرن إعداد مادة الجبس المعدة للبناء والتلبيس

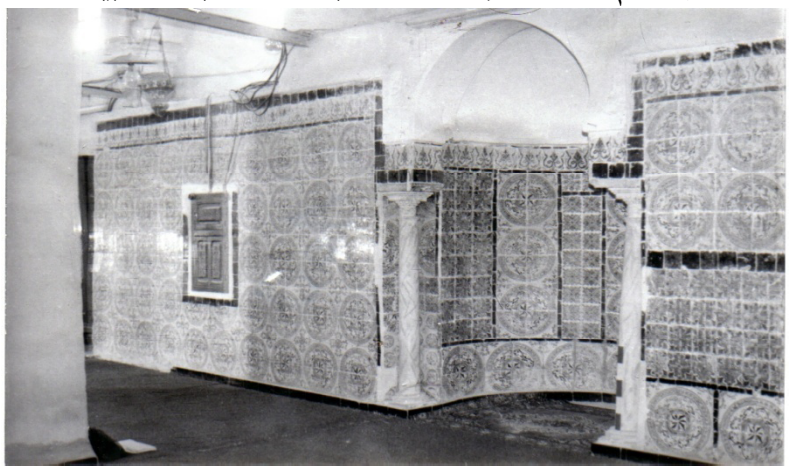

صورة رقم (11): لوحة خزفية ذات زخارف نباتية وأشكال هندسية تزين جدار القبلة للمسجد الجامع الكبير قصر مستاوة

صورة رقم (12): نموذج من الزخرفة الجصية ذات الأشكال الهندسية
المسجد الجامع الكبير قصر مستاوة

هوامش البحث:

1 . REVUE AFRICAINE ; Histoire Des Rois d'Alger ,1880, V 24, pp : 271,272.

2 . LEON L'AFRICAIN ; Discription de l'Afrique; éd Epaulard (A), 2 V Maison neuve, Paris, 1956,p: 438.

3 . ابن خـــلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج.6 ص: 98.

4 . نفسه، ص: 98.

5 . نفسه، ص:98.

6 . Colonel NIOX ; Géographie Militaire VI, Algérie et Tunisie, 2 éme édition, Paris, Librairie Militaire de L.Baudoin et Cie, 1890

7 . Ibid.

8 . شنيتى (محمد البشير)، التوسع الروماني في الجنوب، مجلة الأصالة، ع41، 1977، ص: 75.

9 . ابن خـلدون (عبد الرحمان)، المصدر السابق، ص: 98.

10 . نفسه: 99.

11 . Dubocq (M) ; Mémoire sur la Construction Géologique des Ziban et Oued Rir Carilian –Goevry et Voe, Paris, 1852, p 63

12 . Durand J.H et J.Guyot ; l'Irrig. des Cultures dans la Région de O. Righ TIRS, 1955, p : 77.

أنظر أيضا:

Gouskov (N), la géologie et les Problèmes de l'Eau en Algérie, Alger, 1852, p :53.

GAUTIER. E.F ; Le Sahara Constinoise, Paris : A. Colin, 1903, p :285.

13 . Despois (J) ; Géographie d'Afrique du nord, Paris , 1967 p : 122.

أنظر أيضا:

- Dumas (C), le Sahara Algérien, Etude Géographique.., Paris , 1845, p :129.

14 . Carette (E) ; Commerce de l'Algérie avec l'Afrique Centrale et l'Etats (1) Barbaresques, Paris, 1844, p : 52

15 . العياشي (أبو سليم عبد الله)، مـــاء الموائد، فاس، 1898.

16 . CAUVET (Cdt), les Romains au djebel Amour, B.S.G, 1935, p : 25.

17 . Ibid, p :26.

18. يحي معمر (علي)، الإباضية في الجزائر، الطبعة الأولى، مطبعة الدعوة الإسلامية القاهرة، 1979، ص:351.

19 . Bajolle ; Le Sahara d'Ouargla, de l' Oued Mya, de l'Oued Ighargar, Paris, 1887, p :196.

20 . ابن خلدون (عبد الرحمان)، المصدر السابق، ص:98.

21 . Basset (R) ; Etude sur les Zenatia du Mzab, de Ouargla et de Oued Rir, Paris, 1892, pp : 54 – 57.

22 . LEON L'AFRICAIN ; Description de l'Afrique, éd Epaulard Maison neuve, Paris , 1956,p 438.

انظر أيضا:

- Lethelleux (J), Ouargla Cité Saharienne, Geutner, Paris, 1984, pp :154-155
- Madeleine (R.B), Le Pays d'Ouargla, Sahara Algérien, Paris, 1875, p :73.
- LEON L'AFRICAIN, Op. Cit, p :438.
- Behaghel (A), l'Algérie, Alger, 1865, p :54.

23 . التجاني (أبو محمد عبد الله)، رحلة التجاني، تحقيق: حسن عبد الوهاب، تونس، 1958، ص:126.

المصلّيات الجنائزية بمنطقة وادي مزاب
دراسة وصفية وتنميطية من خلال بعض النماذج

أ. د. معروف بلحاج (جامعة تلمسان)

Abstract:

The architecture in the valley of M'zab makes all what he could to create a building which is in line with the nature of the climate of this region; distinguishing the intense heat in summer and cold in winter. This interaction between the atmosphere and building materials formed an excellent architectural characteristics, which was always faithful to the traditions of Islamic architecture that were subject essentially a to Islamic teaching.

According of their social needs, the M'zabites has constructed a variety of religious and civil buildings.

Considering the community of M'zab a religious one, subject to the authority of spirits (halqa of Azzaba) whose given a special attention and interest to the religious buildings specially the funeral mosques. It is intended here by the funeral mosques: the architectural space that mediate the tombs in the valley of the M'Zab and perform the functions of a close relationship with the dead.

These ones are located in graves which surround the city; so for what and why this particular site? and what is the role of these buildings?

These mosques has taken a variety of forms: some are completely open, others are partially exposed, others also covered, so what are their patterns and types?

Through this research we'll try to answer the above questions in relation with the subject exposed.

مقدمة:

إنّ المعماري في وادي مزاب بدل كلّ ما في وسعه لخلق عمارة تتماشى وطبيعة مناخ المنطقة الذي تمتيزه الحرارة الشديدة صيفا والبرودة شتاء، وبتفاعل هذا لمناخ مع مواد البناء المتوفّرة في نفس البيئة تشكّلت عمارة تحمل خصائص معمارية متميّزة، لكنّها كانت دائما وفية لتقاليد العمارة الإسلامية التي خضعت في جوهرها لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

لقد شيّد المزابيون تبعا لاحتياجاتهم ونشاطاتهم الاجتماعية منشآت معمارية ومرافق عمومية متنوّعة دينية ومدنية ودفاعية، وباعتبار المجتمع المزابي مجتمعا متديّنا ويخضع لسلطة روحية (حلقة العزّابة) فقد أعطى اهتماما وعناية خاصّة للعمائر الدينية، ومن بين هذه المباني الدينية التي أولى لها المزابيون اهتماما بالغا نجد المصلّيات الجنائزية.

ونقصد بالمصلّيات الجنائزية هنا تلك الفضاءات المعمارية التي تتوسّط المقابر في منطقة وادي مزاب والتي تؤدّي وظائف ذات علاقة وطيدة بالميت .

لقد اختير لهذه المصلّيات الجنائزية موقعا وسط المقابر التي تحيط بالمدينة من كلّ جهاتها، فلماذا هذا الموقع بالذّات ؟ وما هو دور هذه العمائر داخل المقابر ؟

اتّخذت مصلّيات المقابر أشكالا متنوّعة فمنها ما هو مكشوف تماما، ومنها ما هو مكشوف جزئيا، ومنها ما هو مغطّى كلّيا، فما هي أنماطها وأنواعها ؟

فمن خلال هذا البحث سنحاول الإجابة على الإشكالية المطروحة ومن خلال ذلك سنبرز خصائص ومميّزات هذه المنشآت المعمارية ومدى تلاؤمها وتفاعلها مع المحيط الذي تتواجد فيه.

1 - الإطار الجغرافي والتاريخي:

قبل الخوض في غمار موضوع بحثنا، لا بدّ لنا من تحديد المنطقة جغرافيا وإعطاء لمحة تاريخية مختصرة عنها.

1 - 1 الموقع الجغرافي:

ينتمي وادي مزاب إلى الحوض الشرقي للصحراء الجزائرية والذي يحدّه شمالاً جبال الأطلس الصحراوي، ومن الغرب والجنوب الغربي قورارة وتوات، ومن الجنوب منطقتا الأهقار

والطاسيلي، ومن الشرق الحمادة الحمراء ومنطقة غدامس[1].

تقع التجويفة البيضاوية لوادي مزاب بين خطّي عرض 32° و33° ‹20 شمالا، وبين خطّي طول 0° ‹4 و2° ‹50 شرقا[2]. وتبلغ مساحة الوادي حوالي 8000 كلم[2]، ويتراوح علوّها عن سطح البحر ما بين 300م و800م[3]. ويبتعد مركز منطقة وادي مزاب -غرداية- عن الجزائر العاصمة بحوالي 600 كلم.

تمتاز منطقة وادي مزاب عموما كباقي المناطق الصحراوية الأخرى بمناخ جاف. لذا فإنّ الأمطار تكون شحيحة جدًّا وفي فترات غير منتظمة، وتصل كميّة التّساقط السنوية إلى حوالي 130,7 مم. كما يمتاز مناخ المنطقة بتباعد الحدّين الحراريين في اليوم الواحد وبين الصيف والشتاء. إذ تبلغ درجة الحرارة صيفا 48° وتنزل إلى درجة 0°[4].

تهبّ على المنطقة رياح شمالية وشمالية غربية تكون باردة وتسمح بتساقط كمية من الأمطار في فصل الشتاء، وقد تكون غربية. وأمّا في فصل الصيف فتهبّ في غالب الأحيان ريّاح جنوبية تكون جافّة وحارّة وهي المسؤولة عن الحرارة الشديدة التي تجتاح المنطقة في هذا الفصل.

1 – 2 لمحة تاريخية عن المنطقة:

إنّ بقايا أثار وأطلال القصور القديمة المتناثرة في منطقة وادي مزاب تدلّ دلالة واضحة على أنّ المنطقة كانت عامرة بالسكّان قبل نزوح الإباضيين إليها. فمن هم هؤلاء السكان الذين استقرّوا في المنطقة قبل القرن الخامس الهجري ؟.

يتحدّث عبد الرحمن بن خلدون عن هؤلاء السكان في قوله << من بني واسين هؤلاء بقصور مصاب على خمس مراحل من جبل تيطر، في القبلة لما دون الرمال، على ثلاثة مراحل من قصور بين ريغة، وهذا الاسم للقوم الذين اختطّوها ونزلوها من شعوب بادين، وضعوها في أرض حرّة على إحكام وخراب ممتنعة في مسارحها، بين الأرض المحجرة المعروفة بالحمادة في سمت العرق، متوسّطة فيه، قبالة تلك البلاد على فراسخ في ناحية القبلة، وسكانها لهذا العهد شعوب زناتة، وإن كانت شهرتها مصاب...>>[5].

لقد شيّد بنو مزاب الذين كانوا على مذهب المعتزلة الواصلية[6] قبل نزوح الإباضية إلى

المنطقة قصورا صغيرة، اندثرت كلّها ولم يبق منها سوى بعض الأطلال، وقد عدّها الدكتور جون هيغي[7] بنحو خمسة وعشرين قصرا نقلا من مصادر إباضية لم نتمكّن من الاتّصال بها .

وتحدّثنا المصادر الإباضية[8] عن انضمام المزابين إلى المذهب الإباضي، وتخّليهم عن المذهب المعتزلي بفضل مجهودات العلاّمة الإباضي أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي[9].

لقد كانت الهجرات جماعية أو فردية على مرّ القرون من أنحاء شتّى من بلاد المغرب؛ من سدراتة ووارجلان ووادي ريغ ونفوسة وجربة وجبل عمّور وقصر البخاري والمدية وسجلماسة وفقيق والساقية الحمراء ومن غيرها من المناطق المختلفة، وقد كان هؤلاء المهاجرين إمّا إباضية أو أنّهم اعتنقوا المذهب الإباضي عند استقرارهم بالمنطقة، فأصبحت تسمية بني مزاب تشمل حتّى هؤلاء النازحين الجدد الذين ساهموا بقوّة رفقة سكان المنطقة في تشييد مدن وادي مزاب السبع، وبفضل جهودهم وتضحياتهم وصبرهم على شظف العيش وكدّهم المستمرّ تمكّنوا من إحياء أراض موات في أرض قاحلة جرداء. فشيّدوا على ضفتي الوادي خمس مـدن؛ العطف (404 هـ/ 1014 م)، وبنـورة (438-448 هـ/ 1046-1056م)، وغـرداية (439 هـ / 1048م) وبني يزقن (1321-1347م)، ومليكة (756هـ / 1385م)، وبعد أن اكتظت المنطقة بالسكّان لجأ المزابيون إلى استحداث مدينتين أخريين هما؛ القرارة (1041 هـ/ 1631م) وتبعد عن مركز مزاب بحوالي 120 كلم، وبريان (1090 هـ/ 1679م) على بعد 43 كلم من مركز مزاب[10]. وحفروا الآبار وبنوا السدود وشقّوا الترعات فأنشؤوا بذلك واحات من النخيل بجانب كلّ مدينة، كما سنّوا تنظيمات اجتماعية (مجلس العشيرة ومجلس الأعيان وحلقة العزّابة ومجلس الأعلى لعزّابة وادي مزاب...الخ) حافظت على تماسك المجتمع المزابيّ وجعلت منه مجتمعا راقيا متحضرا، فكوّن لنفسه نمطاً حضارياً متميّزاً.

2 – مفهوم المصلّى الجنائزي ونشأته:

هناك من يطلق عليها أيضا اسم <<مصلّى المقبرة>>، وقبل الخوض في ثنايا الموضوع لا بدّ من تقديم تعريف لهذا المصطلح، فأمّا مفهوم المُصلّى بالضّم وتشديد اللاّم، فيعنى موضع الصلاة، وقيل أيضا موضع الدعاء[11]، كما في قوله تعالى: <<وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى>>[12].

وأمّا مفهومه كمصطلح، فيُقصد به تلك المنشآت أو العمائر التي تخصّص للصلاة في مناسبات مختلفة مثل صلاة العيدين (الفطر والأضحى)، ومن هنا اشتهرت باسم مصلّى العيد. وتجاوزا

أُطلق على المساجد بدون مئذنة اسم المصلّى[13].

وبأداء صلاة الجنازة في هذه المصلّيات، أصبحت تُعرف باسم المصلّى الجنائزي. ويُبنى هذا المصلّى في بعض الأحيان مجاورا لمصلّى العيد، وقد يُستغلّ نفس المصلّى لأداء صلاة العيد وصلاة الجنازة في آن واحد. فضلا عن أداء صلاة الاستسقاء كما تذكر ذلك بعض المصادر التاريخية[14].

أدّت المصليات دورا عظيم الشأن في المجتمعات الإسلامية لا سيّما في العصور الوسطى وبالخصوص في منطقة وادي مزاب.

لقد ورد في المصادر التاريخية أنّ المصلّى الجنائزي في المدينة المنوّرة كان ملاصقا بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم من ناحية الشرق، وما يؤكّد هذا القول ما تذكره المصادر التاريخية من أنّ جدار الحجرة الشريفة التي تلي موضع الجنائز - يعني جهة الشرق- سقط في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وظهرت القبور المقدّسة[15].

وقد ظلّ ذلك الموضع يحمل اسم مصلّى الجنائز إلى وقت قريب، إذ يشير عبد القادر شيبه الحمد إلى ذلك في قوله <<ولا زلنا نسمع إلى الآن أنّ الساحة الواقعة بجانب جدار المسجد النبوي الشريف من الناحية الجنوبية الشرقية والتي أُحيطت من جهة الشرق والشمال والجنوب بجدار قصير، أنّها كانت مصلّى الجنائز>>[16].

لقد انتشرت هذه المصلّيات في العديد من المدن الإسلامية، فكانت تُعرف أحيانا باسم <<المصلّيات الجنائزية>> وأحيانا أخرى باسم <<مصلّيات المقابر>>. ولقد أُلحقت هذه المصلّيات الجنائزية سواء المغطّاة منها أو المكشوفة ببعض الجوامع ويقدّم لنا محمد الكحلاوي أمثلة من ذلك في بلاد المغرب مثل المصلّى الملحق بجامعي القرويين والأندلسيين بفاس[17]، وأمّا في مصر فصلاة الجنازة كانت تُقام في المساجد. وهذا لا يعني بالضرورة أنّ العمارة المصرية الإسلامية لم تعرف هذا النوع من العمائر، بل من المؤكّد أنّها عرفتها مثل بقية الأقطار الإسلامية، ويُفهم من المصادر والوثائق التاريخية أنّها كانت عديدة، وكانت إمّا ملحقة بالعمائر الدينية وخاصّة بالمساجد أو بُنيت مستقلّة. وتعلّق عليها أوقاف وحبوس عديدة، ومن أمثلة ذلك المصلّى الملحق بمسجد الأمير علي كاشف جمال الدين بمنفلوط الذي أنشئ سنة 1176 هـ/ 1762م[18].

ويُقصد بالمصلّى الجنائزي في منطقة مزاب تلك المبنى الذي يوظّف لأداء صلاة الجنازة أو

تُمارس فيها بعض الشعائر الدينية التي لها علاقة مباشرة بالميت، مثل تلاوة القرآن الكريم، وممارسات أخرى لها علاقة بالجانب الاجتماعي.

3 - المصلّيات الجنائزية في مزاب:

قبل أن نخوض في توضيح الخصائص المعمارية للمصلّيات الجنائزية بمزاب من الناحية المعمارية، لابدّ من التوقّف في الدور الذي كانت تؤدّيـه هذه العمائر داخل المجتمع المزابي. وما هي العلاقة التي تربطها بالمسجد ؟

3 – 1 وظيفة المصلى الجنائزي بوادي مزاب:

تؤدّي المصلّيات الجنائزية أدورا متنوّعة وهامّة داخل المجتمع المزابي ومنها الدور التعليمي والتربوي والاجتماعي.

لقد كان لهذه المصليات دور أساسي في ميدان التعليم، وفي اعتقادنا أنّ فكرة إنشائها كانت في الأصل لغرض تعليمي بحث. إذ يبدو أنّ بعض المشايخ الإباضيين الأوائل في وادي مزاب كانوا يتّخذون من المباني البعيدة عن التجمعات السكّانية أماكن لأداء مهمّة التعليم والتدريس على أحسن وجه، وذلك اقتداء بأسلافهم من مشائخ الإباضية الذين كانوا يلجئون إلى مغارات طبيعية أو غير طبيعية، وذلك في سبيل أداء مهامهم في أحسن الظروف، وعندما نتحدّث عن المغارات يتبادر إلى أذهاننا بطبيعة الحال اتّخاذ الرسول صلى الله عليه وسلم غار حيراء للتعبّد[19].

يبدو أنّ الغار كان يكفل قدرا من الحماية والأمان للمجموعات المضطهدة فقد اتّخذ الرسول صلى الله عليه وسلم غار ثور ملجأ يحتمي فيه ضدّ أعدائه الذين كانوا يريدون القضاء عليه، كما أنّ للظروف التاريخية جعلت المجموعات الإباضية تلجأ إلى المغارات فرارا من مضطهديهم، وقد تكون هذه المغارات على شكل سراديب تحت الأرض تُمارس في داخلها مهنة التدريس، ولنا في التاريخ الإباضي أمثلة عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الغار الذي آوى إليه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وتلاميذه ممن يُطلق عليهم اسم <<حملة العلم>>[20]، واقتداء بأسلافهم في المشرق فقد اختار الشيوخ الإباضيون في شمال إفريقيا مغارات كأماكن للتدريس بعيدة عن مشاغل الدنيا وشهواتها، وقدّم لنا أبو العباس الدرجيني في كتاب الطبقات أمثلة عديدة عن هؤلاء العلماء من بينهم نذكر أبا عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي النّفوسي[21] الذي

اختار الاعتزال مع تلاميذه في غار «تين ايسلي» بوادي ريغ.

وليس أدلّ على ذلك ما قام به عمّي سعيد الجربي عندما استقرّ في مزاب، حيث خصّص المصلّى الذي ابتناه (المصلّى الجنائزي عمّي سعيد) لأداء مهمّة التدريس، وذلك استنادا إلى تقاليد بلده الأصلي «جربة».

إنّ فكرة الاختلاء بالطلبة في أماكن بعيدة عن التجمّعات السكّانية تجعل الطلبة ينصرفون تماما عن كلّ ملهيات الحياة، كما تضمن لهم التفرّغ الكامل للتحصيل العلمي والتربية، ويبدو أنّ الزوايا في بلاد المغرب قد نشأت من نفس الفكرة، ولنا في تاريخ التصوّف ببلاد المغرب أمثلة عديدة.

وبعد وفاة العالم يدفن إلى جوار مدرسته أو خلوته، ثمّ يُدفن بعد ذلك إلى جواره كلّ من ينتمي إلى عشيرته أو عرشه، ثمّ تتحوّل الأراضي المجاورة للمدرسة شيئا فشيئا إلى مقبرة حقيقية، فتصبح هذه القبور محاطة بها من كلّ الجهات باستثناء جهة القبلة، وعندئذ يتحوّل ذلك المبنى (المدرسة) إلى مصلّى جنائزي، فيُعطى لها اسم العالم الجدّ،كأن نقول مثلا مقبرة الشيخ عمي سعيد أو مقبرة الشيخ بَاأَمْحَمَدْ، ثمّ تندمج المقبرة مع المصلّى. وهكذا تتغيّر وظيفة المبنى طبيعيا من مدرسة إلى مصلّى جنائزي، حيث تُقام صلاة الجنازة وبعض الشعائر الدينية التي لها علاقة بالميت .

ولتدعيم هذه الفكرة يمكن أن نضيف إلى ما سبق للاستدلال على عملية تحوّل المدرسة إلى مصلّى جنائزي، إطلاق تسمية «المحضرة» إلى يومنا على هذا النوع من المباني، مع العلم أنّ اسم المحضرة يُقصد بها المدرسة في منطقة وادي مزاب. إذاً فالمصلّيات الجنائزية نشأت من فكرة المدرسة أو ما يسمى «بالمحضرة» ثمّ تحوّلت إلى مصلّيات جنائزية بمجرد دفن الشيخ العالم ولاحقيه من أبناء عرشه بجوارها. فإذا كانت هذه المنشآت المعمارية تؤدّي في البداية وظيفة التدريس، فما هو دورها الجديد بعد عملية التحوّل ؟

إضافة إلى أداء صلاة الجنازة، تستقبل تلك المصلّيات الجنائزية في فترة محدّدة من السنة عدداً هائلا من دارسي القرآن الكريم بدءا بأعضاء حلقة العزابة وحتّى التلاميذ الصغار الذين يتوافدون نحو المصلّى منذ الصباح الباكر، ثمّ ينقسمون إلى مجموعات على حسب درجة حفظهم للقرآن الكريم، وقد خصّص لكلّ مجموعة فضاء معين. ويقوم الوافدون بتلاوة القرآن

الكريم حتى الزّوال، ثمّ يتفرّقون ليرجعوا في المساء قبل صلاة الظهر، حيث يتمّ اختتام القرآن الكريم. وخلال الفترة الصباحية والمسائية يتمّ توزيع بعض الأطعمة (التمر والخبز والكسكس وحتى اللحم ...الخ) المعلّقة على المصلّى الجنائزي في شكلّ أوقاف أو حبوس أو صدقات، ويستفيد من هذه الأطعمة عدد كبير من المحرومين والفقراء والمساكين[22].

وتبرز أهمّية هذه المباني فعلا أثناء ظهور الكوارث مثل المجاعات والأوبئة التي تودي بحياة العديد من السكان الذين يمكن أن تستوعبهم هذه الأماكن، فتُقام عليهم صلاة الجنازة فيها[23].

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الصلوات الخمس لا تقام في هذه المباني، اقتداء بالأحاديث النبوية التي تحرّم اتّخاذ المقابر مساجد، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال : << الأرض كلّها مسجد، إلاّ المقبرة والحمام >>[24].

3 – 2 أنواع المصلّيات الجنائزية:

بعد الملاحظة والتدقيق في النماذج المدروسة آنفا، يمكننا تمييز نوعين مختلفين تماما وهما : المصليات المغطّاة أي التي غطّيت جزئيا أو كلّيا، والمصلّيات المكشوفة تماما.

3 - 2 - 1 المصلّيات الجنائزية المغطّاة:

لا تبتعد المصلّيات الجنائزية المغطّاة كثيرا في تخطيطها وفي نمطها المعماري عن مساجد المدينة إلاّ من حيث الوظيفة. فعلى العموم فقد جاءت تصاميم هذه المصليات في شكل غير منتظم، كما أنّها تمتاز باليساطة والتقشّف في البناء، حيث أنّها تخلو من كلّ أنواع الزخرفة. وقد استخدم في بنائها مواد مستخرجة من البيئة المحلية مثل الأحجار وجذوع النخيل وجريدها ومادة التمشنت والجير.

ومن الصعوبة بمكان محاولة تنميط هذه المصليات، نظرا للتشابه الكبير فيما بينها، فاجتهدنا قدر الإمكان لإيجاد بعض الاختلافات، وبعد الملاحظة الدقيقة، واعتمادا على تقنية التغطية، استطعنا تمييز نمطين معماريين وهما : المصلّيات ذات القباب، والمصلّيات ذات الأقبية[25].

أ - النوع الأوّل: ويمكن أن نطلق عليها اسم المصلّيات ذات القباب **و**يدخل ضمنه كلّ المصلّيات الجنائزية المغطّاة جزئيا أو كلّيا بقباب بارزة من الخارج أو مضمرة ومغروسة في السقف كالمصلّى الجنائزي عمّي سعيد (الصورة: 4) والمصلى الجنائزي بابه او الجمة (اللصورة:

7) ومصلّى باعيسى أُو علوان (الصورة: 9، والشكل: 4)، وما يلاحظ هنا أنّ هذا النوع من المصلّيات الجنائزية ينتشر بكثرة في مدينة غرداية[26]، وهذا الوضع يفرض علينا طرح التساؤل الآتي: لماذا انتشرت معظم المصلّيات الجنائزية المنتمية إلى هذا النوع في غرداية ؟.

يبدو أنّ الإجابة على هذا التساؤل يستدعي منّا البحث في أصل الجماعات المهاجرة التي استقرّت في مدينة غرداية دون غيرها، ولم يكن لها انتشار في المدن الأخرى. ويُفترض بطبيعة الحال أن ينتقل بعض البنّائين مع هذه الجماعات حاملين معهم هذه الأنماط المعمارية التي ألفوا تخطيطها وتصميمها على أرض الواقع، ويبدو لنا أنّ الأمر يتعلّق بالمجموعات القادمة من مدينة جربة بتونس، أو من جبل نفوسة بليبيا، وذلك للاستعمال الواسع لعنصر القبّة في هذه المناطق، ولا سيّما في المنشآت الدينية. كما نجد الأسلوب ذاته في التسقيف متداولا في العمارة الشعبية بمصر، ومن أبرز النماذج مسجـد سبع والسبعين بمدينة أصوان الذي ينقسم إلى تسع فضاءات متساوية، مغطّاة بقباب نصف كروية[27].

ينتج عن تقاطع البوائك العمودية والموازية فيما بينها داخل قاعات الصلاة في المصلّيات الجنائزية المنتمية إلى هذا النوع، فضاءات صغيرة غير متساوية تُغطّى بقباب نصف كروية متفاوتة البروز من الخـارج أحيانا (الصورة: 7 و9)، ومضمرة أو مغروسة في السقف (الصورة رقم:4) أحيانا أخرى، وترتكز القباب هنا على دعامات مستطيلة أو مربّعة وأحيانا غير منتظمة الشكل بواسطة عقود نصف دائرية.

يظهر مخطّط مصلّى بابه او الجمّة الجنائزي بغرداية (الشكل :3) مختلفا تماما عن المخطّطات التي ألفنا مشاهدتها، ويتعلّق الأمر بمخطّط على شكل حرف T اللاتيني.

ب - النوع الثاني: ويمكن أن نطلق عليه اسم المصلّيات ذات الأقبية، ويعدّ هذا النمط أكثر الأنواع انتشارا في منطقة مزاب. حيث إنّ الفراغات الضيّقة الناتجة عن تقاطع البوائك السائرة نحو جدار القبلة في اتّجاهين؛ العمودي والموازي تمّت تغطيتها بأقبية نصف برميلية أو أقبية متقاطعة، وقد ساعد على سهولة إنجاز هذه الأقبية توفّر مادّة الجريد بكثرة في هذه المنطقة. وما يُلاحظ في المصلّيات الجنائزية المنضوية تحت هذا النوع أنّ قاعات الصلاة فيها تكون في أغلب الأحيان مفتوحة بواسطة بائكة أو أكثر نحو الفضاء المفتوح (الصحن) الذي يحدّده سياج جداري، بحيث لا يتجاوز ارتفاعه 0,70م، ويظهر ذلك جليا في المصلى الجنائزي بأمحمد

(الصورة : 2) والشيخ باسه[28] (الشكل : 5، والصورة: 11) ببني يزقن[29].

إنّ انفتاح بيت الصلاة نحو الفضاء المكشوف بهذا الشكل،لم يأت عفويا أو اعتباطا، بل كان استجابة إلى احتياجات ملحّة تمليها اعتبارات وظروف طبيعية ومناخية. فأغلب هذه المصلّيات بُنيت على سفوح الهضاب الصخرية، وبما أنّ الجزء المغطّى من هذه المباني يكون مواليا للجبل، فكان من الضروري تأمين الضوء والهواء لهذه الأقسام الداخلية المغطّاة من الجهات الأخرى. فجاء الحل عبقريا وذلك بفتح بوائك نحو فضاء مكشوف.

أمّا موقع الصحن بالنسبة لبيت الصلاة في المصليات الجنائزية المغطّاة بالأقبية، فيكون في أغلب الأحيان في موقعه التقليدي كما جرت العادة في المساجد الإسلامية، أي متقدّما بيت الصلاة على محور المحراب، وهذا ما نلاحظه في المصلّى الجنائزي باأمحمد (الشكل: 1) والمصلّى الجنائزي باسّه أو فضل (الشكل: 5).

هناك ظاهرة معمارية لاحظناها في مساجد المدينة وتتكرّر في بعض المصلّيات الجنائزية ذات الأقبية، ويتعلّق الأمر بذلك الكمّ الهائل من الدعامات الساندة، حتى ليعتقد المرء أنّه داخل غابة كثيفة من الدعامات التي تقوم بحمل السقف بواسطة عقود نصف دائرية. وقد كان المهندس المزابي يهدف من وراء تطبيق هذه الطريقة إلى خلق فضاءات ضيّقة بحيث يسهل عليه تغطيتها بما تمنح له البيئة الطبيعية المحلية من مواد.

تُرك داخل بعض المصلّيات الجنائزية فضاءات واسعة نوعا ما مقارنة بالفضاءات المعمارية الأخرى. ولا شك أنّ هذه الفضاءات تُستغلّ لأداء وظائف معيّنة، ولا سيّما ما يتعلّق بحلقات الدّرس، كما تُستغلّ أيضا كمجالس لتلاوة القرآن الكريم جماعيا، وتُغطّى هذه الفضاءات بأخشاب من جذوع النخيل وجريدها وأحسن مثال على ذلك ما نشاهده في مصلى عمّي سعيد (الشكل: 2) والمصلّى الجنائزي باأمحمد (الشكل: 1).

3 – 2 - 2 المصلّيات الجنائزية المكشوفة:

هناك نوع آخر من مصلّيات الجنائزية في مزاب يكون على هيئة فضاء واسع مكشوف تماما، يحدّده سياج جداري، وفُتحت في واجهته القبلية عنزة تبيّن اتّجاه الكعبة وتؤدّي نفس وظيفة المحراب، كما فُتحت على جدرانها عدد كبير من الكوّات التي تُستخدم لوضع الأحذية والمصاحف والأدوات اللازمة لأداء الشعائر الدينية، وقد يبنى في وسط هذه المصليات المكشوفة

عمود منتفخ في الأسفل وضيّق في الأعلى، تغرس في أعلاه قضبان خشبية حيت يُعلّق الأثاث الخاص لأداء الشعائر الدينية داخل هذه المنشآت، ولنا في المصلى الجنائزي الشيخ بلحاج ببني يزقن أحسن مثال(الشكل:6 والصورة: 13). ويبدو أنّ المصلّيات المكشوفة لم تشيّد إلاّ بعد دفـن العالم الذي سيمنح اسمـه فيما بعد للمقبرة المنشأة في المكان[30].

3 – 3 الخصائص المعمارية العامة للمصليات الجنائزية:

- جاءت تصاميم المصليات الجنائزية المغطّاة تشبه كثيرا تصاميم المساجد في مزاب، حيث ميزها الشكل غير المنتظم.

- ما يميز المصليات الجنائزية بمزاب ذلك الكمّ الهائل من الدعامات التي تحمل البوائك السائرة في اتجاه عمودي وموازي لجدار القبلة حتّى ليخال المرء نفسه داخل غابة عنصرها الأساسي الدعامات، وقد استخدم المعماري المزابي هذه الطريقة لخلق فضاءات ضيّقة يسهل تغطيتها.

- بهدف انفتاح بيت الصلاة في النمط الأوّل نحو صحن مكشوف محدّد بسياج جداري قليل الارتفاع إلى إدخال الضوء والهواء إلى بيت الصلاة، لاسيّما في المصليات المبنية في سفوح الجبال، حيث لا حل لمشكلة التهوية والإضاءة إلا من جهة الصحن.

- يلجأ المعماري هنا إلى ترك بعض الفضاءات الواسعة داخل المصليات الجنائزية، وذلك قصد استغلالها للتجمّع الطلبة في شكل حلقة حول الشيخ، وهذا ما يؤيّد نظريتنا حول الوظيفة القديمة (المدرسة) للمبنى.

- تمتاز المصليات الجنائزية بالبساطة والتقشّف في البناء وخلوّها من كلّ أنواع الزخرفة.

- استخدمت جميع مواد البناء التي توفرها بيئة المنطقة، وتتمثّل في الحجر والتمشنت (نوع من الجبس) وجذوع النخيل وجريده وسعفه.

3 – 4 واقع المصليات الجنائزية:

على الرغم من المجهودات التي يبدلها ديوان ترقية وادي مزاب في صيانة هذه العمائر الدينية، فإنها تعاني كغيرها من المعالم التاريخية الإهمال، بروز بعض التصدعات والتشققات في سقوفها، ومما زاد في تدهور صحتها هجرانها من قبل مستعمليها، حيث أصبحت كل الشعائر

الدينية المتعلقة بهذه المصليات تمارس في المساجد تبعا لقرارات حلقة العزابة، وهذا ما جعل أغلب هذه المباني تتعرض لكل عوامل التلف سواء الطبيعية منها أو البشرية.

وأخطر ما يمكن أن تتعرض له هذه المعالم الأثرية تلك الأضرار التي يتسبب فيها الإنسان وتتمثل بخاصة في أعمال التخريب العمدي والحرق والهدم بسب الفتن والحروب الطائفية، لقد مرت على مدن مزاب فتن ونزاعات بين الطائفتين المختلفتين عرقا ومذهبا في فترات تاريخية مختلفة، لكن التاريخ لم يسجل لنا خلال تلك النزاعات أي حادثة استهدفت فيه المباني الأثرية أيا كانت وظيفتها، لكن الفتنة التي وقعت ابتداء من نوفمبر 2013 واستمرت إلى غاية أوت 2014 سجلنا فيه انتهاكات ضد المصليات الجنائزية (الصور: 14، 15، 16، 17)، وهنا لا بد من الوقوف والتساؤل عن مغزى استهداف المعالم التاريخية الإباضية بالتخريب والحرق؟

إن الإجابة على هذا السؤال يجعلنا نعود إلى ما يجري في الدول التي تشهد صراعات وحروب طائفية مقيتة مثل العراق وسوريا وأفغانستان وليبيا، حيث تكون فيه المعالم التاريخية هدفا وعرضة للهدم والتخريب، ويجمع الباحثون أن عملية تخريب وهدم الآثار من أضرحة ومصليات منهج حديث دخيل على الدين الإسلامي تسلكه بعض الحركات الإسلامية المتطرفة،[31] بدليل أن المصادر التاريخية لم تشر إلى حادثة هدم للآثار وقعت خلال الفتوحات الإسلامية للأقاليم غير الإسلامية سواء في بلاد فارس أو الشام أو مصر أو أفغانستان أو في غيرها من الأقاليم الأخرى التي تم فتحها من قبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعمرو بن العاص مثلا لم يمس الأهرامات والمعابد الفرعونية بسوء أثناء فتحه لمصر سنة 21هـ بل هناك بعض الحكام المسلمين الذين أبدوا اهتماما واحتراما للمباني التاريخية، وهذا دليل على الوعي المبكّر للتراث القديم لدى المسلمين، وخير برهاننا على ذلك ما نقله الرحالة عبد اللطيف البغدادي عن مشاهداته للآثار المصرية القديمة في كتابه «الإفادة والاعتبار» فيقول: <<...وما زالت الملوك تراعي بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها، والعبث بها، وإن كانوا أعداءٌ لأربابها وكانوا يفعلون ذلك لمصالح، منها لتبقى تاريخا يتنبه به على الأحقاب، ومنها أنّها تدلّ على شيء من أحوال السلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم وغير ذلك، وهذا كلّه ممّا تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه...>>[32].

الخاتمة:

إنّ المصليات الجنائزية في وادي مزاب تكتسي أهمية بالغة من الناحية التاريخية والقيمة الفنية فهي تنفرد في هندستها المعمارية عن المصليات الجنائزية المنتشرة في الأقاليم الأخرى، كما أنّها تؤدّي وظائف اجتماعية مهمّة غير التي اعتدناها في العمارة الإسلامية، ومن هنا فلا بد للمصالح المعنية بالمحافظة على الآثار من حمايتها ضد الأخطار التي تحدق بها لاسيما ما يأتي من الإنسان.

ملحق الأشكال والصور

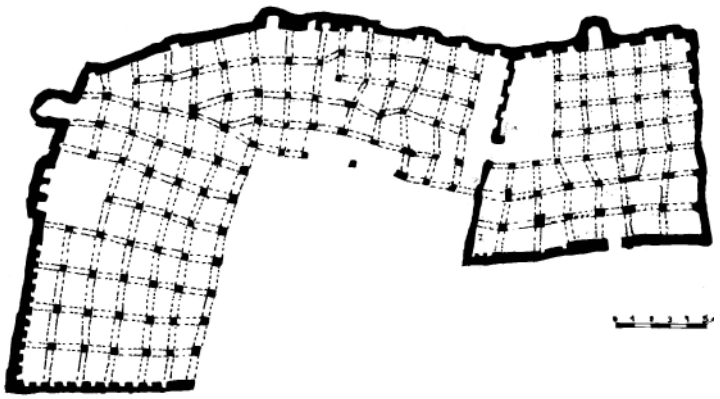

الشكل رقم 1 : مخطّط أفقي للمصلّى الجنائزي بَاأَمْحَمَدْ ببني يزقن

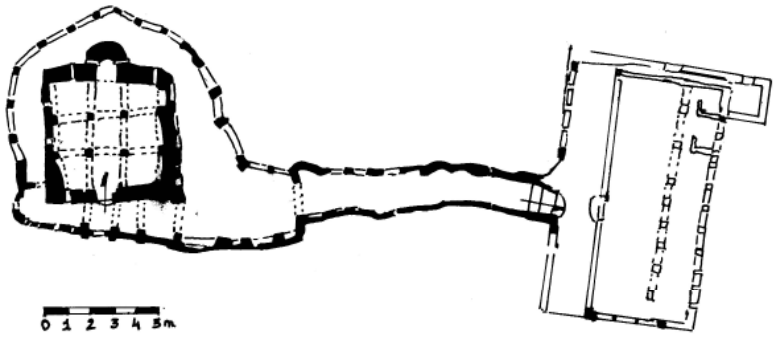

الشكل رقم 2: مخطّط أفقي للمصلّى الجنائزي عمي سعيد بغرداية.

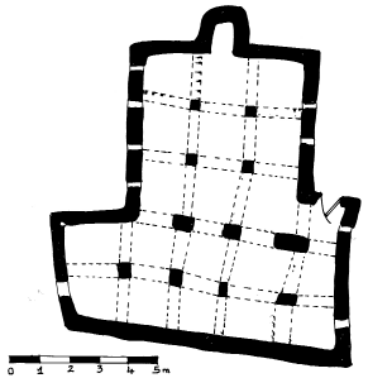

الشكل رقم 3 : مخطّط أفقي للمصلى الجنائزي بابه او الجمّة بغرداية عن/ ديوان مزاب

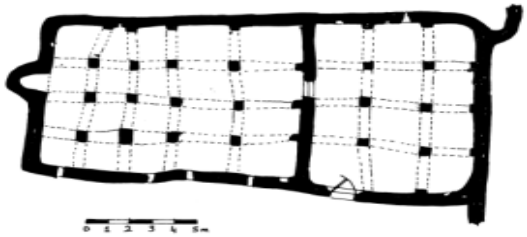

الشكل رقم: 4 مخطط أفقي للمصلى الجنائزي باعيسى أو علوان بغرداية أنجز بالتعاون مع ديوان مظاب

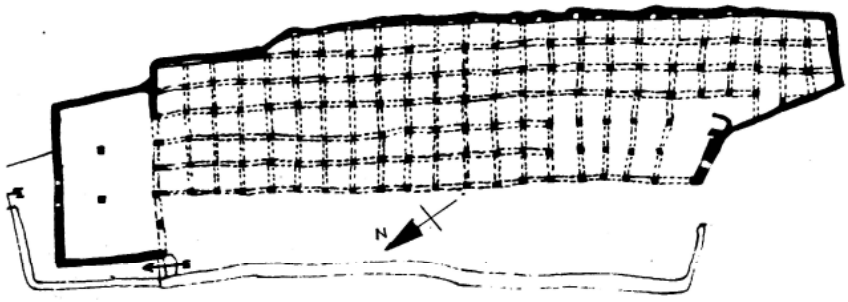

.الشكل رقم 5 : مخطّط أفقي للمصلّى الجنائزي باسّه أو فضل (باسّه بن فضل) ببني يزقن

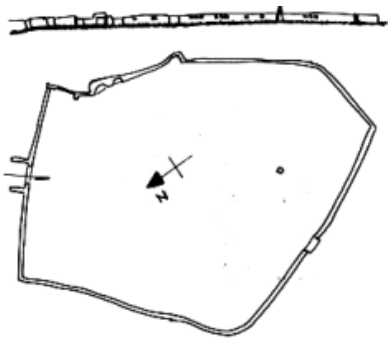

الشكل رقم 6: مخطط أفقي للمصلى الجنائزي الشيخ بلحاج الأول

الصورة رقم 1 : المصلّى الجنائزي بَاأَمْحَمَدْ؛
منظر داخل الحجرة السفلى

الصورة رقم 2 :المصلّى الجنائزي بَاأَمْحَمَدْ؛
منظر للصحن والأروقة المحيطة به.

الصورة رقم 03 : المصلّى الجنائزي بَاأَمْحَمَدْ؛
منظر داخل المصلّى

الصورة رقم 4 : المصلى الجنائزي عمي سعيد
منظر خارجي للمصلّى

الصورة رقم 5:المصلّى الجنائزي عمّي سعيد؛

الصورة رقم 6:المصلّى الجنائزي عمّي سعيد؛

الصورة رقم 7 : المصلّى الجنائزي بابه أو الجمّه؛ منظر داخلي للمصلّى

الصورة رقم 8 : المصلّى الجنائزي بابه أو الجمّه؛ منظر خارجي للمصلّى

الصورة رقم 9: المصلّى الجنائزي باعيسى أو علوان؛ منظر عام من الخارج

الصورة رقم 10: المصلّى الجنائزي باعيسى أو علوان؛ منظر داخلي

الصورة رقم 11:المصلّى الجنائزي الشيخ باسّه

الصورة رقم 12:المصلّى الجنائزي الشيخ

الصورة رقم 13: للمصلّى الجنائزي الشيخ بلحاج؛ منظر عام

الصورتان **14** و**15** تبرزان عملية الهدم التخريب العمدي
الذي تعرض له المصلى الجنائزي عمي سعيد بغرداية خلال سنة **2014**

هوامش البحث:

1 -Marth et Edmond Gouvion: Kharidjisme ; Monographie du M'zab, Imprimerie Vigie Marocarine, Casablanca, 1926, p: 175.

2 - Ibid, p : 177

3 - A. Coyne: Le M'zab, Ed : Adolphe Jourdan , Alger 1879 , p: 3

4 . بلحاج معروف، العمارة الإسلامية؛ مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية، ط:**1**، دار قرطبة، الجزائر **2007**، ص:**40**.

5 . عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج : **7**، دار العلم للجميع، بيروت، د.ت، ص: **59**

6 . الواصلية: هم أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزّال الألثغ كان تلميذ للحسن البصري . وبالمغرب منهم شرذمة في بلد إدريس بن عبد الحسني الذي خرج في أيام أبي جعفر المنصور ويقال لهم الواصلية واعتزالهم يدور حول أربع قواعد: القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والقول بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين قوله في الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين، ينظر: أبي الفتح محمّد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني: الملل والنحل، تح: أمير علي مهنا، علي حسن فاعود، ط**6**، ج**1**، دار المعرفة، بيروت، **1997**، ص **59-63**.

7 -J. Huguzt ; Le Pays du M'zab, in Bull de la Société de Géographie d'Algérie , Imprimerie Typographique et Lithographique Sélion, Alger 1898 , p: 153.

8 . أبو زكرياء، سير الأيمة الرستميون وأخبارهم، تح: عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر، تونس **1985**، ص: **255**.

9 . أبو عبد الله محمّد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي النفوسي يعتبر أحد أقطاب الإباضيين، والمصلحين الدينيين والاجتماعيين في بلاد المغرب.ولد بفرسطاء في جبل نفوسة سنة **345**هـ/**956** م أخذ مبادئ التعليم في مسقط رأسه ثم ارتحل إلى الحامة وجربة طالبا الإستزادة في العلم على أكابر المشايخ الإباضية وغيرهم منهم أبي زكرياء فصيل بن أبي ميسور وأبي نوح بن زنغيل وانتقل بعد ذلك إلى مدينة القيروان للتبحر في علوم اللّغة العربية، لما اضطلع في العلم توجّه إلى بلدته وشيّد فيها مسجدا لازال يحمل اسمه. كان أبو عبد الله كثير التجوال، إذ كان يتنقل من منطقة إلى أخرى، حتى أنه كان يتردد على منطقة وادي مزاب،ومن أهمّ ما قام به هذا العالم الإباضي تأسيس نظام اجتماعي يسمى نظام العزّابة،وقد توفى سنة **440** هـ / **1048**م. ينظر أبو زكرياء: نفس المصدر السابق، ص : **173-182**. وينظر أيضا الشيخ أبي العباس أحمد الدرجيني: كتاب

طبقات المشايخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي ،ج: 2، مطبعة البعث، قسنطينة، ص: 377-391.
10 . للمزيد من المعلومات حول تأسي المدن المزابية السبع ينطر: بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:53– 64.
11 . ابن منظور، لسان العرب، ج :1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1968 . ص:469-464.
12 . سورة البقرة الآية : 125.
13 . محمد حمزة، المدخل إلى دراسة المصطلحات الفنية للعمارة الإسلامية، القاهرة 1995، ص:37
14 . محمد ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز، دمشق، 1968، ص:106.
15 . السمهودي، الوفاء بما يجب على حضرة المصطفى، ضمن كتاب رسائل في تاريخ المدينة، الرياض 1972، ص:111.
16 . الحمد عبد القادر شيبة، فقه الإسلام شرح بلوغ المرام في جمع أدلة الأحكام للحافظ أبي حجر العسقلاني، ج 3، ط 2، مطابع المدينة، الرياض، د . ت ، ص : 41 .
17 . محمد الكحلاوي، عمائر الموحدين الدينية بالمغرب، رسالة دكتوراه الدولة، كلّية علم الآثار، جامعة القاهرة 1986، ص : 144 .
18 . محمد حمزة إسماعيل، المصلّيات الجنائزية في العمارة المصرية العربية – دراسة أثرية– (تحليلية مقارنة) وثائقية تاريخية، مجلة كلّية الآثار، ع 8، مطبعة جامعة القاهرة 2000، ص:148–149.
19 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:206.
20 . عوض خليفات، نشأة الحركة الإباضية، مطابع دار الشعب، عمان 1982، ص : 108.
21 . أبو العباس الدرجيني، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، تر: إبراهيم طلاي، ج: 1، مطبعة البعث، قسنطينة 1972، ص : 170 .
22 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:209،208.
23 . محمد حمزة إسماعيل الحداد، المصلّيات الجنائزية في العمارة المصرية العربية، ص:141.
24 . خير الدين وائلي، المسجد في الإسلام، أحكامه، آدابه، بدعه، ط: 4، المكتبة الإسلامية، عمان 1998، ص:385
25 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:209.
26 . نفسه، ص : 210.
27 . رياض المرابط، جوامع ومساجد جزيرة جربة في العصرين الحفصي والمرادي – دراسة أثرية وتاريخية- رسالة دكتوراه، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، ص:107.
28 . يوجد هذا المصلى الجنائزي في الجهة الغربية لمدينة بني يزقن على بعد مائة متر تقريبا من الباب الغربي للمدينة، ويكون على يسار المتوجه إلى الأجنّة، وينسب إلى العالم الشيخ باسه أو فضل الذي عاش خلال القرن التّاسع الهجري الرابع عشر ميلادي.
29 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:212.
30 . نفسه، ص:215.
31 . للاستزادة في هذا الموضوع ينظر: حمد جويد، <<ظاهرة هدم الأضرحة والمشاهد .. الجذور التاريخية والمسؤولية القانونية>> http://www.alshirazi.com/world/article/2012/344.htm
32 . البغدادي، كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، إشراف وتقديم عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ط: 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998، ص:106.

دراسة أثرية واجتماعية تحليلية للمجتمع الصحراوي
من خلال القصور الصحراوية - تقرت نموذجا-

أ. بوقزولة عبد المالك (جامعة المسيلة)

Abstract:

The research in the architecture of Sahara is one of the most important topics that can lead us to access and uncovering the different facts concerning the art and the desert architecture. This latter is considered as model that still maintains the architectural characteristics, social relations and cultural heritage.

In this intervention, I'm going to present archeological study of Mestoua ksar in Touggourt in order to show the characteristics and features of the population in desert areas according to many aspects: architecturally, socially and culturally. Focusing on the desert location, then the castle presentation as well as the focus on the structural framework characteristics of the castle, the building materials used in construction down to the analytical study of some properties and characteristics of desert architecture. We have obtained that this architecture collected between many structural building types, such as Islamic religious, civil, and military, it really represents the human challenge in this harsh environment.

We ended the intervention by the most important results obtained to answer the problematic that serves one of the conference axes.

مقدمة:

إن البحث في العمارة الصحراوية من الموضوعات الجديرة بالبحث والهامة التي ينبغي على الباحثين في مجال الآثار أن يقبلوا في دراساتهم وأبحاثهم للوصول والكشف على حقائق متنوعة

تخص الفن والعمارة الصحراوية والتي تعتبر نموذجا لا يزال يحافظ على خصائص عمرانية وعلاقات اجتماعية وموروث ثقافي، ومن هنا وجب علينا طرح الإشكالية التالية:

ما هي أهم خصائص ومميزات المجتمع القصوري في المناطق الصحراوية عمرانيا واجتماعية وثقافيا؟

قبل أن نتناول ونتطرق للموضوع محل الدراسة وجب علينا تحديد بعض المفاهيم والمصطلحات مثل مصطلح الصحراء وكذا مصطلح القصر وهذا لكي نتعرف على خصائص ومميزات كل منهما لإظهار مدى ترابط كل منهما بالآخر أو بمفهوم أكثر دقة كيف تأثر الصحراء في القصر عمرانيا واجتماعيا.

1. مفهوم الصحراء:

كلمة عربية تعني الأرض الجرداء إذ مثلت للعرب الأرض الواسعة المسطحة القاحلة من كل نبات في لون هو مزيج من الرماد والبني، هذا هو المعنى الذي حملته في الآداب الجاهلية وتحمل الصحراء طابع الموت ولونه[1]، كما عرفها ابن منظور في معجمه لسان العرب: بأن الصحراء هي تلك المستوية في لين وغلظ دون القف وقيل إنها الفضاء الواسع الذي لا نبات فيه والصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا أكام ولا جبال ملساء، وجمع صحراء صحراوات وصحاري وهي مؤنث الصفة، ويقال أصحر أي الذي يضرب لونه من الحمرة إلى الغبرة[2]، أما الشريف الإدريسي فقد أطلق لفظ الصحراء سنة 1154م على النطاق الشاسع الواقع بين سلسلة الأطلس الصحراوي شمالا وبلاد الزنج جنوبا وفزان شرقا ومملكة صنهاجة غربا[3]، وتمتد الصحراء حليا عبر البلدان التالية: المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا ومصر والسودان والتشاد ومالي والنيجر وموريتانيا والصحراء الغربية، وهي تشترك في كونها صحراء يصيب الجفاف في أغلب الأحيان، ومن هنا يمكننا القول أن ما يميز المناطق الصحراوية أن الحياة تكون فيها صعبة وهذا لقساوة مناخها مما يجعل العيش فيها أمرا ليس سهلا.

2. مفهوم القصر:

القصر لغة: يعني المنزل وقيل كل بيت من حجر قرشية وسمي قصرا أيضا لأنه تقصر فيه الحرم وتحبس[4] مصداقا لقوله تعالى: ‹›... مقصورات في الخيام››[5] ، وجمع قصر قصورا وهو ما تثبته الآية الكريم في قوله تعالى: ‹›...تتخذون من سهولها قصورا...››[6]، وفي قوله عز وجل: ‹›...

ويجعل لك قصورا...››[7]، ويعرف أنه ما يشيد من المنازل وعلا بمعنى آخر أنه بناية فخمة واسعة ويقصد بمصطلح القصر بأنه مقر الخليفة أو الحاكم وأفراد عائلته، كما استعملت كلمة قصر في بعض المصادر التاريخية للدلالة على التجمعات السكنية الآهلة بالسكان أو هجرت من طرف أصحابها، ويعرفه الأستاذ محمد الطيب عقاب بأنه المكان المأهول على هضبات مرتفعة من سطح الأرض وبه مجموعة من المساكن والمنازل الموحدة الشكل واللون محاطة بسور مزدوج ومرتفع تتخلله أبواب فوق بروج مستديرة على جانبي مدخل القصر[8].

أما في المناطق الصحراوية فيغلب على تسمية مدن الصحراء ومدن الواحات اسم القصر وهو عبارة عن بناء ضخم مخصص له شكل معماري مفيد في هذه المناطق ويكون مرتبط بزراعة النخيل المحيطة به يبنى قرب الوادي، وتعرف المناطق التي يوجد بها عادة بالواحات وهو لفظ شائع عند سكان الصحراء الذين يسمون مدنهم بالقصر، والقصر مدينة محصنة واحاتها غالبا ما تكون محاطة بأسوار ساحاتها تتوفر على مخازن ومتاجر للقبائل الرحل التي تحفظ فيها الحبوب كلما ذهبوا بعيدا بحثا عن الكلأ لقطعانهم ومواشيهم[9]، ويقصد بالقصر كذلك الهيكل العمراني لمجموعة من الناس في موقع وموضع يتوفران على متطلبات تلك الفئة أو مجموعة من الناس تربطهم رابطة الدم والقرابة والعقيدة.

أما تعريف القصر مرفولوجيا فيعرف على أنه كتلة كثيفة متماسكة ومتجانسة تمتد أفقيا ذات علاقة مباشرة بمساحة خضراء مرتبطة بها هي الواحة وهو مرتبط بتوفر الموارد المائية كشرط لاستغلال المجال وإقامة البساتين وتسمى واحات النخيل[10].

3. مدينة تقرت وقصر مستاوة:

تقرت هي مدينة من مدن الواحات الشهيرة تقع بين بسكرة جنوبا من ناحية وادي سوف غربا من ناحية أخرى، نشأت بالمنطقة حركات ثقافية كانت أولا من الداخل لوجود روح إسلامية بين أهاليها ثم تغذت هذه الروح بفضل الصلة الثقافية العميقة الجذور عبر التاريخ بين واحة تقرت ووادي سوف وبين واحات تقرت والجريد التونسي من ناحية أخرى، فكان علماء وادي سوف ونفطة وتوزر يفدون أفرادا وجماعات إلى تقرت وضواحيها وأذكر على سبيل المثال الشيخ مبارك المازقي التوزري الذي كان يقدم كل سنة إلى بلدة تماسين إحدى واحات تقرت وينزل بمحل المرحوم الشيخ الفضل أحمد أبو بكري، وكان هذا الأخير فقيها ومحققا ومحبا للعلم والعلماء وخصص لهم منزلا ينزلون فيه[11].

وتزخر مدينة تقرت برصيد أثري هام في مجال الآثار الصحراوية أهمها قصر مستاوة الذي كانت النواة الأولى لبنائه سنة 790هـ/1372م، وكان يؤلف حكم سلاطين بني جلاب وعاصمة وادي ريغ منذ سنة 853هـ/1431م[12]، وباحتلال فرنسا تقرت العاصمة السياسية لوادي ريغ في 05 ديسمبر 1854، حيث أصبحت المنطقة خاضعة لهم فقاموا بتغييرات في البنية المعمارية بما يتماشى ومتطلباتهم الدفاعية السكنية من جهة وحقدهم على الموروث الحضاري لهذه المناطق فهدمت جزء من قصر مستاوة أهم معلم تاريخي وحضاري لهذه المنطقة وحولت المساجد والبنايات إلى مراكز للمراقبة[13]، أما بعد الاستقلال فقد عرف قصر مستاوة تحولات عديدة ومزيدا من التدهور ورغم ذلك بقيت بعض معالم القصر تشهد على فترة من أزهى الفترات لحكم بني جلاب وسمي بهذا الاسم نسبة لقبيلة مستاوة الزناتية التي كانت تشكل أغلب سكان القصبة في ذلك الوقت، فقد ساعد هذا القصر على استقرار العنصر البشري بالمنطقة وذلك لما يتمتع به القصر من خصائص كونه يوجد في قلب المدينة وعلى منطقة منبسطة فهذا الانبساط أعطى للقصر شكل دائري ونمط عمراني إسلامي وكان يحيط بالقصر خندق يتراوح عمقه من ثلاثة إلى أربعة أمتار وعرضه حوالي عشرة أمتار، أما دخول القصر فكان بواسطة جسور متحركة للوصول إلى مدخلين رئيسيين وهما باب السلام وباب الخضراء مع وجود باب سري يدعى باب الغدر[14].

4. خصائص الإطار البنائي للقصر والمواد المستخدمة:

إن الإطار المبنى للقصر المتراص سيكون من عدة أحياء سكنية مقسمة حسب العائلات الفاطنة داخله وتتكون الأحياء من منازل متشابكة قصد التقليل من التعرض إلى أشعة الشمس تتوفر على شبكة من الطرق المتفرعة وتتدرج في الحجم لتستجيب لمتطلبات التقسيمات الداخلية تبدأ بالشوارع الرئيسية التي تتفرع إلى طرق ثانوية شبه خاصة تسمى زقاق والحي السكني يتكون من تجمعات كالخلايا يعد المسكن خليتها الأساسية المجهز بحيث يوفر حرية وخصوصية الحياة الأسرية يتوفر على مجال مفتوحة يدع الحوش يتوسط المساكن حوله تبنى الوحدات الأخرى تؤدي مختلف الوظائف اليومية ويذكر الأستاذ علي حملاوي في دراسته حول قصور منطقة الأغواط أن القصور تبنى في مناطق تتوفر على قدر كبير من الموارد المائية والنباتية والأراضي الصالحة للزراعة تمكن من توفير العيش لسكانها وهذا ما أكده وصف الرحالة في العديد من المرات وقد كانت القصور في البداية بمثابة أماكن تخزن بها منتجات

القبائل المتاخمة لها فقصر تاجموت كان عبارة عن قاعدة لبعض القبائل البدوية وبه كانت تخزن منتجاتها وبضائعها مثل قبيلة أولاد يعقوب وزغارة والعمور وشعانبة وتمليلي ومع مرور الزمن شهدت إقبالا كبيرا من النازحين علاوة على كونها تعد من المحطات التي كانت تمر بها القوافل التجارية كل هذا أدى بالضرورة إلى انتعاشها واتساع عمرانها إلى أن أصبحت على ما هي عليه الآن[15].

وباعتبار أن أهم ومعظم الأقاليم الصحراوية تقع في بيئة صحراوية نجد أن المباني قد تأثرت بتلك البيئة فبدت بصمات هذه البيئة واضحة عليها وانطلاقا من التنوع البيئي برز التنوع في الطرز المعمارية والمدارس الفنية وظهرت بذلك العمارة الدينية الإسلامية في ثوب جديد ولكنها بقيت وفية لتقاليد معمارية مستوحاة في الدرجة الأولى من الدين نفسه ومن البيئة الصحراوية التي احتضنتها[16].

وكان للإنسان الصحراوي دور كبير في بناء وتشيد هذه العمائر في معظم الحالات يكون هو الذي يبني بنفسه ويحضر مواد البناء لوحده[17].

5. المواد المستخدمة في البناء:

إن المواد المستخدمة في البناء هي المواد المحلية التي فرضت شكل البناء ونمطه وسمحت باستخدام تقنيات تركيب عناصر هندسية.

أ. الرمل:

والذي يحتوي على الطين له خصائص لينة سمحت له أن يكون بلاطا يستخدم للاتساق وهو خليط من الجبس التقليدي له لون رمادي يستخرج من المقطع[18*].

ب. النخيل:

يستخدم كل أجزائها في البناء ويستخدم النخيل بعد موته خاصة الجذوع التي تستعمل كدعامات بعد قطعها طوليا من ثلاثة إلى أربعة أجزاء.

ت. الطوب:

ويتم الحصول عليه بخلط الطين والرمل بالماء وتستخدم منه وتقطع بواسطة اليد وتجفف بعد تعرضها للشمس لاستخدامها في بناء الجدران الداخلية[19]، أما الجدران الخارجية فيتم

بناؤها بالحجارة لصلابتها ومقاومتها لجميع الظروف بالإضافة إلى مواد أخرى يتم استخدامها على حسب احتياجها ووظيفتها[20].

6. الدراسة التحليلية لبعض خصائص ومميزات العمارة الصحراوية:

تتجلى لنا من خلال ملاحظتنا للعمران الصحراوي ومن خلال الزيارات الميدانية والدراسات الأكاديمية جملة من الخصائص والمميزات نذكر منها ما يلي:

- أن العمارة الصحراوية خاصة القصور منها قد جمعت بين أنواع العمارة الإسلامية الدينية والمدنية والعسكرية.
- العمارة الصحراوية تمثل بحق تحدي الإنسان الصحراوي لبيئته القاسية من مناخ وعدم توفر ظروف الحياة الملائمة.
- العمارة الصحراوية قدمت الصورة المثالية في التكافل والتضامن والاحترام والتماسك كما أمر الدين الإسلامي من خلال صورة المجتمع الصحراوي.
- بساطة العمارة الصحراوية بحيث لا نجد تعقيد أو مبالغة لكن نلمس نظرة جمالية فنية من خلال ما أبدعه المعماري الصحراوي وتوظيفه للمواد المتوفرة لديه.
- استغلال المواد المحلية المتوفرة وتسخيرها في إنشاء عمائره ومبانيه وهي في حد ذاته تحدي للإنسان الصحراوي دون اللجوء إلى استيرادها من مناطق أخرى يتطلب شروطا قد لا يستطيع توفيرها.
- المحافظة على حرمة وقداسة القصر بعدم السماح للأجانب بالتجول داخل الشوارع والدروب والأزقة الضيقة المؤدية إلى المساكن والاكتفاء بالتجول في الساحات العامة أين تنعقد الأسواق للمبادلات التجارية فقط.
- الدور الذي لعبته التجارة الداخلية والخارجية في تنشيط الحركة العلمية والثقافية والعمرانية والصحراء كانت كمركز استراتجي هام داخليا وخارجيا.
- شروط بناء القصور الصحراوية هي نفسها شروط بناء المدن الإسلامية كما ذكرها ابن الربيع رغم الاختلاف البسيط في مواد البناء المستعملة، ونوع المناخ السائد بين قاري

وصحراوي ولكن هذا لم يمنع العمارة الصحراوية من النشأة والتطور وتطبيق التأثير المستوحاة من الدين الإسلامي.

- المرجعية الدين لأهل القصر هو شيخ الزاوية وهذا يبين حرص سكان القصر على عدمك مخالفة أوامر الله عز وجل في جميع شؤون حياتهم اليومية.
- يضم القصر بداخله جل المرافق الضرورية التي تتكون منها المدن الإسلامية خاصة المسجد الجامع ومساكن العامة والأسواق والساحة العامة والدكاكين وغيره من المرافق الضرورية للحياة.

خاتمة:

من خلال استعراضنا للموضوع يمكننا القول أن العمارة والعمران الصحراوي من المواضيع التي تمكن الباحثين في مجال الآثار لمعرفة أحوال المجتمع خاصة المجتمع القصوري الذي لا زال يحافظ على الخصائص العمرانية والاجتماعية والثقافية وهي خصائص ومميزات تنسب إلى خصائص ومميزات العمارة الإسلامية، واجتماعيا تبين صورة المجتمع العربي الإسلامي في صورته المثالية في التكافل والتضامن والتعاون والمحبة النابعة من تأثير الدين الإسلامي في كل فرد من أفراد المجتمع القصوري، ولكن ما يواجه هذه القصور من مشاكل متنوعة وعوامل مختلفة إذا ما تمت مواجهتها ووضع آليات للتصدي لها لاندثرت هذه القصور وفقدنا رصيدا تراثيا وحضاريا يشهد على عظمة وبراعة الإنسان الصحراوي في تشييده للعمارة الصحراوية بكل أنواعها وترميم ما أمكن ترميمه بطرق حديثة يبقي على الوجه الحضاري والصورة الحقيقية لهذه العمارة الصحراوية الأصيلة وفي الأخير نتمنى أن نكون قد ساعدنا في إظهار بعض خصائص ومميزات العمارة الصحراوية من خلال المجتمع القصوري من خلال هذه المدخلة المتواضعة ونساهم في تحقيق بعض أهداف هذا الملتقى العلمي.

ملحق الأشكال والصور:

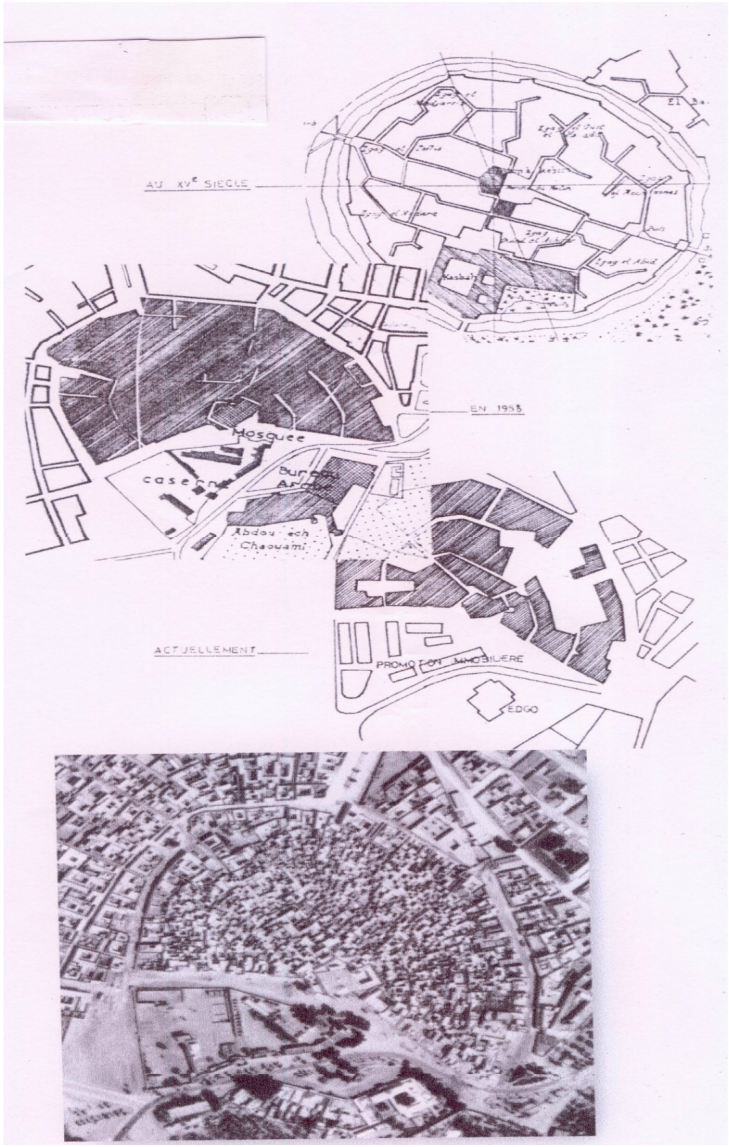

اللوحة رقم 01: مخطط عام وصورة جوية للقصر (عن المهندس دهان عبد العزيز)

الصورة رقم 01: ممارسة الحرف والصناعات بساحة القصر
(عن المهندس دهان عبد العزيز)

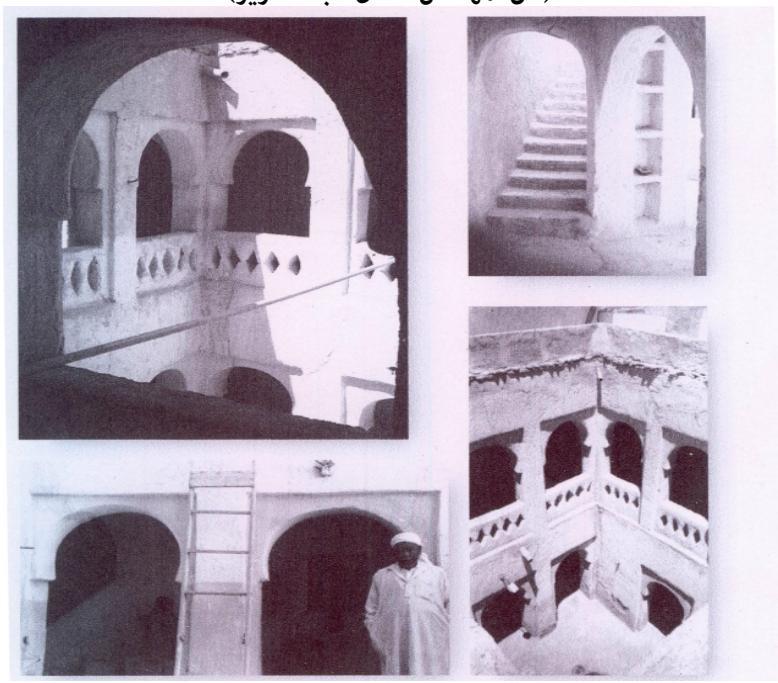

اللوحة رقم 02: بعض العناصر المعمارية بالمسكن التقليدي
(عن المهندس دهان عبد العزيز)

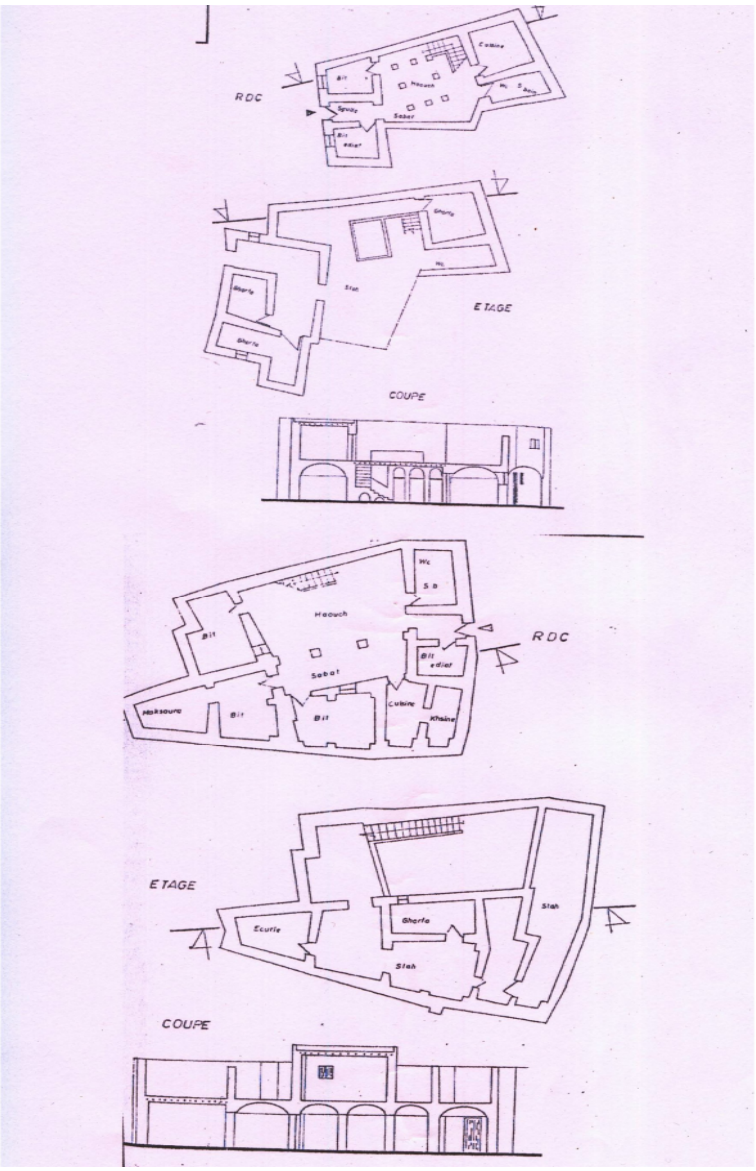

اللوحة رقم 03: مخططات مسكن تقليدي داخل القصر

(عن المهندس دهان عبد العزيز)

هوامش البحث:

1 . غيرستر جورج، الصحراء الكبرى، تر. خيري حماد، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، والنشر، بيروت، **1961**، ص:**09.**

2 . أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، مج. **4**، دار صادر، بيروت، **1997**، ص:**16.**

3 . أبو عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تح. وتق. وتع. إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، **1983**، ص: **87-103.**

4 . بيدي محمد، قصور منطقة عين الصفراء، قصر مغرار الفوقاني نموذجا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر**2**-، **2010-2011**، ص:**03.**

5 . الآية: **72** من سورة: الرحمن.

6 . الآية: **73** من سورة: الأعراف.

7 . الآية: **10** من سورة: الفرقان.

8 . عقاب محمد الطيب، مساكن قصر القنادسة الأثرية، دراسة معمارية أثرية، دار الحكمة، **2007**، ص:**18.**

9 . بيدي محمد، المرجع السابق، ص:**14.**

10 . شويشي زهية، مجتمع القصور، دراسة في الخصائص الاجتماعية والعمرانية والثقافية لقصور منطقة تقرت، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع، فرع علم الاجتماع الحضري، قسم علم الاجتماع والديموغرافيا، جامعة قسنطية، **2005-2006**، ص**163.**

11 . إبراهيم العوامري، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تع. الجيلالي لعوامر، منشورات ثالة، الجزائر، **2007**، ص:**32-33.**

12 . شويشي زهية، المرجع السابق، ص:**164.**

13 . Dehane abd elaziz, guernit salim ; Sauvegarde et réanimation de Mestaoua, Mémoire de fin d'étude en veu de l'obtention du diplôme architecture d'état, Option urbanisme, Institue d'architecture d'urbaime, université de Constantine, Promotion Juin, 1994, p:10 .

14 .Ibid, p:11 .

15 . شويشي زهية، المرجع السابق، ص:**166.**

16 . حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية وأثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، **2006**، ص:**331.**

17 . بلحاج معروف، العمارة الإسلامية مساجد ميزاب ومصلياته الجنائزية، ط. **1**، دار قرطبة، **2007**، ص:**18.**

18. المقطع هو المكان الذي يتم فيه استخراج الحجارة الكلسية لتحرق وتدك وتستعمل في البناء فيما بعد.

19 . علي إبراهيم ليلى، الفن المعماري الجزائري، سلسلة فن وثقافة، **2008**، ص:**07.**

20 . شويشي زهية، المرجع السابق، ص:**167.**

الخصائص المعمارية والفنية للمسكن التقليدي بقصر ورقلة

د. جودي محمد (جامعة تلمسان)

Abstract:

The tabernacle reflect the relationship of the human surroundings in spite of the change of time, place and even conditions, and by virtue of that the Ksours in Sahara has been and continues to be a human vital field and activity to live in a mildly in a harsh environment. Man has sought from the outset to this part of the earth to adapt himself to nature not only by his behaviour but also by his way of building which is certainly the case for population of Ksar Ouargla .So What is the special matter about this Annex and what distinguishes it in terms of planning and construction materials as well as construction techniques?

By this research paper we are going deal with the topic concerning ancient tabernacles in ksar Ouargla trying to show both architectural and artistic characteristics

مقدمة:

يعد قصر ورقلة محطة بارزة في تاريخ الحضارة الإسلامية ليس فقط بالنسبة لبلاد المغرب بل حتى المشرق، فمنذ الوهلة الأولى شكلت ملتقى لطرق التجارة والحج ربطت المشرق بالمغرب وشمال إفريقيا ببلاد السودان، ومقصدا لطالبي العلم والعلماء، خاصة ونحن نعلم أن سالفتها قد سبقتها في ذلك ونقصد بذلك مدينة سدراته، وهو الأمر الذي أتاح لها رقيا فنيا ومعماريا خاصة في أزهى أيام التجارة، ولعل أكثر المنشآت التي حظيت باهتمام سكان القصر المساكن دون إهمال باقي المنشآت بطبيعة الحال، ولنا في وصف العياشي لقصر ورقلة أثناء رحلته للحج الكثير من الصور الواضحة والصريحة عن ذلك.

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية دراسة أهم الخصائص الفنية والمعمارية للمسكن الورقلي للخروج بصورة كاملة وشاملة قد تساعد في البحث والتأصيل لهذه العمارة لمن يود

البحث في العمارة الصحراوية وعمارة قصر ورقلة على وجه الخصوص.

1. الموقع:

تقع مدينة ورقلة فلكيا على خط طول 15¢ 5° شرقا ودائر عرض 58¢ 31° شمالا، وهي بالتالي تقع في حوض ورقلة في الجنوب الشرقي للجزائر وهو جزء من منخفض صحراوي كبير يبلغ طوله 30كلم، وعرضه يتراوح بين 12 و18كلم، وارتفاعه بين 103 و150م فوق مستوى سطح البحر، يمتد بين هضبتين الأولى تحده من الغرب، وارتفاعها 230م والثانية من الشرق بارتفاع يناهز 160م، وهي متصلة برمال العرق الشرقي الكبير[1]، وبالتالي فقصر ورقلة يقع وسط سبخة كبيرة ممتدة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي لتنتهي شرقا عند جبل بوكران وغربا عند جبل ملالة[2]، ويرتفع عن مستوى سطح البحر 130م[3].

يوجد قصر ورقلة على سطح ينحدر من الغرب إلى الشرق مما جعل بعض الوديان تتجه باتجاه هذا الانحدار ومثل ذلك نجد وادي مزاب، وكذا وادي النسا، كما أن الانحدار في نقاط أخرى يتجه من الجنوب إلى الشمال الأمر الذي حدد اتجاه وادي مية، لتلتقي هذه الوديان في مصب سبخة السفيون التي لها مستوى سطح يصل إلى 101م عن سطح البحر، ويعتبر واد مية من الأودية الميتة[4]، حيث غطته كثبان الرمال ولم يبق إلا مجراه، وتبعد هذه السبخة عن مدينة ورقلة بـ 20كلم إلى الشمال.

تعد مدينة ورقلة عاصمة ولاية ورقلة وأهم مدنها، حيث تبعد عن العاصمة بمسافة 800كلم بالجنوب الشرقي[5]، و300كلم عن المنيعة، و200كلم عن غرداية، و1000كلم عن تمنراست، و1500كلم عن تلمسان.

2. لمحة تاريخية:

يعود أقدم تاريخ لوجود الإنسان بالمنطقة من خلال المكتشفات الأثرية إلى أكثر من مائة ألف 100000سنة قبل الميلاد، حيث عثر الأثريون في ثمانينيات القرن العشرين[6] على ذوات الوجهين. Bifaces، والتي ناهز عددها الستة والثمانون قطعة، حيث اكتشفت بالموقع المسمى عرق التوارق حوالي 20كلم جنوب قصر ورقلة، غير بعيد عن قارة كريمة، وهي الفترة المعاصرة للعصر الحجري القديم. Paléolithique، أما في فترة ما بعد العصر الحجري القديم. Epipaléolithique في حدود 6000 سنة و5700 سنة قبل الميلاد، فنجد أن آثار هذه الفترة أكثر

وفرة في حوض ورقلة، وحمراية، وحاسي امخادمة والبكرات وغيرها، زيادة على ملالة وحاسي أمويلح، وكذلك الحال بالنسبة لبقايا العصر الحجري الأخير والمسمى بالنيوليتيك. Néolithique، فهي كثيرة عثر عليها في أكثر من موقع مثل بامنديل، حاسي قنيفيدة بالمكان المسمى "كثبان الرمال"، وفي غيرها من الأماكن، ويرجع تاريخها إلى حوالي 3000 سنة قبل الميلاد[7].

كانت المنطقة في فجر التاريخ تعيش في معزل عن التيارات الحضارية التي سادت في حوض البحر الأبيض المتوسط، لكن في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد ومع وصول الطلائع الأولى للفنيقيين وتأسيس قرطاجة في تونس وظهور مملكة نوميديا، ظهرت حركة تجارية بين هذه الممالك والمناطق الصحراوية، فشهد طريق العبور من الصحراء حتى سواحل المتوسط، نشاطا كبيرا عبر طريق القوافل المار بورقلة.

اقتصر الوجود الروماني على النشاط العسكري المتمثل في إقامة الحصون المشرفة على الطرق الرئيسية بين الصحراء والمناطق الخاضعة لنفوذهم، وإرسال الحملات العسكرية إلى الجنوب عبر الطرق الصحراوية، وفي مجلة Lybica الصادرة عام 1972[8] تذكر أنه وجدت في المنطقة قطع نقدية رومانية كثيرة[9]، وهذا دليل على أن المنطقة عرفت مبادلات تجارية على أيام الرومان.

يجهل تماما ظروف الفتح الإسلامي في منطقة ورقلة، فالغموض يلف هذه الحقبة من تاريخها لانعدام الوثائق المدوّنة، وكل ما توفر من كتب عن ورقلة يعود إلى ما بعد الفتح بقرن من الزمن، وأكثر من ذلك ليس هناك ما يؤكد أو ينفي وصول الفاتحين الأوائل للمنطقة، والغالب أن الأهالي دخلوا الإسلام طواعية، والفضل في ذلك يعود إلى الدعاة والتجار المسلمين أثناء سيرهم إلى بلاد السودان، وهذا ما يفسّر سطحية التأثير العربي في هذه المرحلة السابقة للزحف الهلالي في القرن الخامس الهجري[10]، وما يؤكد هذا الطرح ما ذهب إليه أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري حين يذكر ما نصه:»مدينة قرافون وهي أقرب مدائن الصحراء إلى ورقلان وإلى سجلماسة، وبين هاتين المدينتين يسكن المرابطون وهؤلاء القوم أسلموا حين أسلم أهل وارقلان في مدة هشام بن عبد الملك لكنهم كانوا على مذهب خرجوا به عن الشرع»[11].

تعود نشأة قصر ورقلة إلى الشيخ حادور الذي جاء إلى المنطقة رفقة جماعة من زنجبار وبنوها سنة 108هـ/726م[12]، ولكن هناك رأي آخر يرى أنها من أقدم مدن الصحراء ومن غير الممكن تحديد تاريخ تأسيسها[13]، وهو الحال ذاته بالنسبة لابن خلدون[14] الذي لم يذكر لتأسيسها

تاريخا باستثناء ذكر بني وركلان كمؤسسين وفدوا إلى المنطقة من موطنهم قبلة الزاب وبنوا مجموعة القصور الواقعة هناك.

عرفت ورقلة نشاطا وتألقا خلال هذه الفترة فقد كانت محطا للقوافل التجارية ومواكب الحجاج، ولكن كان ذلك نقمة عليها في ذات الوقت فقد جلب إليها أطماع الطامعين من أمثال المعز أمير القيروان سنة 1034[15]، وبحلول سنة 443هـ/1052م سنة بداية الفوضى التي عمت شمال إفريقيا جراء الزحف الهلالي، استغل القائد الزناتي المستنصر بن خزرون هذه الاضطرابات، فدفع بالسلطان الحمادي الناصر ليتنازل له وينسحب من وادي ريغ والزاب، وقد تعرضت مدينة ورقلة القديمة إلى هجوم المنصور ابن السلطان الحمادي الناصر[16] سنة 468هـ/75-1076م، وصادف هذا الهجوم فتنة وقعت في القصر ما أضعف مقاومة الأهالي وهم منقسمين على أنفسهم، فما خرج المنصور إلا بعد أن خرب القرى وقتل أكثر العباد خاصة الوهابية الإباضية، وقطع النخيل، وغور العيون، وقلب حكم بني توجين، وقد كان الموقع الذي استقرت عليه المدينة الجديدة يقع شمال شرق بقايا المدينة المدمرة وبنيت المدينة بسواعد من بقوا أحياء[17] بعد هذه المجزرة وينظم إليهم آخرون في هجرات متوالية.

يتكلم الإدريسي عن وارقلان خلال القرن 6هـ/12م في فترة حكم الموحدين، فيذكر:»ومن مدينة المسيلة إلى ورقلان 12مرحلة كبار وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم وهم وهبية إباضية نكاره خوارج في دين الإسلام ومن وارقلان إلى غانة 30مرحلة ومن ورقلان إلى كوغة نحو من شهر ونصف ومن وارقلان إلى قفصة 13 مرحلة»[18]، ومن هذا الكلام نستنتج أن هذه البقعة كانت مستقلة عن حكم الموحدين لسببين أولهما الاختلاف المذهبي فالموحدون حملوا الناس على مذهب الظاهرية[19]، وثانيا كون هذه المدينة تضرب نقودها بنفسها وباسم بلادها، لكن هذا لا يعني عدم ولائها لهذه الدولة.

يذكر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري المتوفي في منتصف القرن 6هـ/12م «وآخر عمل القيروان في الجنوب مدينة وارقلان»[20]، مما يعني أن ورقلة كانت تابعة سياسيا لمدينة القيروان حيث هي إحدى أعمالها، كما أنه ذكر أنها تعتبر حدا للجزء السابع أي بلاد السودان وأرض الحبشة والزنج والنوبة، حيث يجلب للصحراء العبيد والخدم، كما يشير إلى العلاقة بينها وبين مدينة كوكو التي هي حاضرة الحبشة[21]، وفي هذا إشارة إلى مدى النشاط الذي عرفته ورقلة.

وبالتالي فإقامة النّازحين من سدراته في مدينة ورڤلة الحالية تعود إلى القرن الثالث عشر عندما أعيد بناؤها من جديد، واندمجوا ضمن النسيج العمراني لقصر ورڤلة، وشيدوا مساكنهم وأقاموا مساجدهم إلى جوار منازل سكان المدينة في أحيائها الثلاثة، وكانت لغتهم الأمازيغية[22]، وخلال هذه الفترة أمر أبو زكريا الحفصي بأن تقام الصلاة باسمه سنة 1236م، وفي ذلك إشارة واضحة لاستقلاله عن الخليفة الموحدي، وسرعان ما أخضع كامل الجزء الشرقي من بلاد المغرب لسلطانه[23]، ويضيف عبد الرحمان بن خلدون :»ولما استبد الأمير أبو زكريا بن أبي حفص بملك افريقية وجال في نواحيها في إتباع بن غانية[24]، ومرّ بهذا المصر فأعجبه وكلف بالزيادة في تمصيره، فاختطّ مسجده العتيق ومئذنته المرتفعة، وكتب عليها اسمه وتاريخ وضعه نقشا في الحجر[25]، وفي مرحلة النفوذ الحفصي شهدت المنطقة سلطة امتدت حتى ورڤلة، تحت إمرة قائد يسمى مزني، حيث واصلت عائلته ردحا من الزمن بعده في حكم البلاد[26]، وكان ذلك خلال القرن 14م كما أن هذه الأسرة من الأثبج[27].

تململت المنطقة خلال هذه المرحلة بين أحضان النفوذ الحمادي، ومنه إلى النفوذ الحفصي لتنتقل إلى حكم المرينيين، وشهدت المنطقة ابتداء من 1285م نشوب صراع مرير بين قبيلتي أغبال وفيلالي، من جهة، وبني جوهر من تقرت وبن بابية من نقوسة من جهة ثانية الذين تمكنوا بعد المقاومة من إقامة خلافتهم في المدينة[28]، ولكن في سنة 1347م يقرر أخيرا يوسف بن مزني البقاء تحت لواء الحفصيين بعد أن أقروا له بسلطته على وادي ريغ وورڤلة[29].

شهدت ورڤلة علاقات تجارية متميزة مع يهود تمنطيط حتى أواخر القرن 15م، وهنا نشير إلى وصف الحسن الوزان للقصر على أيامه خاصة إذا علمنا أنه من مواليد أواخر القرن الخامس عشر ميلادي وتوفي بعد تاريخ 957هـ/1550م، إذ يذكر:»...لها سور من الآجر النيء ودُور جميلة، وحولها نخل كثير. ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى. الصناع فيها كثيرون، وسكانها أغنياء جدا، لأنهم في اتصال مع مملكة أكدز، منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لا سيما من قسنطينة وتونس، يحمّلون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجّار من بلاد السودان...لوركلة أمير يشرّفونه كالملك، يعيل نحو ألف فارس من حرسه، ويجبي إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال، ويؤدّي إلى جيرانه الأعراب خراجاً مرتفعاً»[30]، وعلى ذكر الأعراب نشير إلى ما ورد في كتاب بن خلكان في وفياته إذ يقول:»...قلما ملكت زناتة بلاد المغرب ودخلوا إلى الأمصار والمدن أقام بنو معقل هؤلاء في

القفار، وتفردوا في البيداء فنموا نموا لا كفاء له، وملكوا قصور السوس غربا ثم توات ثم بودة ثم تمنطيت، ثم واركلان ثم تاسبيت ثم تيكرارين شرقا، وكل واحدة من هذه وطن منفردة يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار، وأكثر سكانها من زناتة وبينهم فتن وحروب على رياستها فحازت عرب معقل هذه الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الإتاوات والضرائب وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا...»[31]، من خلال الوصف السابق وهذا الوصف نستنتج أن ورقلة خلال القرن 15م وبداية القرن 16م عرفت رقيا معماريا هاما جعل الوزان ينبهر بمنازلها ليصفها بالجميلة كما أن تقنية بناء السور اعتمدت على استعمال الآجر النيئ، لكن المتغير في محيط هذا الإقليم وجود البدو العرب الذين فرضوا سيطرتهم على كامل الصحراء، وبالتالي فرض الإتاوات على حكام هذه القصور لحماية قوافلهم وتجارتهم من السطو.

عرفت المنطقة سنة 1552م في أيام العثمانيين مرور باشا الجزائر صلاح رايس على رأس 3000 جندي و1000فارس وقطعتي مدفعية[32]، في مهمة بسط نفوذ وتصحيح للأوضاع بعد أن رفضت تقرت دفع الإتاوات، وبعدها خرج صوب ورقلة للقبض على سلطانها وقتله لنفس السبب، ومن هذا التاريخ تغيب المراجع والمصادر التي تذكر ورقلة في حين تدخل المنطقة في فوضى إلى أن حل الطاعون وضرب الزلزال في عهد باشا الجزائر الخذر سنة 1602م، وفي ظل هذه المعطيات وحالة اليأس راسل أهل ورقلة حاكم فاس الذي كان له أربعة أولاد، وكان علاهم الأصغر فأرسله سلطانا لورقلة سنة 1602م، ومن شدة فرحة القوم أهدوه 40عبدا وعدد من النخيل، كما بنو له قصبة خاصة به، وبحلول عهد هذا الحاكم الجديد عرفت ورقلة عهدا جديدا حيث أصبحت حكومة مستقلة[33]، ولكن عاود يوسف باشا في عهده الهجوم على القصر سنة 1640م مرفوقا بسلاح المدفعية فهزمهم وفرض على جماعتهم 25 عبد كل سنة[34].

يعد القرن 11هـ/17م الفترة التي حل فيها الرحالة العياشي بقصر ورقلة على أيام السلطان علاهم بتاريخ 4جانفي1663م، وقد ذكر وصفا دقيقا[35] تتضح من خلاله الكثير من التفصيل لهذا العهد أهمها أن المدينة كانت تشغل مساحة معتبرة أهلتها لأن يطلق عليها اسم المدينة بدل القصر خاصة وأن العياشي يعرف كلمة قصر، والأمر الثاني كثرة الأبواب التي هي في الواقع تعكس عدد المسالك المتصلة بها، كما أن هناك مؤشرات عن الوضع الأمني للقصر الذي هو في حالة من الفوضى الداخلية وأخرى خارج حدود القصر، وأسفرت عن وجود سور حصين ومعزز بخندق مائي، كما أن الفضاء المخصص للزوار من حجاج وتجار بعيد عن المجال السكني، وليس

لهم الحق في دخول القصر سوى أوقات الصلاة وبرفقة أشخاص من القصر، حيث كان هو في رفقة الإمام، لكن هناك وضع ينم عن ركود ثقافي وعلمي كبير جدا لدرجة استهلاك خطب تعود إلى أيام الموحدين، كما دلت على ذلك تلك المخطوطات المنقوصة، بل حتى ما يوجد في خزانة الأمير لم يرقى إلى درجة الإعجاب لدى العياشي بقدر ما أعجب بشخصية الأمير.

3. التخطيط العام للمسكن:

تتلاصق مساكن القصر فيما بينها محيطة بمئذنة الجامع، وفي ذلك تأمين لحمايتها والدفاع عنها، ولا نكاد نميز بداية المسكن وأين ينتهي، وقل ما نجد في بعض الأماكن من القصر بين مسكن وآخر خرق فاصل[36]، والمسكن الورقلي عموما ذو تخطيط مستطيل وهو أكثر عمقا مقارنة بعرضه[37]، فيما هناك من يحدد معدل مقاسات المسكن في القصر تتراوح (15x20)متر مربع[38]، كما أن هناك مساكن غير منتظمة التخطيط وهذا حتى تستغل الأرضية المتاحة، فقد نصادف فجأة زوايا غير متوقعة[39]، وفي أحيان أخرى نجد للمسكن غرفة على السقيفة[40] أي فوق المسلك نافذا كان أو غير نافذ، ويسمى المسكن التقليدي بورڤلة تَادَّارْتْ، كما يعتبر المسكن انعكاسا للقصر أو صورة له فالغرف تحيط بالفناء المركزي (وسط الدار) الذي هو قلب المسكن مثلما تحيط المساكن بساحة السوق قلب ورڤلة.

تتألف أغلب هذه المساكن من طابق أول وسطح، وأصغرها مساحة نتيجة للتقسيم والإرث قد تصل ستة أمتار طولا وأربعة أمتار عرضا[41]، وما يميز مساكن قصر ورڤلة أنها سميكة ومقاومة للحرارة صيفا وللبرودة شتاء ومخففة للصوت والصدمات، ولكن هناك من يرى أنها ليست كذلك فالبناية لم تتأقلم مع البيئة سواء الشمس أو البرد، ففي الصيف تصبح كقدر فوق الموقد، وفي الشتاء تبرد مثل المياه المتحجرة تحت الظل، ولكن يمكن القول أن هذا المسكن قد ضبط وفق مزاج الورڤلي الخاص ومن ثم لستر المرأة[42]، والملاحظ في المسكن الورڤلي أن الحركة تكون أفقية أي في الطابق الأرضي ثم في الطابق الأول والسطح، وحركة عمودية عن طريق السلالم التي تسمح بالانتقال من طابق لآخر، كما أن المجالات التي لها علاقة مع الخارج تكون مجتمعة في الجهة التي لها علاقة مع الخارج كالرحى، ومربط الدابة، أما المجالات التي لها حرمة فهي بعيدة عن المجالات الخارجية كغرف النوم[43] وغيرها من الفضاءات الخاصة، ويحدث أن نجد المساكن المتجاورة للأقارب تتصل فيما بينها من خلال باب غير مرئي داخل المسكن أو في السطح حيث ننتقل من مسكن إلى آخر[44]، كما أن الضيوف من النساء والرجال قد خصوا بغرف

للاستقبال مفصولة عن بعضها البعض، فغرفة استقبال الرجال تتقدم عادة السقيفة مباشرة أو فوق الزقاق وحينها تسمى «لَعْلَي» لها مدخل مباشر على الدرج[45] الذي يتم الصعود إليها من خلاله.

4. الواجهات:

اتسمت مساكن القصر بارتفاع جدار واجهتها[46] لأنها في الغالب تتألف من طابق أول وسطح، وتلبس أسطح جدران الواجهة بطبقة من الجبس المحلي وفي بعض الأحيان تنتفخ أجزاء من هذا التلبيس وتسقط، حيث نلاحظ كتل الحجارة واللبن الترابي المجفف، كما أن هناك عدد قليل من هذه المساكن تطلى واجهته بالجير، حيث تطلى به أطر الأبواب فقط، وباستثناء الباب الرئيسي لا توجد فتحات على الواجهة باستثناء بعض النوافذ الصغيرة جدا على مستوى الطوابق[47]، فهي ذات واجهة صماء من جهة الشارع فيما عدا المدخل[48] الرئيسي وهي في ذلك التزمت بالتقليد الذي ميز المساكن في العالم الإسلامي، حيث انصرف التركيز على الداخل وترك المسكن بسيطا من الخارج.

4-1. المدخل:

يسمى باللهجة المحلية أَتَافْ نَتْدَّارْتْ، للمسكن التقليدي بالمنطقة مدخل رئيسي واحد، وبدل أن يكون في على محور المسكن نجده يتخذ موقعه في الركن[49]، إلا أن ذلك لا يعني غياب مداخل ثانوية قد تصل إلى ثلاثة مداخل، حيث يمكن أن نجد اثنين منها تطل على الشارع الرئيسي وهما خاصان بالضيوف، فيما الثالث خاص بدخول الحيوانات.

توجود أنواعا عديدة للمداخل، فهناك أبواب معقودة وأخرى غير معقودة، ويعلو هذه المداخل رموز بداعي الوقاية والحماية ودفع الضرر، ومن بين هذه الرموز نجد اليد المطبوعة في الجبس، أو الرمز المركب من النجمة والهلال، أو خاتم سليمان، أو حتى بعض الرموز التي لا نجدها سوى في ورقلة[50]، وفي أحيان أخرى يعلو المدخل صفيحة حديدية على شكل حدوة فرس، ولهذه الظاهرة في المجتمع الجزائري مدلولا شعبيا وهو إبعاد العين، وهذا بالإضافة إلى وجود بعض الأشكال الأخرى وضعت على المداخل كالمثلث والكؤوس والصحون، ولها أيضا مدلولها في المجتمع الجزائري، وهناك بعض المداخل التي يعلوها قرنان لثور أو غزال وهذا بدافع إبعاد العين والحسد[51].

سجل أندري فيلار.André Vellar في تقرير له عن زيارته لورقلة في جوان 1900م في وصفه لزخارف الأبواب والمساكن ما نصه"وسط الدائرة منقوش طبق أو صحن، هذه الأدوات توضح وجود نوع جديد من الحياة المنزلية داخل البيت"، لكن بالنسبة لأهالي القصر فإنهم لا يعرفون معناها على وجه التدقيق، ويرون أنها ربما تمثل حرف "لا"، كما توجد أيضا كتابات عربية كآيات قرآنية، اسم صاحب البيت، تاريخ البناء أو الترميم، وهذه الرموز منجزة بالجبس وبدل نقشها فإنها بارزة[52].

تكميلا لهذه الملاحظات سجل أنطوان جياكوبيتي.Antoine Giacobetti في نص مخطوط غير منشور، يوم 02أكتوبر1900 ما يأتي: "خصوصية المنازل الوارجلانية تتمثل في الواجهة الرئيسية التي تزينها رسومات بارزة فوق الأبواب إلى جانب كتابات عربية وتاريخ البناء، وتتضمن الرسومات أشكالا من الخطوط المتداخلة وشكلا آخر قائم ومنحني مكون من زاوية تعلوها دائرة، ووسط هذه الدائرة قام السكان بإضافة طبق صغير أو كأس أو صحن أو غيرها، وفي بعض الأحيان نجد العديد منها فوق نفس الباب"[53]، ومن بين العبارات التي كتبت لدينا «لا إله إلاّ الله»، «نصر من الله»، كما يمكن أن تزين برسوم مزيَّنة ببيض النعام[54].

2-4. الباب:

يسمى باب المدخل الرئيسي محليا تَاوَرْتْ ويفتح على مصراع واحد، وهو من الخشب[55]، حيث يكون عريض مقارنة بغيره من الأبواب، وقد يسمى محليا أيضا «إِيمِي نَحْطُوبَاتْ» بعرض يصل 1م إلى 2م يسمح بمرور بغل[56]، وقد كان يصنع من خشب النخلة المثبت بمسامير من الرمان أو الورد أو التوت أو المسامير الثلاثية الشكل والمصنوع محليا بحيث يسهل فتح الباب من الخارج ومن الداخل أيضا، ولا تغلق أبواب المنازل الكبيرة[57]، كما أنّ الباب يزود بنظام غلق يعتمد على سدادة خشبية تسمى محليا «أَنَّاسْ»، وهذا النوع من الأقفال يضم ثلاثة أجزاء هامة، حيث هناك المفتاح وهو من الخشب الصلب، سطحاه السفلي والعلوي مسويين، وقد ثبت على أحد هذين السطحين ألسنة أو مسامير مصنوعة من الحديد أو الخشب الصلب، ولها ارتفاع يعادل سمك قدم المزلاج، بحيث تدخل فيه دون أن تتجاوزه، فوضعية هذه المسامير وعددها ما يشكل شفرة هذا القفل.

وفي الأزمنة المتأخرة عوض بنوع جديد من الأقفال المعدنية لها مفاتيح تتميز بالكبر[58]، وقد يحكم غلق الباب عند الضرورة بالخشبة أو عمود من خشب الرمان أو قضيب حديدي يطلق

عليه اسم «غَانْجُو»[59]، كما يزود الباب بحلقة معدنية ضخمة مزخرفة تستخدم لسحب وطرق الباب من الخارج[60].

3-4. العتبة:

تسمى العتبة محليا تُوشُونْتْ – تِيشَنْتْ، حيث تبنى بكتلة من الحجر تثبت باستعمال التمشنت[61]، وتعتبر حاجز في طريق الرمال والحشرات السامة والرياح الباردة في الشتاء وربما لها معنى رمزي[62]، ومن بين العادات التي ترتبط بالعتبة، ونذكر على سبيل الذكر لا الحصر تلك الوليمة التي تتبع الانتهاء من بناء المسكن وتوزيعها على عتبة المسكن وتسمى في ورقلة «أَمِرْكِيدُو»، وهي مرجع أساسي في إثبات المداخل، وعند المرور بأزقة القصر نلاحظ أن أغلب المساكن قد ارتفع مستوى شوارعها عن هذه العتبات مما جعل الكثير منها غير بارزة.

4-4. الفتحات:

تخلو الواجهة من الفتحات بخارج المسكن باستثناء فتحة المدخل، وفي بعض الأحيان فتحة بالغرفة المخصصة للضيوف من الرجال " العلي" تطل على الشارع مباشرة[63] لغرض التهوية والإضاءة، إلى جانب بعض الفتحات الصغيرة في أعلى الطوابق[64]، الغرض منها مراقبة من في الخارج دون أن يلاحظ ذلك من بالخارج، وهي ذات أشكال متنوعة منها المستطيلة بشكل عمودي والمربعة وغير المنتظمة وفي بعض الأحيان مثلثة.

5-4. الميزاب:

زودت أغلب المساكن بميازيب مصنوعة من الفخار أو الخشب أو مبنية أحيانا أخرى، وهناك من البيوت من لها ميزاب واحد[65]، وهذا بالنظر لأهميتها فهي وسيلة أثبتت نجاعتها في صرف مياه الأمطار من على سطوح المساكن، وتوجيهها بشكل لا يضر بأي أحد سواء كان من المارة أو الجيران، ولم تهمل كتب الفقه ذلك حيث تفصل في الموضوع بشكل دقيق، وهنا لنا في كتاب الشيخ أحمد الفرسطائي[66] عدة مساءل وصور لهذا العنصر تعبر عن أهميته.

5. الطابق الأرضي:

يسمى أَدَايْ ويتألف من مخزن المؤن والمطبخ وبيت الحطب وغرفة العبد والكنيف ومربط الدابة وغرفة أو غرفتين ومساحة للتجمع عند مدخل المسكن مخصصة للنساء والثانية وسط الدار[67]، ولهذا الأخير فتحة مركزية للإضاءة والتهوية مزودة في بعض الأحيان بشباك معدني

ليسهل تغطيتها في أيام الشتاء، وكذلك خلال هبوب الزوابع الرملية، ويعتبر معدل لحرارة المسكن ومصرف لبخار المطبخ في ظل غياب مدخنة مخصصة لهذا الغرض.

1-5. السقيفة:

يطلق عليها باللهجة المحلية تَاسْكِيفَتْ أو تَاسْقِيفَتْ، وهي عبارة عن رواق يمتد بموازاة الشارع إلى غاية الفناء المركزي[68]، وهو على نمط المدخل المنكسر حيث لا تجد دارا يفتح بابها على بهو أو غرفة، وفي ذلك غاية دينية وأخرى دفاعية[69]، فالسقيفة تعد المجال الفاصل بين الداخل والخارج، فموقعها بزاوية المسكن سمح لها أن تحجب رؤية ما في داخله عن أعين المارة، كما توفر مكانا للانتظار لمن يطلب الإذن بالدخول، حتى يستعد من بالداخل من النساء المحارم، بالإضافة لما تلعبه من دور في التهوية العامة للدار طوال اليوم[70].

دائما ما نجد أمام المدخل مباشرة جدارا حاجزا يمنع عيون المتطفلين من رؤية من بداخل المسكن[71]، حيث يكون للباب المفتوح في العادة جدار يدعِّمه من الخلف ووسط الجدار كوة قدر ما يصلح لإدخال اليد من خلفه لدفعه قبل غلقه مراعاة للسترة[72]، ويسمى هذا الجدار باللهجة المحلية عْمُودْ، وهو حائط غير متكامل قصد التهوية والسترة معا، يفصل بين المدخل ومكان تجمع النساء[73]، ويطلق عليها أيضا اسم أمواد وعادة ما كان يحتوي على فتحة حتى تتمكن المرأة من معرفة الشخص الداخل ومراقبة الأولاد، ومنه أيضا يدخل الهواء والضوء للسقيفة[74]، وهو مزود بدكة مبنية بالحجارة أو ركن خاص برحى الحبوب تسمى تاسيرت وكذا المنسج، ويزود الرواق في آخره بخلوة تسمى «وضاية ن تسقيفت»، أو رواق خلفي معزول في بعض الأحيان يفصل باستعمال حائط تستغل في إخفاء الأدوات المنزلية وكذا الفلاحة، وفي أحيان أخرى كإسطبل في حال عدم وجود فضاء مخصص لهذا الغرض[75]، كما يمكن أن نجد في هذا المستوى غرفة الحطب والتي تكون عند مدخل المسكن أسفل درج الطابق الأول[76]، وعادة ما كان للمسكن في قصر ورڤلة سقيفتين[77].

2-5. وسط الدار:

يسمى باللهجة المحلية أَمَسْدَّارْ – أَمْسَنْتَدَّارْ – أَمَاسْ نَتَدَّارْتْ، ندخل من السقيفة إلى الصحن الذي هو عبارة عن فضاء مركزي محاط بأروقة، حيث يعتبر قلب المسكن، وفي ما مضى كانت أرضية الصحن تغطى بالرمل، والآن تغطى بالتراب المرصوص، وفي الغالب نجد شجرة تين أو نخلة تعلو السطح[78]، وهذا الفضاء شبه مغطى مخصص لجلوس الرجال أو النساء، وبهذا النمط

استفاد السكان من تهوية الشارع ووسط الدار صيفا ومن حرارة المطبخ شتاء[79].

كما أن فتحة السطح لا تشغل دوما المركز، خاصة في حال عدم انتظام مخطط المسكن[80]، وإذا كان المسكن مؤلفا من طابق تكون فتحة الفناء منقوصة، حيث تكون واسعة في المساكن القديمة بين 6 إلى7م^2، وفي الأحياء ذات الكثافة السكانية لا تتجاوز 1م^2 مما يسمح بتغطيتها بحصير من القصب، وتحتل الأروقة جناحين إلى أربعة أجنحة في الفناء ولكن ليست لها نفس الوظيفة، فالقسم المغطى من حيث ندخل عبر السقيفة تاهزة لها وظيفة خاصة فهي مكان العمل الرئيسي للنساء أما الرواق المقابل لمدخل السقيفة يسمى سْلاَّمْ[81]، ويوجد بوسط الدار بئران، واحدة لصرف المياه المستعملة، أما الثانية فيه للإمداد بالمياه الصالحة للشرب، ولكن هذه الأخيرة اندثرت[82]، ولعل ما ساعد في اندثار هذه الآبار مشكلة صعود المياه وهشاشة البنية الأرضية بالمنطقة.

توجد بالمنزل في هذا المستوى دعامات أساسية في وسطه قد تصل إلى أربعة دعامات، وعليها يرتكز أغلب السقوف، وما وجدوها على هذا النحو إلاّ ليتمكن خشب النخل الذي يسقف به مقاومة الأثقال فوقه[83]، كما أن فتحة سقف وسط الدار تغطى بالجريد أو القصب أوحصير مصنوع من الحلفاء أو قش الجريد منعا لشمس الصيف وريح الشتاء[84].

3-5. غرف الطابق الأرضي:

يطلق عليها باللهجة المحلية تَزَقَّة وجمعها تِزَقَّوِينْ والغرفة المخصصة لنوم الزوجين تسمى أُكُومَارْ، ويظل التوزيع العام للغرف قل أو زاد عددها دوما محيطا من الجوانب بالصحن أي وسط الدار[85]، وهي تتسم بمخططها الطولي بالنظر لما فرضته العوارض الخشبية ذات المقاومة والمقاس المحدود.

أ. غرفة استقبال الرجال:

تتخذ بعض الأسر غرفا لاستقبال الضيوف من الرجال في الطابق الأرضي مباشرة عند المدخل وفي هذه الحالة تسمى باللهجة المحلية حُجْرَةْ، وتكون بعيدة عن الوسط المخصص لأهل الدار، ويمكن اعتبارها مسكن منعزل من البناية ككل[86]، وهناك بعض المساكن تتخذ غرفا للضيافة لاستقبال الضيوف من الرجال بالطابق الأول كما سنرى.

ب. غرفة استقبال النساء:

عموما للمسكن في الطابق الأرضي مجلسان، الأول خلف الباب مباشرة يستعمل لمغزل

النسيج، واستقبال الداخلات من الشارع من طرف صاحبة البيت دون التوغل إلى الداخل إلاّ عند الضرورة، أما المجلس الثاني فهو سلام[87] وسنأتي للحديث عنه فيما بعد، ويعتبر هذا المجلس أي «تاهزة» قسم مغطى من حيث ندخل عبر السقيفة، فهو فضاء خاص للعمل الرئيسي للنساء، كما أنه فراغ مغطى عادة بالأقواس، نصل من خلاله إلى سلام[88]، أما بالنسبة لأرضيته فهي أقل ارتفاعا من سلام وعلى نفس المستوى مع الصحن[89].

ت. باقي الغرف:

تسمى الغرف باللهجة المحلية تِزَقَوِينْ ونذكر منها غرفة النوم وهي المقابلة لوسط الدار وشكلها مستطيل، بابها من مادة الخشب وهي عبارة مصراع واحد، وتحتوي الغرفة على كوة نصف دائرية الشكل مسقفة بقبة واحدة نصف برميلية، وهذه الغرفة مخصصة لرب البيت، وهي موجودة على يسار الداخل لسلام[90]، وتوجد داخلها غرفة صغيرة على يمين المدخل، ويتم الدخول إليها عبر مدخل معقود بعقد نصف دائري متجاوز، وتخصص لتخزين الأشياء الثمينة للمسكن، وتكون هذه الغرفة مخصصة لكبير أهل المسكن في فصل الشتاء، أما في أيام الحر فينام خارج هذه الغرفة.

تقع غرفة نوم الأطفال بمحاذاة غرفة نوم صاحب البيت، وهي على شكل الحرف اللاتيني L وتكون مسقفة بقبة، أما القسم الذي يليه فبأقبية نصف برميلية[91]، ولكن ما لاحظناه غياب التغطية بالقباب في المساكن التقليدية، وبالتالي فهو أمر نادر الحدوث.

4-5. سلام (السباط):

يسمى الرواق الواقع في الجهة المقابلة لمدخل السقيفة -والذي يسميه البعض سباطا* وفي مناطق أخرى من الصحراء- باللهجة المحلية سلام، حيث يرتفع عن مستوى أرضية وسط الدار بمقدار درجة، وهو فضاء مخصص لوظائف أكثر نبلا ويضم في الغالب الغرف والمخزن، ويفرش السلام بزربية حيث تستقبل الضيفات[93]، فهو فراغ عائلي مغطى بسقف مؤلف من جذوع النخيل التي تترك فيما بينها أقبية نصف برميلية وينفتح على وسط الدار ببائكة، وبه كوة نافذة في الجهة الشرقية مخصصة للإضاءة[94]، يستخدم هذا الفضاء لجلسات الشاي وفي أيام الأعراس يعتبر مكان وقوف العريس[95]، وهو نقطة وصل بين السقيفة ووسط الدّار ومكان يأتي من حيث الأهمية بعد سلام مباشرة بالنظر للمهام المنوطة به والتي سبق الإشارة إليها.

5-5. المطبخ:

يطلق عليه باللهجة المحلية إِنَايَنْ نجد في الجهة المقابلة للعمود الأول عمود ثان يفصل بين المطبخ وبقية الفضاءات وفيه فتحة للمخاطبة، بحيث أن هذا المطبخ يقع في طرف شبه غرفة مقسمة إلى ثلاث مساحات، حيث الطرف الأول منها عرضه 1.2م للباب، أما الطرف الثاني لتجمع النساء والخدمات "تهزة"، أما الطرف الأخير فللمطبخ كما سبق وذكرنا[96]، وهو فضاء مقدس وهو على درجة كبيرة من البساطة بحيث يفصل عن الفضاءات السابقة بواسطة حائط صغير بارتفاع 1.50م، وهذا المطبخ ما هو إلا فتحة وثلاث حجارة توضع عليها القدر، وإذا ما هبت الريح قليلا فإن دخان المطبخ الذي ليس له مدخنة لا يمكنه الصعود عبر فتحة السطح بل يفرض عليه الخروج عبر مدخل المسكن[97].

6-5. الكنيف (المرحاض):

للمسكن مرحاضان أو ثلاثة، وكلها متصلة بالسفلي الرئيسي الذي يصل عرضه إلى 1.5م أما الطول فيصل حدود 3م، فلا وجود لمسكن بمرحاض واحد، ويتكون المرحاض من حوضين أحدهما صغير والآخر كبير، ويجلب إليه الرمل أسبوعيا لامتصاص الرطوبة والروائح، وفي بعض الأحيان نجد فتحة نجدة مموهة في الحوض الثاني متصلا مع كنيف الجار المجاور من الخلف قصد الفرار عند الشعور بالخطر[98]، وهو يلي تهزة ويسمى باللهجة المحلية قُومَة، وهو مؤلف من جذعي نخيل فوق حفرة أَكَازُو والذي يفرغ دوريا، حيث الفضلات تستعمل كسماد فلاحي، وهناك حائط يفصل هذه الحفرة عن الإسطبل[99].

7-5. مربط الدّابة:

أَمْدَاوْتْ وهو الإسطبل وكما قلنا يلي الكنيف حيث يمكن أن يربط فيه الحصان ولكن قلّ ما نجد هذا العنصر في بيوت القصر في وقتنا الحالي وهذا في ظل الاستغناء عن الحيوانات واستبدالها بوسائل متطورة كالسيارة والدرّاجة.

6. الطابق الأول:

يسمى أَنْجْ وله مدخل خاص، وهو مدخل الضيف الذي يطل على الشارع الرئيسي أو يتصل مباشرة بالمدخل الرئيسي من خلال درج صاعد إلى لعلي في حال وجوده بهذا الطابق، وإذا كان المسكن ليس له لعلي نجد درج مخصص لهذا الغرض في إحدى زوايا وسط الدّار، وفي بعض

الأحيان نجد درجان واحدا عند المدخل والآخر في وسط الدّار.

1-6. غرف الطابق الأول:

نجد بالطابق الأول غرفتان، الأولى مستطيلة الشكل بابها جاء مقابلا للسلم، إذ يبلغ عرضها 1.10م وارتفاعه 2م وهو من الخشب، وتوجد بالغرفة نافذة تطل على الشارع، وقد تخصص هذه الغرفة لنوم الزوجين وحينها تسمى أُكُومَار، أمّا الغرفة الثانية فهي مخصصة لاستقبال الضيف وتحاذيها غرفة أقل مساحة منها تحتوي على نافذة على يسار المدخل، وهذه الغرفة مخصصة لنوم الضيوف[100] من الرجال، وهي التي تسمى لعلي الذي ستأتي الإشارة إليه.

2-6. غرفة استقبال الرجال:

يسمى لَعْلَيْ، فعندما يكون أهل المسكن أكثر غنى تخصص غرف عديدة للاستقبال في السطح، حيث يصعد إليها من خلال سلالم خارجية تؤدي مباشرة إلى الطريق، أو بواسطة درج داخلي يكون في إحدى زوايا وسط الدار[101]، ولكن في هذه الحالة يكون الدرج لصاحب المسكن على وجه الخصوص.

3-6. الشبّاك:

يطلق عليها اسم إمَزْرَاقَنْ أو تسمى أيضا تِيرَدْوِينْ حيث يفتح بمركز سقف الصحن فتحة مربعة، وتكون مقاساتها في العادة 3م وهذا بسب طول العوارض الخشبية المصنوعة من جذع النخيل الذي لا يزيد عن 3.5م وهذا لتجنب انحنائها، كما أن هذا الشباك لا يشغل بالضرورة دوما المركز[102]، ومرد ذلك إلى كون شكل مخطط المسكن غير منتظم، ولتفادي سقوط الأطفال من هذه الفتحة يبنى ما يشبه الحاجز أو يبنى جدار تحويط صغير[103] لمنع حدوث ذلك.

4-6. الفضاء المكشوف:

يسمى محليا تِيغَرْغَرْتْ وهو القسم المكشوف من الطابق الأول وهو بسيط لا يوجد به أي مرافق باستثناء فتحة وسط الدّار التي يمكن أن تحاط بصف من اللبن أو جدار مرتفع قليلا لتفادي سقوط الأطفال أو دخول المياه في حال هطول الأمطار من خلاله إلى وسط الدّار، وفي فصل الصيف يخصص للسمر والنوم.

أخذ السقف أهمية كبيرة كونه المستقبل للريح وضوء الشمس، لذا نجد أن الجيران يتوجب عليهم تأخير جدرانهم المطلّة على الطابق الأوّل -خاصة الفناء- مقدار ارتفاعها حتى يسقط

ظلُّها على سقوف بيوتهم[104].

ونشير هنا إلى غياب المساحة الانتقالية بين الغرف والفضاء المكشوف الموجودة بمساكن وادي مزاب والمسماة إيكومار أي الرواق المحمول على صف الأعمدة والدعامات، وبالتالي فالغرف مفتوحة مباشرة على الفضاء المكشوف، ورغم ذلك فهذه التسمية موجودة بقصر ورقلة ولكن يقصد بها غرفة نوم الوالدين.

5-6. غرفة الخزين:

يسمونها تَزَقَّة حيث تحفظ المؤن ويوجد بها بَادُو أو بَاجُو وهي أحواض مبنية خاصة لحفظ التمور، حيث يمكن أن نجده أيضا في مستوى الطابق الأرضي بجوار غرفة نوم الأطفال، حيث تكون مغطاة بأقبية نصف برميلية[105]، كما توضع بها حجارة الملح المقتلعة من الشط، ويثبت على جدرانها أوتاد خشبية لتعليق اللحم المقدد[106]، وعلى كل فهذه غرفة المؤن لعام كامل.

6-6. المطبخ:

استحدثت بهذا الطابق فضاء استعمل كمطبخ والذي يسمى إِنَايَنْ، وهو بالغرفة ركن مكشوف به موقد ومجهز بكوات لوضع هذه الأغراض، ويستخدم المطبخ في هذا المستوى أيام الصيف حيث ينتقل النشاط إلى السطح.

7-6. المطهرة والمرحاض:

الأولى تسمى إِلَمْسِي وهي خلوة مستوية لتخزين الماء وللوضوء[107]، أما المرحاض كما سبق أن أشرنا يسمى قُومَة، حيث نجد أحد المرحاضين في هذا المستوى من الطابق وعلى نفس مسقط مرحاض الطابق الأرضي، حتى يسهل تجميع الفضلات.

7. السطح:

يسمى محليا أَنَزْ أو أَنَجْ (أَنْدجْ) ويتميز بانخفاضه الملحوظ كما يحيط به سياج جداري على ارتفاع بين 1م وَ1.5م وهو مفتوح في وسطه بفتحة مربعة ذات قياس 3م لكل ضلع، تضيء وتهوي صحن الدار، وتقضي النساء يومهن به، فيثبت المنسج عليه في فصل الشتاء، ويستخدم في فصل الصيف لنوم كل أفراد العائلة به[108]،كما يخصص أيضا لنشر التمور والحبوب لتجفيفها.

8. الدهليز:

وهي سراديب أسفل المساكن نتجت عن استغلال السكان تلك الغرف السليمة والتي لم تتعرض للهدم من قبل الأعداء وأصبحت ملجأ سريا ومخزنا تحت المساكن المعاد بناؤها، وهذا ما يفسر كثرة المغارات والسراديب داخل القصر[109]، ويكون الدهليز مرتفعا عن مستوى الشارع دوما لتجنب تسرب المياه السائلة في الشوارع[110]، ولعل ما ساعد في اعتماد السكان على هذا الفضاء المعماري طبيعة الأرضية التي بني عليها القصر فهي سهلة للحفر إلى مستويات تسمح ببنائه بشكل بسيط وبدون تكلفة باهضة.

9. مواد البناء:

لقد كانت المساكن بقصر ورڤلة على درجة كبيرة من البساطة وهي في العموم مبنية بالطوب وبحجارة المقالع[111] أو حتى الحجارة المستعملة في البنايات القديمة، والجبس للتلبيس وجذوع النخيل[112]، إلى جانب الصلصال بالنسبة للجدران[113]، وقد فرضت البنية الطينية والجبسية لأرضية المنطقة تفضيل استعمال مواد كالطوب والتمشنت[114]، ولأن هذه المواد كانت على درجة كبيرة من البساطة بل والحساسية المفرطة لعوامل التلف فقد انعكس ذلك بشكل كبير على حالة حفظ القصر عموما، ويرتبط ذلك ببعض العوامل منها ضعف البناية في حد ذاتها والحاجة إلى صيانة متواصلة، والفياضانات المتزايدة التي تعد السبب في إحداث كوارث، إلى جانب مشكل صعود المياه الجوفية.La remontée de la nappe phréatique، وقد شكلت المساكن المنهارة داخل القصور مصدرا مهما للمواد المستعملة في البناء[115]، حيث تسترجع الأخشاب الصالحة وكذا الحجارة والمادة الترابية وغيرها من المواد.

1-9. الحجارة:

تسمى محليا أَدْغَاغْ يستخرج البعض الحجارة من المقالع حيث يقوم المراهقون بنبش سطح الأرض قليلا في أكثر من مكان أين تختفي تلك الحجارة التي هي عبارة عن حجارة كلسية بيضاء يسهل صقلها، ومن ثمة تحمل على ظهور الحمير، فيما تحمل النساء الحجارة على رؤوسهن في خط طويل، وتسمى هذه الحجارة باللهجة المحلية "الصم" وهي حجارة قاسية جلبها فيضان الأودية القديمة وشكلتها[116]، ويتم جمع الحجارة بسهولة مقارنة باستخراجها من الأرض بمساعدة أمطار الربيع، ولاستخراجها من التربة تحفر حفرة في الأرض بعمق 2.5م ليصبح لدينا مقطع نستخرج منه الحجارة على شكل كتل صغيرة، وبعد ثلاثة إلى أربعة أشهر من التجفيف يصبح لدينا مادة بناء مهمة[117] وجاهزة.

2-9. التيمشنت:

تعد مادة رابطة بامتياز على الرغم من محدودية انتشارها، وهي نوع من أنواع الجبس المستخدم في منطقة مزاب، ومتليلي وورقلة، حيث تستخرج على شكل حجارة كلسية رمادية، حمراء، وفي الغالب شديدة البياض، حيث في العادة يتم العثور عليها على عمق يصل إلى 0.30م عمقا أسفل طبقة كلسية كربونية أو سيليسية يسهل التعرف عليها، هذه الحجارة الهجينة مختلطة بجبس ليفي أحمر أو أبيض يسمى كَدَّانْ[118]، وتستدعي عملية تحضيره وقتا طويلا، كما تسمى التيمشمت أو التيمشنت أو حتى التيبشمت، حيث تُحرق هذه الحجارة داخل حفرة في فرن بدائي، وتتطلب عملية حرقه 3 إلى 4ساعات[119] وقد تصل إلى 5 ساعات، إذا فالتيمشمت مادة رابطة مستحسنة كما يستخدم كطلاء خارجي للجدران الداخلية، وهنا نذكر الزخرفة الجصية في سدراته والتي نفذت بالتيمشمت[120].

يتوفر هذا النوع من الجبس في كل مكان ويعجن باليد باستعمال بعض الماء بقدر الحاجة، ليصبح ملاطا جاهزا للاستعمال، حيث يشكل على هيئة كرات ويستلمها البناء دون الحاجة إلى نصب صقالة أو قالب، حيث يلصق جيدا وبقوة في مسام الحجر ويجف بسرعة، ويمكن صقلها في حال بناء العقود، أو السطح، أو مقاعد أو رفوف[121]، وهو أسرع جفافا من الجبس، كما يتميز بعازليته الحرارية الجيدة في المناطق الحارة، كما أن مقاومته ضعيفة للضغط والشد وكذا حساسيته للرطوبة مما يملي حماية للجدران من جريان السيول[122].

3-9. الجير:

الجير الدسم هو الآخر صنع واستخدم منذ القدم، ونحصل عليه انطلاقا من الحجر الكلسي النقي حيث يحرق في درجة حرارة تزيد عن °1000م[123]، وهذا ما يصعب تحقيقه بسرعة في مثل هذه الأفران التقليدية، لذا نجدها تشتعل عدة أيام لتحقق نفس الغرض، وعملية حرق الحجر الكلسي تتم من خلال حرق أغصان الرتم، حيث 100كلغ من هذه الأغصان تنتج حوالي 100كلغ جير، وهناك نباتات أخرى تفي بهذا الغرض[124]، وتتم عملية الحرق في أفران خاصة، ومن المعلوم أن عملية حرقه تتم بنفس طريقة حرق التيمشمت والفرق في كون هذا الأخير تتطلب عملية حرقه من 5 إلى 6 أضعاف ما تتطلبه عملية حرق التيمشمت من حطب[125]، وبعد أن يتم حرق الحجر الكلسي $CaCO_3$ نحصل على الكلس الحي (أكسيد الكالسيوم) CaO، ويترك ليبرد قبل أن يتم إخراجه من الفرن، ويطفأ بعدها بالماء لينتج الجير المطفئ

(هيدرو أكسيد الكالسيوم) Ca(OH)2، حيث يحتاج الجير الحي لإطفائه حوالي 32% من وزنه ماء وتقل هذه الكمية كلما زادت الشوائب[126]، ويجب حفظ الجير الحي في أماكن جيدة بعيدا عن الرطوبة والهواء كي لا يتفاعل.

وعن تحضير الملاط الجيري رأينا أن الحجر الكلسي CaCO3 بعد حرقه.Calcination ينتج لدينا ما يعرف بالجير الحي CaO حيث لا يمكن استعماله مباشرة في عملية البناء لأن ملامسته للماء ينتج عنها بعد تفاعل حراري شديد.Réaction exothermique وانتفاخ على مستوى البناية، لذا يتوجب إطفاؤه بوضعه في الماء لنحصل على كلس مطفأ Ca(OH)2 أو كما يسمى هيدروكسيد الكالسيوم، وهي بودرة بيضاء قليلة الذوبان في الماء.

يجب ترك هذا المحلول (الرائق) حتى يتوقف الغليان الناتج عن التفاعل مما يوحي بإطفائه بشكل كامل، بعدها يتم عزل الشوائب من المحلول بغربلتها، ثم نتحول إلى إعداد الملاط الجيري. Mortier de chaux من خلال اختيار رمل مناسب خالي من الصلصال وبحجم مناسب، ثم نسكب عليه كمية من المحلول السابق –أي الجير المطفأ- ونقوم بالخلط الجيد في نفس الوقت للحصول على ملاط متجانس.

تترك العجينة تتخمر بعد الانتهاء من خلطها لوقت كاف قد يصل حدود السبعة أيام، وبعد التأكد من تخمر العجينة نحضر كمية أخرى من المحلول الجيري السابق الذكر بنفس الطريقة، ونقوم بإضافة كميات مناسبة منه إلى العجينة المتخمرة مع التأكيد على الخلط الجيد لنحصل في الأخير على ملاط الجير القابل للاستعمال في مختلف عمليات البناء المذكورة.

نشير إلى أن ملاط الجير بعد استعماله كرابط . Liant أو كتلبيس. Revêtement يتحول بالتدريج إلى التصلب. Carbonations إلى أن يصبح طبقة تزداد صلابتها مع الوقت، حيث يتفاعل الجير المطفأ وأكسيد الكربون الموجود في الجو، لنحصل من جديد على كربونات الكالسيوم أين ينتهي الحال بهذا الملاط إلى طبقة صلبة لها نفس خصائص الحجارة الكلسية.

4-9. الرمل:

يسمى إجَدِي يخلط الرمل مع الطين لصنع الطوب، كما يستخدم رمل الكثبان في تغطية أرضية وسط الدار[127]، ويستخدم أيضا كطبقة عازلة في عملية تسقيف المسكن، ويشترط في الرمل الذي يدخل في تكوين الملاط أن لا يكون صلصالي، ويجلب من الأودية، وهذا لأنه يدخل

في تركيب بعض الملاطات التي قد تتأثر بوجود المواد الطينية وتظهر عليها عيوب فيما بعد.

5-9. الطوب:

التراب يعتبر مادة بناء ألفية كما أنه الأكثر شيوعا في العالم بالنظر إلى خاصيته الحرارية، وانتشاره الواسع، وكذا انخفاض تكلفته، فصناعته بالطرق التقليدية على شكل لبن ترابي تعادل 30 مرة مقارنة بالحجارة[128]، كما أنه استخدم بعدة تقنيات كالتراب المدكوكPisé. أو الطوب Adobe. أو الهيكل الخشبيTorchis.، وفي المساكن استخدم مخلوط بمواد أخرى سواء نباتية أو معدنية، والطوب هو لبن مشكل من الطين والرمل يجفف تحت الشمس ويكون مخلوطا بالتبن أو قش الجريد، ورغم ما به من محاسن كمقاومة الضغوط والعزل الحراري، والاقتصاد إلاّ أنه حساس جدا للرطوبة والحت، وبالتالي فإن طبقة من الطلاء الواقي ذو النوعية الجيدة يمكن الجدران المبنية بالطوب من تحدي الزمن[129]، وقد استخدم تقليديا بمقاسات (40x20x15)، ويبلل خليط الرمل والطين بالماء ثم يقولب ويجفف تحت الشمس، وفي حال كان الطين بنسب زائدة يحدث ذلك شقوق على مستوى كتل الطوب، ولتحقيق ثبات جيد لهذا اللبن يضاف للخليط ما نسبته 5 إلى 10% من الجير[130]، وتوضع طبقة من الرمال الجافة، الرماد، أو القش على مساحة مستوية لضمان عدم التصاق الطوب بالأرض فهذا الأمر ينجر عنه فقدان جزء من اللبن أو اكتساب جزء إضافي من الأرض وفي كلا الحالتين يكون لدينا جهد إضافي لتنظيف الطوب[131]، كما يستوجب عند تحضير التربة القيام بعملية الفرز من خلال نزع الحصى الكبيرة، ثم الغربلة لنزع الجزيئات الأصغر.

6-9. الخشب:

يعد النخيل النبات الذي عرفت به الصحراء مثلما عرفت بالجمل بالنسبة للحيوانات، ويمكن أن نسميها "أم الوراقلة"[132] حيث استخدمت هذه الشجرة منذ القدم في أغراض عدة، وفي في مجال البناء كما في مجال الغذاء كون التمر يعتبر ثمرة قابلة للخزن لمدة طويلة، هذا دون أن ننسى قدسية هذه الشجرة لدى المسلمين، فقد ارتبطت بميلاد سيدنا عيسى وكان رطبها غذاء لسيدتنا مريم عليهم السلام، لذا لم يكن من المعقول بل ومن المحظور استغلال هذه الشجرة قبل موتها.

يطلق محليا على جذوع النخيل أَكَرْكُوشْ وإذا علمنا أن خشب النخيل له طول محدود فهمنا سر تقارب الجدران من بعضها، وسبب الدعامات الأساسية وسط المسكن[133]، تقطع جذوع

النخيل إلى قطع بطول 3.5م فقط بالنسبة لهذا النوع من الخشب وهذا لتجنب انحنائها[134]، تشق بعد ذلك إلى أربعة أجزاء بقطر يتراوح بين 0.10م إلى 0.15م[135] ;باتجاه الطول ثم تسوى بسهولة إلى قضبان أقل طولا، فيما تستعمل أوراق الجريد في وضع السقف[136]، ولصنع الباب تجمع أربع عوارض خشبية من دون مسامير ولكن بواسطة قطعتين صلبتين من الجريد تربط بها جيدا هذه الألواح فيما تكون العارضة الأولى بارزة في الطرف الأعلى والأسفل من أجل تثبيتها في خشبة الساكف من جهة الأعلى، وتثبت في الأسفل داخل حجر محفور ومثبت بالعتبة كي يسمح بدوران الباب، ومن الخارج هناك عارضة خشبية في وسط الباب تشد العوارض ويكون سطحها مزين بزخارف.

أما الجريد فيسمى باللهجة المحلية تُوفَه حيث تستعمل في عملية التسقيف فوق العوارض الخشبية، كما تستخدم عروقها المنزوعة الأوراق في بناء الأقواس أو حتى في التسقيف، وهذا بعد تجفيفه تحت أشعة الشمس، إلا أن اللين منه يمكن استعماله مباشرة في بناء الأقواس، والسبب في استعماله لينا بدل اليابس المجفف هو أن الأول يمكن ليه بسهولة دون أن ينكسر على عكس اليابس، أما اليابس فيوضع عند التسقيف بشكل عمودي على العوارض الخشبية بحيث تضم إلى بعضها جيدا دون ترك فراغ لنضع بعدها الجريد كي لتفادي تسرب الملاط.

هناك أيضا الكرناف والذي يطلق عليه اسم تَكَرْكُوشْتْ وهي الجزء الواصل بين الجريد والنخلة، حيث تتميز بشكلها المثلث ومقاسات تتراوح بين 20سم إلى 25سم ومقاومتها الجيدة بالنظر إلى بنيتها الليفية أصلا، ويستخدم هذا العنصر في التسقيف بعد أن تجف، حيث توضع فوق العوارض الخشبية بشكل تتقابل فيه المثلثات، أين يكون كل صف منها على شكل أسنان منشار يتداخل مع صف آخر يقابله، وهو الأمر الذي يضفي لمسة فنية وجمالية على السقف، ويمكن أن تستعمل بعض أنواع الخشب الأخرى المتوفرة بالغابة ولكن على نطاق ضيق مثلما هو الحال مع خشب الرمان.

10. تقنيات البناء:

تبنى مساكن القصر بالعمل التطوعي أو ما يعرف بـ تْوِيزَة*، أو بفضل بنائين مأجورين، ولا يمكن طلب التويزة أكثر من مرة أو مرتين في الشهر، وهذا لحاجة البنائين للنقود، وفي حال القيام بالتويزة يتوجب على البناء أن يسبق الآخرين بيومين أو ثلاثة أيام من قبل، وعند البدء في العمل يكون البناء مرفوقا بمساعديه ويبدأ العمل بيديه ومطرقته والخيط وكل أدواته،

فيمده أحد الأشخاص بالجبس، وآخر يجلب الماء، وآخر ينقل الحجارة، وآخر يجعل الجبس على شكل كرات كبيرة، والأخير يخلط الجبس، لذا ولخلط الملاط تجعل حفرة في الأرض ونخلط الماء والجبس الجاف فيها، وحينما يصبح مبلل يدفع مساعد البناء الملاط لمن يشكله كرات[138].

10-1. الأساسات:

من عادة السكان بناء أساسات مساكنهم على عمق 0.3م إلى 0.4م من سطح الأرض كون الأرضية هشة بفعل الردم، وكلما تعمقت تزيد هشاشة[139]، ويعد الأساس مكان لوضع حجر الأساس حيث تربط كرات التمشنت كتل الحجارة، وفي عادة أهل ورقلة أن يذبحوا عنزة ويريقوا دمها في الأساس وهو نوع من الحماية في معتقدهم، فيما يقسم لحمها وفق قواعد[140]، فيما يعطى البناء رأس الذبيحة وأرجلها ويأكل عمال التويزة من لحمها عند الغداء، وعند الانتهاء من بناء المسكن تعد النساء كسكسا خاصا يوزع على عتبة المسكن وتسمى عملية هذه الإكرامية أَمِرْكِيدُو[141].

يكتسي الأساس أهمية بالغة في العمارة عموما وفي الفقه على وجه الخصوص، فأما الأول فمعلوم أن أي بناء يحتاج إلى أساس يستقر عليه ويشده، أما بخصوص الشق الفقهي فتتضح هذه الأهمية بكون هذا العنصر يعد بمثابة المرجع الذي يعود إليه الناس في عدة حالات مثل الاشتراك في الحائط بين الجيران، وبعد انهدامه ويزول أثره فكيف يتصرفون وهنا يفصل الشيخ أحمد الفرسطائي[142] في القضية بالتدقيق.

10-2. الجدار:

اعتمد المسكن في قصر أو غيره من القصور الصحراوية في هيكله على الجدران الحاملة[143]، ويسمى الجدار باللهجة المحلية مْورُو، ويتم بناء جدار المسكن بحجارة كبيرة لتعاكسها حجارة متوسطة الحجم، أي حجرة كبيرة تقابلها حجرتان متوسطتان، ويسد الفراغ بينها بالكامل على شكل قالب بالطين وتغوري حتى لا يسكنها الحشرات الضارة، أما سمك جدار الطابق الأول فيتراوح بين 0.40م إلى 0.30م، يليه جدار الطابق الأول الذي يتراوح سمكه بين 0.35م إلى 0.25م ثم جدار السطح الذي يتراوح سمكه بين 0.20م إلى 0.15م.[144]، كما تزود في بعض الأحيان واجهات هذه الجدران الداخلية بكوات نافذة وأخرى غير نافذة وبأشكال مختلفة منها ما هو معقود.

يمكن أن نلاحظ على هذه الجدران المبنية بالتراب المدكوك أو بالحجارة والجبس بعض الكتابات والرسوم وقولبة بارزة تعلو الباب، وكلها مواضيع على صلة بنظيرتها النوميدية لشمال مقاطعة قسنطينة، وهي على صلة بعقائد تلك الشعوب البونيقية الأولى، وتحت وقع العادة توارثتها الأجيال عن بعضها البعض[145]، ومن بين العادات التي ميزت أهل القصر أنهم عند بناء جدار الشارع يضعون خرقة سوداء، أو قدر مكسور أو رسم خط أسود على العتبة لدفع عيون الحساد.

10-3. العقود:

تسمى قْوَاسْ وهي مشتقة من العربية، حيث تستخدم على مستوى المدخل الرئيسي وكذلك لحمل سقف وسط الدار الواسعة على وجه الخصوص[146]، ولبنائها يجب تقويس عروق الجريد المنزوعة الأوراق بين كتفين، وبالتالي فإن هذا السعف سيعوض المسامير والدعامات[147]، ومن بين العقود المستعملة في المسكن بالمنطقة العقد النصف الدائري المتجاوز[148]، ولكن ينتج عن ذلك نوع من الأقواس غير المنتظم لعدم التحكم في شكل هذا النوع من القوالب كما ينتج عن ذلك زوايا غير منتظمة.

10-4. التسقيف:

غطيت المساكن بالأسطح الأفقية كونها التقنية الأكثر بساطة والأنسب، يتراوح سمك السقف ما بين 0.5م إلى 0.7م حتى لا يتسرب المطر إلى الداخل والذي كان يهطل خلال أسبوعين كاملين أو ثلاثة، وتكون ركائزه من الخشب (نصف خشبة) على أشكال مختلفة وعليه الجريد المنزوع سعفه، وليف النخلة ثم التراب المبلل الممزوج بالطين أو طبقة من فضلات الماعز أو الحمير وعليها طبقة خفيفة من تراب التافزة والجبس[149]، وفي بعض الأحيان تغطى السقف بعد وضع عوارض الخشب تليها شبكة من عروق الجريد المنزوع سعفه، ثم تغطى بطبقة من التراب والتيمشنت المكدسة والمدكوكة بحيث تكون متينة جدا بشكل يسمح بالمشي فوقها أو حتى النوم عليها صيفا[150]، ولأن التمشنت تبقى نافذة ومنتفخة وتتشقق في وجد الماء يجب إعادة تلبيس السطح دوريا قبل سقوط الأمطار رغم ندرتها[151] الأمر الذي يكفل عدم تسرب المياه إلى طبقات السقف وبالتالي عدم تضررها، وأحسن طريقة لحماية السطح ذلك الميلان المعتبر الذي أعطي له[152] لتفادي تجمع المياه وبالتالي تفادي نفاذها إلى الطبقات الأخرى.

5-10. الأقبية:

تسمى باللهجة المحلية تِيكَرْبَاشْ ومفردها تَكَرْبُوشْتْ وقد وظفت في تغطية بعض الفضاءات بالمسكن الورڤلي مثل سْلاَّمْ، وغرفة رب الأسرة المجاورة لها وكذلك في تغطية غرفة المؤن، وهي عبارة عن أقبية نصف برميلية[153]، حيث يكون السقف مرتكز على جذوع النخيل مشكلا فيما بينها الأقبية، وتبنى بواسطة قناطر مصنوعة من الطين (الطوب)[154]، وأكثر ما نجدها في الغرف الواسعة كونها الأنسب للتغطية.

6-10. السلالم (الدرج):

يطلق عليه أهل تِيشُونَانْ أو تِيسُونَانْ وبنيت للمساكن سلالم تؤدي إلى الطابق الأول ولسطوحها كما هو الحال في بقية القصور، وأكثر ما يميز هذه السلالم أنها موجودة في إحدى زوايا وسط الدار، أو أمام المدخل الرئيسي مباشرة في حال وجود لعلي في الطابق الأول، ومن بين أهم الأشياء التي تميزت بها أيضا أنها لا تسند إلى جدار الجار، "فيمنع من أراد أن يتّخذ في ذلك الدرج، إلاّ إن لم تلتصق تلك الدرج بذلك الحائط (المشترك بين الجارين) وقد ترك بينهما المقدار الذي يجب أن يترك بين حائطه وحائط جاره ولكن يمنعه صاحبه أن يشرف عليه بتلك الدرج إلى جاره»[155]، لذا فالدرج أخذ حيزا من اهتمام الفقهاء كونه نقطة خلاف بين أكثر الجيران.

استخدم في بناء السلالم في مساكن قصر ورڤلة الحجارة والتمشمت وخشب النخيل كدعائم وفي حالات أخرى تدعم بأقواس، وفي حالات أخرى بنيت على أكوام من الحجارة المكدسة فوق بعضها بين جدارين حتى أعلى مستوى، وقد تراوحت أشكالها بين المستقيم والمنكسر والمنتظم، وهذه الأشكال فرضها توزيع فضاءات المسكن، وإلى جانب هذه السلالم هناك سلم خاص بالسطح، وفي حالات نادرة نجد سلم خاص بالدهليز في عدد من المساكن التي بها هذا المرفق، وقد يحدث أن يكون هناك بالموازاة مع السلم الخاص بالضيوف من الرجال الواقع أمام المدخل مباشرة سلم آخر خاص بأهل المسكن يصعد إلى الطابق الأول.

7-10. التلبيس والطلاء:

بنيت المساكن في قصر ورڤلة كما رأينا بالتراب والحجر الجبسي ولبست أيضا بطبقة طينية[156] فيتم تغطية الجدران في بعض الأحيان بطلاء ذو قاعدة طينية باستخدام اليد، الأمر الذي يجعل الأصابع تترك آثارا على الملاط ما يضفي على سطح واجهة المسكن جمالا، أو يمكن أن يملس هذا التلبيس مما يجعل سطح واجهة المسكن غاية في الاستواء[157]، وهذا اعتمادا على ملاط الجير أو

طبقة طينية مدعمة بالجير المطفأ كونه رابط جيد يقوي من تماسك الطين وفي أحيان أخرى تضاف للعجينة بقايا نباتية.

خاتمة: جاءت المساكن في قصر ورقلة غاية في البساطة خالية من أي تكلف لا تكاد تفرق بين بيت الفقير منها أو الغني، أو حتى بداية أحدها ومن يليه، كما نفذت بمواد وتقنيات محلية بشكل تجاوب إلى حد كبير مع مناخ المنطقة وعاداته، كما يتضح بشكل جلي ذلك التشابه بينه وبين مساكن بعض القصور خاصة وادي مزاب، ولكن نجد بعض الخصوصية في هذه المساكن كما الحال مع فضاء استقبال النساء (سلام) وغرفة العبد وغرفة الزوحين (الإيكومار)، ولكن في الأخير يمكن الكشف عن حقيقة خضوع هذا المرفق الهام لتوجيهات دينية وأعراف توارثتها الأجيال أبا عن جد.

محق الأشكال والصور:

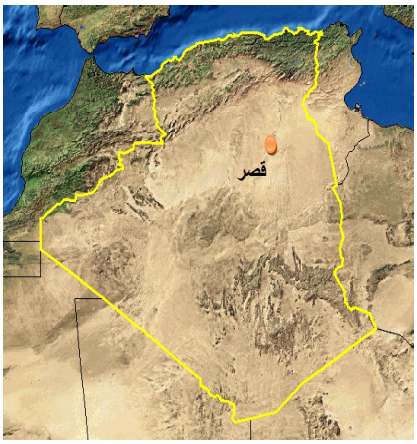

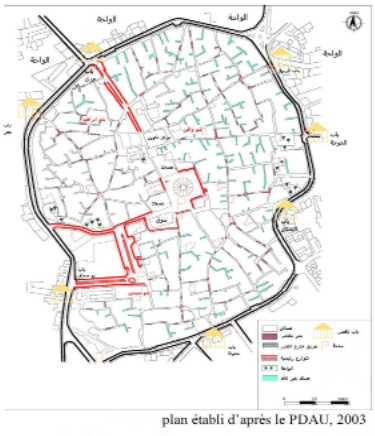

الصورة رقم 01 والشكل رقم 01: موقع قصر ورقلة ومخطط القصر عن:
Google earth و (PDAU Ouargla, 2003)

الصورة رقم 02 و 03: واجهة مسكن تقليدي والمدخل الرئيسي

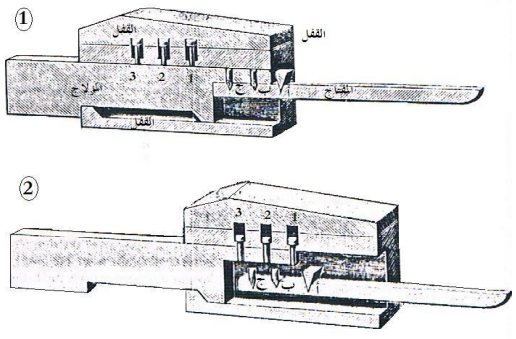

الشكل رقم 02: عناصر القفل التقليدي عن: (Poyet) بالتصرف

الصور رقم 04 ، 05: المزاريب والزخارف أعلى المدخل الرئيسي (05) عن: (جمعية القصر للثقافة والإصلاح بورقلة)

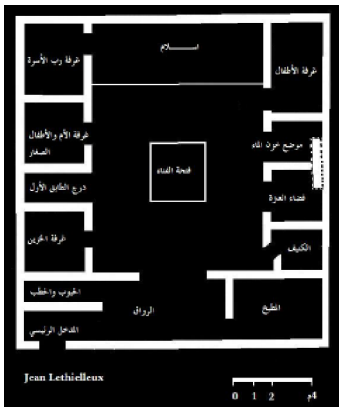

الشكل رقم 03: مخطط لمسكن تقليدي عن: (Lethielleux)

الصور رقم 06 ، 07 ، 08: وسط الدار يليه السلام، فتحة شباك وسط الدار، تقنية التسقيف

هوامش البحث:

1 . عبد الله بن جيلاني السائح، صفحات من تاريخ ورقلة: منذ أقدم العصور حتى الاحتلال الفرنسي، بمساهمة ولاية ورقلة تحت إشراف مديرية الثقافة، دار هومه، بوزريعة، الجزائر، 2010، ص:22.

2 . تلمساني بن يوسف، دراسة وصفية اجتماعية لواحة ورقلة من خلال تقرير فرنسي، ملتقى حول التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية مقاومة الشريف بوشوشة، في إطار الذكرى السابعة والثلاثون للانتفاضة التاريخية بورقلة، فيفري 1999، مديرية الثقافة لولاية ورقلة، 1999، ص:107.

3 . عاشور شرفي، القاموس الموسوعي: معلمة الجزائر، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009، ص:1460.

4 . Coudreau ; Le pays d'Ouargla et le peuple de l'Afrique, Hartman, Paris, 1881. p: 2.

5 . مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج. 2، (طبع في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية)، دار الحكمة، الجزائر، ص:1460.

6 . عبد الله بن جيلاني السائح، المرجع السابق، ص:26.

7 . دنيس بيلي، تاريخ ورڤلة: دراسة حول تسلسل الأحداث التاريخية، تر: علي يدر، ط. 2، دفاتر ورقلة ر. 2، جمعية القصر للثقافة والاصلاح والمركز الثقافي للوثائق الصحراوية، 2010، ص:2.

للمزيد ينظر: Lybica ; Tome22, pp: 97-115 et Tome20, pp: 205-235.

8 . عبد الله بن جيلاني السائح، المرجع السابق، ص:34.

للمزيد ينظر: Lybica ; Tome20, pp: 236-237.

9 . دنيس بيلي، المرجع السابق، ص:3.

10 . عبد الله بن جيلاني السائح، المرجع السابق، ص:39.

11 . أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، تح. محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ص:119.

12 . Jean Lethielleux ; Ouargla cité saharienne: des origines au début du XXé Siècle, Documents d'Histoire Maghrébine-Vol. IV, Collection dirigée par Chantal de la Véronne, Librairie Orientaliste Paul Geunthner,Paris, 1983. p: 20.

13 . Ibid. p: 35.

14 . ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج.7، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1981، ص:107.

15 . مختار حساني، المرجع السابق، ص:1461.

16 . Ernest MERCIER; Histoire de l'Afrique septentrionale: (Bérberie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française, Tome 2, ERNEST LEROUX éditeur, Paris, 1868, p: 36.

17 . Charles FERAUD. « Ben-Djellab : Sultan de Tougourt », Revue Africaine, Vol 30, A. Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1886. p: 371.

18 . الشريف الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج. 1، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، القاهرة ، ص:296.

19 . محمد المنوني، حضارة الموحدين، ط. 1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1989، ص:13.

20 . أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري، المصدر السابق، ص:119.

21 . نفسه، ص:123.

22 . عبد الله بن جيلاني السائح، المرجع السابق، ص:77-76.

23 . محمد الهادي الشريف، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس، تر. محمد الشاوش، محمد عجينة، ط. 3، دار سراس للنشر، تونس، 1993، ص:53.

24 . نفسه، ص:52.

25 . عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص:70.

26 . Charles FERAUD. Op. Cit. Vol. 23, 1879, p: 162.

27 . إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص:143.

28 . مختار حساني، المرجع السابق، ص:1462.

29 . Charles FERAUD. Op. Cit. pp: 372-373.

30 . الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، تر. محمد حجي، محمد الأخضر، ج. 2، ط. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ص:137-136.

31 . ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تح. إحسان عباس، ج. 1، دار الثقافة، بيروت، 1968، ص:287.

32 . C. Trumelet ; Les Français dans le désert, Journal d'une expédition aus limites du Sahara, GARNIER frère, libraires-éditeurs, Paris, 1863, p: 26.

33 . Charles FERAUD. Op. Cit. pp: 373-374.

34 . C. Trumelet ; Op. Cit. p: 26.

35 . أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1663-1661م، تح. سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي، مج. 1، ط. 1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2006، ص:118،114.

36 . DELHEURE J. ; Vivre et mourir a Ouargla « Tameddurt t-tmenttant Wargren »,Etudes ethno-linguistique Maghreb-Sahara, Université de Provence 7, SELAF, Paris, 1988, pp: 25, 89.

37 . Chaouche-Bencherif Meriama ; La Micro-urbanisation et la ville-oasien ; une alternative à l'équilibre des zones arides pour une ville durable cas du Bas-Sahara, Mémoire de doctorat en Sciences, Département d'Architecture et d'Urbanisme, Université Mentouri, Constantine, Algérie, 2005-2006, p : 347.

38 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 92.

39 . Ibid, p: 92.

40 . أبي العباس أحمد الفرسطائيي، القسمة وأصول الأراضين، تح. محمد صالح ناصر، بكير بن محمد الشيخ بلحاج، ط2، المطبعة العربية، غرداية، 1997، ص:203.

41 . عبد الرحمن حاجي، ورقلة تاريخ وحضارة، ج 2، ص:245.

42 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 41.

43 . عبد الكريم عزوق، "دراسة نموذجية لبعض المباني بقصر ورقلة"، آثار: مجلة علمية تعنى بالآثار والتراث، ع. 6، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007، ص:115.

44 . DELHEURE J. ; Op. Cit. pp: 39-41.

45 . صالح يوسف بن قربة، مظاهر العمران الإسلامي من خلال كتاب القسمة وأصول الأرضين لأبي العباس أحمد بن محمد الفرسطائي «عمران قصور وادي ريغ وميزاب نموذجا»، أبحاث ودراسات في تاريخ وآثار المغرب الإسلامي

وحضارته، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2011، ص:475.
46 . عمر لقمان بن حمو سليمان بوعصبانة، معالم الحضارة الإسلامية بورجلان 909م/1229م، بمساهمة ولاية ورقلة تحت إشراف مديرية الثقافة، دار غرناطة للنشر والتوزيع، باب الوادي، الجزائر، 2010، ص:75.
47 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 25
48 . Chaouche-Bencherif Meriama; Op. Cit. p: 347.
49 . C. Trumelet ; Op. Cit. p: 258.
50 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 25
51 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:114.
52 . جمعية القصر للثقافة والإصلاح وآخرون، ورقلة واحة عبر التاريخ، 200 صورة من المحفوظات، ورقلة، ص:18.
53 . نفسه، ص:19.
54 . عمر لقمان بن حمو سليمان بوعصبانة، المرجع السابق، ص:75.
55 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:114.
56 . Chaouche-Bencherif Meriama; Op. Cit. p: 347.
57 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:242.
58 . A. De C. Motylinski ; Guerara depuis sa fondation, Notes historiques sur le Mzab, Revue Africaine, Vol. 28, A. Jourdan, libraire-éditeur, Alger, 1884, p:438.
59 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:242.
60 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 91.
61 . Ibid. pp: 90, 91.
62 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 349.
63 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:115.
64 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 36.
65 . أبي العباس أحمد الفرسطائيي، المصدر السابق، ص:187.
66 . نفسه، ص:188.
67 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:246.
68 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 347.
69 . عمر لقمان بن حمو سليمان بوعصبانة، المرجع السابق، ص:87.
70 . صالح يوسف بن قربة، المرجع السابق، ص:474.
71 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 92.
72 . عمر لقمان بن حمو سليمان بوعصبانة، المرجع السابق، ص:87.
73 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:246.
74 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:114.
75 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 347.
76 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:248.
77 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:114.
78 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 348.

79 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج 2، ص:247.

80 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 92.

81 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 348.

82 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:115.

83 . عمر لقمان بن حمو سليمان بوعصبانة، المرجع السابق، ص:87.

84 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 37.

85 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 92.

86 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 37.

87 . عمر لقمان بن حمو سليمان بوعصبانة، المرجع السابق، ص:89.

88 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:114-115.

89 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 35.

90 . Ibid. p: 35.

91 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:115.

*. السباط: سقيفة بين حائطين تحتها ممر نافذ، وقد تنوعت تعريفات فقهاء المذاهب السنية له، وحسب المذهب المالكي:"هو سقف بين حائطين متقابلين بينهما سكة بالنسبة لمن له الجانبان المتقابلان الأيمن والأيسر من دارين، وقد يكون له جانب واحد، ويستعير من جاره الجانب الآخر ليبني عليه، وقد يكون السباط مستندا على الحائطين، وقد يكون مستندا على أعمدة تكون بنصف كل حائط" ابن الرامي "الإعلان بأحكام البنيان".

93 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 348.

94 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:115.

95 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 35.

96 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:246.

97 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 93.

98 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:247-248.

99 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 348.

100 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:115.

101 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 348.

102 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. pp: 92-93.

103 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 37.

104 . عمر لقمان بن حمو سليمان بوعصبانة، المرجع السابق، ص:89.

105 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:115.

106 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 35.

107 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 348.

108 . Ibid. p: 348.

109 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج 2، ص:243.

110 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 92.

111 . Daumas, Le Sahara Algérien, Etude géographiques, statistiques et historiques sur la

région au sud des établissements Français en Algérie, Paris, 1845, p: 74.

112 . تلمساني بن يوسف، المرجع السابق، ص:107.

113 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 39.

114 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 176.

115 . Commandant Godard ; L'Oasis moderne, essai d'urbanisme saharien, la maison des livres, Alger, 1954, p: 63.

116 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 90.

117 . Commandant Godard ; Op. Cit. p: 61.

118 . A. De C. Motylinski ; Op. Cit. p: 437.

119 . M. Ville ; Notice géographique sur le pays des Beni-Mzab, Bulletin de la Société Géologique de France, Tome 16, 2ème série, 1858-1859, Imprimerie de L. Martinet, Paris, 1859, p: 732.

120 . Commandant Godard ; Op. Cit. p: 63.

121 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. pp: 90-91.

122 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 177.

123 . OPVM ; La Chaux : Matériau de construction et de restauration, Ghardaïa, Algérie, p: 3.

124 . Commandant Godard ; Op. Cit. p: 63.

125 . Pierre Donnadieu et autres ; Habiter le désert. Les Maisons Mozabites. Recherches sur un type d'architecture traditionnelle présaharienne: Architecture + Recherches / Edition Pierre Mardaga, Bruxelles, p: 88.

126 . خالد ناصر محمد باراشد، مواد البناء المحلية في وادي حصرموت- دراسة تحليلية، هندسة معمارية، حضرموت للدراسات والبحوث، مج. 2، ع. 2، 2002، ص:41.

127 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 347.

128 . Jean-Loïc Le Quellec; Maison du Sahara, Habiter le désert, Edition hazan, Paris, 2006 p: 46.

129 . Commandant Godard ; Op. Cit. p: 62.

130 . Chaouche-Bencherif Meriama ; Op. Cit. p: 176.

131 . ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته، العمارة الترابية، دليل مختصر للعمارة الترابية بوادي ميزاب، غرداية، الجزائر، 2010، ص:17.

132 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 89.

133 . عمر لقمان بن حمو سليمان بوعصبانة، المرجع السابق، ص:87.

134 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 93.

135 . Commandant Godard ; Op. Cit. pp: 64-65.

136 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 90.

*. التويزة حسب التقاليد هي حق يستدعي فقط المعاملة بالمثل، حيث يقوم بها الرجال من أجل الأعمال ذات الفائدة العامة، مثل شق الخنادق وحفر الآبار إعداد حقل جديد، وضع الحواجز، جني التمور وغيرها، وباختصار

كل عمل لا يمكن للفرد أن يتمه وحده أو في الوقت المطلوب، كما أن النساء هن أيضا لهن "تويزة" تخصهم في صنع الصوف والنسيج، إعداد ولائم المناسبات.

138 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 39.

139 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:245.

140 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 90.

141 . DELHEURE J. ; Op. Cit. p: 39.

142 . أبي العباس أحمد الفرسطائيي، المصدر السابق، ص:237.

143 . Abderrahmane Moussaoui, L'habitat oasien: espace et société, « Living in Deserts : Is a sustainable urban design still possible in arid and hot regions », Ghardaia, 9-12 December, 2006, p: 191.

144 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:243،245.

145 . Charles Feraud ; Op. Cit. p: 270.

146 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 91.

147 . Ibid. p: 90.

148 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 115.

149 . عبد الرحمن حاجي، المرجع السابق، ج. 2، ص:241.

150 . Jean Lethielleux; Op. Cit. p: 92.

151 . Ibid, p: 90.

152 . Commandant Godard; Op. Cit. p: 66.

153 . عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص:115.

154 . Commandant Godard; Op. Cit. p: 66.

155 . أبي العباس أحمد الفرسطائيي، المصدر السابق، ص:236.

156 . M. Ville ; Op. Cit. p: 732.

157 . Jean Lethielleux ; Op. Cit. p: 91.

عمـــارة المساكن بمنطقة وادي ســـــوف

أ. حسونه عبد العزيز (جامعة وادي سوف)

Abstract:

Valley of Oued Souf form one of the most important Islamic cities with an architectural form and pattern of constructive and artistic which is very rich, so it has been called the city of a thousand domes,

To what extent this creative dealt with the climate and the problems lack of material, Does it provide the necessities of tranquility and live well?

By this study, the most important characteristics and advantages of the traditional tabernacle in the valley of oued Souf by discussing the way and techniques of construction.

1. التعريف بسوف:

سوف أو وادي سوف هي الولاية 39 المنبثقة عن التقسيم الإداري لسنة 1984، الواقعة في أقصى شمال الجنوب الشرقي للجزائر على الحدود مع الجمهورية التونسية، تحدها من الشمال ولايات تبسة خنشلة وبسكرة، من الغرب ولايات الجلفة وورقلة ومن الجنوب ولاية ورقلة .

أ. سوف التاريخية:

هي تلك المنطقة الموغلة في عمق العرق الشرقي الكبير الممتد من الشطوط الواقعة جنوب جبال الأوراس شمالا خاصة شط ملغيغ إلى حواف الطاسيلي ناجر جنوبا وهي كل الإقليم المحصور بين بلاد الجريد التونسية[1] وإقليم نفزاوة وطرابلس شرقا وبلاد ريغ ووارجلان غربا .(الشكل)

من خلال ما سبق نتبين أن المنطقة إقليم صحراوي ومن أهم خصائصه الطبيعية:

ب. التضاريسية:

تقع منطقة سوف في الطرف الشمالي من العرق الشرقي الكبير كما سبق ذكره، يغلب عليها طابع الانبساط، ويقدر متوسط ارتفاعها بنحو 80م فوق سطح البحر[2]، ولا نكاد نجد فيها تضاريس متنوعة ماعدا مظهرين رئيسيين هما:

☜ الكثبان الرملية التي تحيط بكل مدن وقرى سوف وهي عموما قليلة الارتفاع ما عدا في الجهة الجنوبية على طريق القوافل المؤدي إلى غدامس الليبية حيث يزيد ارتفاعها عن 100م ويعرف هذا النوع بالغُرود[3].

☜ الشطوط والمنخفضات :تعتبر منطقة سوف أخفض منطقة في الجزائر ويظهر ذلك في الجهة الشمالية منها حيث نجد شطوط ملغيغ ومروان هذا الأخير ينخفض بنحو 36م دون مستوى سطح البحر .

ت. المنـــاخية[4]:

تقع ولاية الوادي ضمن نطاق المناخ الصحراوي الذي يتميز بشدة الحرارة صيفا حيث تصل درجة الحرارة أحيانا إلى 50°م حتى تكون الرمال متوهجة والبرودة شتاءا بسبب قلة التساقط حيث تنخفض درجة الحرارة أحيانا إلى ما دون 0°م خاصة في الليالي البيض(البيضاء)[5] حين تغطي طبقة من الجليد وجه الأرض، الذي يتميز بالجفاف وانخفاض كبير في معدل الرطوبة [6].

تتعرض المنطقة لثلاثة أنـواع رئيسية من الرياح التي تهب بانتظام على المنطقة:

☜ الريح الغربي التي تعرف محليا بالصحراوي : تتراوح سـرعتهـا مـا بين 13 و16 كلم/سا فهي ذات سرعة كبيرة، تهب في فصل الربيـع، وقد تـأخذ الإتجاه (الشمالي- الغربي) الظهراوي [7] في الشتاء وتكون عادة باردة محملة بالأتربة، تعمـل على دفـن الغيطـان بالرمـال قد تكون مصحوبة بأمطار وعواصف رعدية.

☜ الريح القبلي[8] المعروف محليا بالشهيـلـي: تأتي من جهة الجنوب، تهب في فصل الصيف تتراوح سرعتها ما بين 10و17كلم/ سا، وتتسبب في الكثير من الأخطار أكبرها رفع درجة حرارة الجو بدرجات كبيرة، الشيء الذي يؤثر سلبا على المحاصيل الزراعية فقد تتسبب في تيبيس التمور وموت شجيرات الخضر الموسمية.

☜ الريح الشرقي المعروف بالبحــري[9]: تهب في الخريف أو الربيع وتستمر لنحو أسبوع أو أكثر، تتراوح سرعتها مابين 10الى11 كلم/سا، تتميز بلطافتها نظرا لكمية الرطوبة المحملة بها القادمة من جهة خليج قـابس بتونس وهذا ما ينعكس بالإيجاب على الوسط الزراعي خاصة محصول التمور، لكنها قد تصبح ضارة إذا طالت مدة هبوبها.

2. ظروف التعمير:

أ. الظروف الطبيعية:

تنسب منطقة سوف إلى مجرى الوادي القديم الذي كان يجري منحدرا من جبال الأوراس[10] صوب منطقة الشطوط في الجنوب، وظل موجودا حتى مجيء القبائل العربية في الهجرات الكبرى من المشرق في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي والذين أقاموا منازلهم في مجراه الأعلى قبل نزولهم بمنطقة سوف[11]، والذي سماه مؤرخ سوف «العدواني» بغديرة النيل[12]، والذي طغت عليه بمرور الزمن الكثبان الرملية فغاب مجراه في التربة.

ورغم كون منطقة سوف عمرت فوق بحر من الرمال المتحركة في شكل كثبان تزداد علوا وارتفاعا في الجهات الجنوبية فإنها تتربع على حوض مائي ضخم مشكل من ثلاث مستويات تفصل بينها طبقات وأحزمة من اللوس أو الكلس ولا توجد بها صخور صلبة حقيقية إلا على عمق نحو 1000م ما يعرف بالطبقة الألبية، ونجد أن أقل عمق لهذا الحوض على مستوى 10-15م (في بعض المناطق تكاد المياه تكون سطحية ظاهرة) ما جعل عملية استغلالها عن طريق حفر الآبار متيسرا رغم قلة الإمكانيات في أوقات سابقة.

لقد شكل تعدد المصادر المائية عاملا إيجابيا في استقرار العنصر البشري وسط هذه الصحراء الرملية.

ب. الظروف التاريخية:

ويقول العدواني مؤرخ سوف: (أن سوف عمرت وقت العمالقة... وكان لها حظ كامل وعمارة قوية ... ثم أتوا إليها بنو مرين ... ثم بنو مرداس ثم زناته ... ثم أتوا إليهم عدوان فأخرجوهم منها وعمروها أربعين عاما حتى جائت قبيلة طـرود) [13]، وهذا ما يؤكده المؤرخ أحمد نجاح في كتابه {Le Souf des Oasis} (بأن آخر من أعاد بناء المنطقة للاستقرار فيها هم قبائل بني هلال وبني سليم الذين قدموا من المشرق ما بين القرنين 4و6هـ/11و13م)[14].

إلا أن حركة العمران المادي تأخرت بمنطقة عن ما سواها من حواضر بلاد الجريد أو بلاد ريغ ويعزى إلى:

- أن سكان نوميديا القديمة هم من البربر الرحل الذين يجوبون البادية وراء قطعانهم بحثا عن الكلأ [15]، كما هي عادات العرب الذين وفدوا من صعيد مصر بعد القرن الـ 4هـ ولم يجدوا صعوبة في التعايش مع سكان المنطقة من زناته وتصاهروا معهم ليشكلوا المجتمع السوفي[16].

- أن الوافدين الأوائل ركزوا على أولوية المأوى على المطعم (الغذاء) وهو ما يشير إليه العدواني في قـوله :(عليكم بسوف فهي أم الهاربة)[17] ويقول في مقام آخر: (وأما سوف فلم يكن فيها ساكن حليف ولا سيد بل كانت براح الذئاب)[18] وهذا البكري (مؤرخ القرن الخامس الهجري) يقول:(لا يعرف وراء قسطيلية عمران ولا حيوانا إلا الفنك ... إنما هي رمال وأرضون سـواخة، وهم يخبرون أن أقـواما أرادوا معرفة ما وراء بلادهم فاستعدوا الأزواد وذهبوا في تلك الرمال أياما فلم يروا أثرا لعمران وهلك أكثرهم في تلك الرمـال)[19].

3. العمارة السكنية الأولى بمنطقة سوف:

لجأ أهل سوف إلى إنجاز مساكن تقيهم قسوة المناخ والطبيعة الصحراوية ومن ثم بدأت تتضح ملامح العمارة المدنية في بلاد سوف والتي ظهرت في ثلاث أشكال رئيسية:

أ. السقيفة:

وهي أكواخ مصنوعة من أغصان الأشجار كان يتخذها بربر زناته كلما استقروا عند المراعي تعرف باللغة الأمازيغية (ماباليا)[20] ومع ظهور زراعة النخيل صارت تنجز من جريد النخيل ويتخذ من جذوعها دعامات تنجز في العراء أو داخل الغوط.

وقد ذكر العيـاشي في وصف طريق رحلته خلال القرن11هـ/17م بقوله: "وسكنى أهل هذه البلاد في زرايب من جريد النخل فإليها يأوون وبها يخزنون"[21] وفي ذلك إشارة إلى عدم انتشار البناء بالحجارة حتى ذلك العهد.

ب. دار الكاف أو الكهف :

وهي عبارة عن كوة أو غار يحفر على وجه الأرض ينزل إليه بأدراج وقد يشتمل الغار على غرف يتوقف عددها ومساحتها على طبيعة التربة ومدى تماسكها ويذكر أنه في الجهة الشمالية لسوف على طريق عاصمة الزيـبان كانوا يعيشون في هذه البيوت وظل بعضها حتى السبعينات من القرن الماضي[22] كما عرفت دار الكاف في الغيطان حيث تحفر في مستوى متوسط من عمق الغوط أسفل الحزام الصخري الأول (طبقة اللوس) بحيث تشكل الحجارة سقفا طبيعيا ، وقد يسيج مدخلها بحاجز من جريد النخل (الصورة).

ت. الخيمة أو بيت الشعر:

لأنها عادة ما تصنع من وبر الأبل وقد كانت شائعة الأستعمال لدى بعض العائلات التي تقوم حياتها على حرفة الرعي والتنقل بين الصحراء والمدينة خاصة فئة الربايع الذين كانوا يقيمون في فصل الشتاء عند أطراف الحواضر حتى قدوم الربيع .. ظلت هذه البيوتات شبه البدائية مستغلة حتى وقت قريب[23].(الصورة)

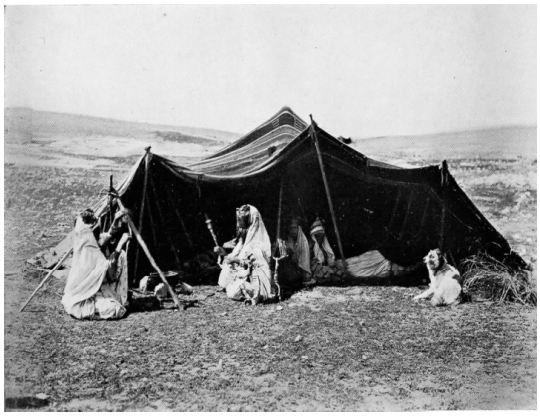

ث. الحوش السوفي:

عندما عرف سكان المنطقة زراعة النخيل وحفر الغيطان، صارت سوف محل توافد قبائل شتى من مختلف المناطق ليجاوروا سكانها الأوائل من بربر زناته وشهدت هجرة العرب من قبائل عدوان ثم طرود منذ القرن 4هـ/11م ليشكلوا تجمعات سكنية عديدة ومتفرقة فسميت «بلاد الألف قرية»[24].

وتذكر المصادر أنه بحلول القرن الـ 16م بدأ ظهور الحواضر الأولى في منطقة سوف في شكل تجمعات سكانية أقيمت حول مسجد جامع، ويرجع الفضل في ذلك إلى الطريقة الشابية ممثلة في شخص سيدي المسعود الشابي[25] الذي زار المنطقة وأسس بها ثلاث مساجد جامعة ألتف حولها الوافدون الجدد وأقاموا مساكنهم لتبدأ عمارة المنزل السوفي والمعروف اصطلاحا بالحوش.

والحوش من جمع الشيء وضمه أو حاشه أي جعله في الوسط ومن هنا كل منزل له فراغ في الوسط يسمى حـوش ويقال المحاشة أي أثاث البيت[26] وقد شاعت تسمية الحوش في عدة مناطق خاصة بالجنوب الجزائري ،إلا أنه يوجد اختلاف بين المناطق في المقصود من تسمية الحـوش ففي منطقة الـزاب الغربي ببسكرة تطلق التسمية على صحن المنزل فقط[27] بينما في منطقة سوف تطلق التسمية على كل المنزل وتسمى الغرفة بالدار.

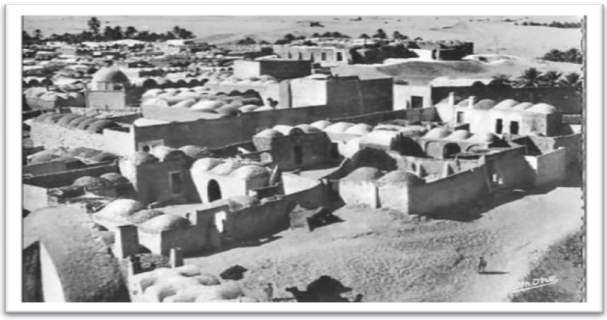

لقد راعى مشيدو الحـوش الأوائل في المنطقة عدة جوانب منها الطابع المناخي السائد، وعوامل الدين والعادات والأعراف والحشمة خاصة لصيانة حرمة المرأة، بالإضافة إلى الجوانب الصحية المناسبة، وعموما لا يوجد إختلاف كبير في نمط وتخطيط الحـوش السوفي إلا من حيث المساحة المستغلة أو بعض المرافق غير الرئيسية، فقد عرف بالبساطة في شكله وعمارته، تكاد تنعدم فيه مظاهر الترف والزينة فيه تجاوبا لمقتضيات البيئة الموجودة، رغم أنه سيعرف لاحقا تعديلات تبعا لتطور نمط الحياة الاجتماعية للسكان.

غالبا ما يتخذ الحـوش شكلا مستطيلا أو مربعا تتراوح سعة صحنه مابين 75 إلى 100م مربعة تحيط به غرف عادة ما تكون ضيقة، فقد كان سكان المنطقة عندما يريدون بناء الغرفة يتمددون أرضا ليكون ذلك هو مقياسها عرضا أما أطوالها فتختلف تقدر بحوالي 2م×4م، أما

ارتفاعها فيكون على قدر طول قامة الشخص الواقف حيث لا يتجاوز أربعة أذرع[28] في اغلب الأحوال، ويلاحظ ان مساحة الغرف يتحكم فيها اسلوب التسقيف المشكل من القبة ذات الشكل البسيط والتي ترفع مباشرة فوق الجدران أو بالسدة[29] المصنوعة من جريد النخل. ولانكاد نجد في سوف الأسطح او الدور من طابقين بخلاف القصور الصحراوية الأخرى التي يغلب عليها البناء من طابقين[30] إلا في فترات متأخرة مع نهاية القرن 13هـ/19م .

يقوم التخطيط العام للحوش في قمار على مرافق اساسية وهي (الشكل) .

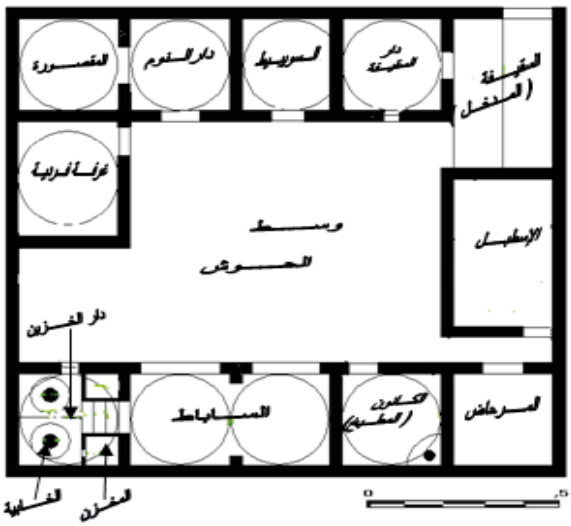

يختار لكل عنصر من هذه العناصر موضعها بدقة في هندسة الحوش تبعا للعامل المناخي والوضع الاجتماعي على النحو التالي:

ث - 1 . الساباط:

هي كلمة عربية مشتقة عن الفارسية وردت في لسان العرب بمعنى «سقيفة بين حائطين او بين دارين، جمعها سوابيط أو ساباطات»[31].

والساباط بمفهومه المعماري المحلي فهو عبارة عن رواق مغلق يفتح دائما على الشمال بقوسين حتى يكون مفتوحا على الهواء المعتدل صيفا[32]، كما يسقف بالقباب، كثيرا ما تفتح عليه غرفه او اكثر، وقد نجد في احدى زواياه الكانون أو موقد بالحطب ذو الشكل نصف الدائري والذي تعلوه مدخنة.

يمثل الساباط في الحوش هيكلا اساسيا لا يمكن الاستغناء عنه، زادت اهميته بترسخ نمط الحياة الحضرية لدى السكان، حيث لم يعودوا يقضون اغلب أوقات فصل الصيف في ضواحي البلدة كما إعتادوا في السابق[33]، كما لم تعد الكثير من النساء خاصة الكبيرات في السن يشاركن الرجل في زراعة الارض وصرن يشغلن انفسهن باعمال منزلية مختلفة كحياكة الصوف والنسيج أو طحن الحبوب وغيرها، والتي تمارس عادة بالساباط.

فكان الساباط يمثل مجلس العائلة ومكان القيلولة، فهو المكان الأكثر برودة صيفا، لذلك كانت تنصب فيه الحمارة[34] التي تعلق عليها قربة الماء للشرب. يلاحظ أن الساباط لا يختلف في سبب ظهوره عن الأروقة التي تنشأ حول فناء البيت في القصور الصحراوية بمنطقة الأغواط ولكن يختلف عنه أنه لا يشمل إلا واجهة واحد من وسط الحوش[35].

ث2-. السوبيبط:

عرفت بعض الأحواش في فترات متأخرة انجاز مرفق جديد عرف بالسوبيبط تصغير لكلمة الساباط، في الجهة المقابلة له أي أنه يفتح على الجهة الجنوبية ويكون في شكل غرفة صغيرة تعلوها قبة واحدة ذات مدخل صغير تعلوه أحيانا عقد، يستغل عادة للجلوس في فصل الشتاء لقضاء الأشغال المنزلية.

ث3-. دار الخزين (الصورة):

تعتبر العنصر الأبرز في عمارة الحوش في قمار وكل منطقة سوف ،فهي مرفق ضروري يدخر فيها التمر والحبوب خاصة وكل مؤونة العام من شحوم ودهون وحتى أنواع من الخضر المجففة. عادة ما تنجز دار الخزين في الركن الجنوبي الغربي من الحوش ما يجعلها اقل تأثرا بحرارة الصيف وبشكل تكون ملاصقة للساباط وتفتح عليه .

تتكون دار الخزين من عنصرين أساسيين هما :

الخـابية :

الخابية أو الخابئة من خبأ الشيء أي ستره، وهي المكان الذي تخزن فيه مزروعات الأرض والغلال[36]. لذلك تهيأ دارالخزين عادة ببناء خابية أو إثنتان داخلها. والخابية عبارة عن جسم اسطواني في شكل جرة ضخمة مصنوعة من الجبس ذات قاعدة عريضة ومسطحة، تجعل لها في الأعلى فتحة ضيقة نسبيا وتسد بغطاء من ليف النخيل لمنع دخول الحشرات او الجرذان وتكون مرتفعة عن مستوى أرضية الغرفة، يوضع بداخلها قوت السنة من التمر فيبقى على حالته من الطراوة والنقاء دون ان يصيبه التلف، كما يجعل في أسفلها قصبة يخرج منها عسل التمر المضغوط الذي يُجمع في قُلة أو جرة صغيرة ثم يجمع في زير ليخزن بدوره[37] ويصعد إلى الخابية بدرجات.

المخزن أو الحد:

يكون إلى جانب الخابية بشكل مربع تقريبا بمقاس(1×1)م^2، يدخر فيه الحبوب من شعير او قمح أو تمر النهوش[38] وحتى الصوف، كما يخزن الزيت والشحوم والدهون المستخرجة من لبن الماعز في جرار صغيرة مصنوعة من الطين أو الجبس.

ث4-. غرف النوم:

يشتمل الحوش في العادة على غرفة أوغرفتين تخصص للنوم ليلا أثناء الشتاء تعرف محليا بالـدار، وإذا كانت العائلة كبيرة مكونة من عدة أسر، فإنه قد يجعل لكل منها غرفة خاصة. كثيرا ما تنجز الغرف في الجهة الشمالية أو الشرقية من الحوش حتى تكون واجهتها مقابلة لأشعة شمس الشتاء الدافئة، وغالبا ماتكون الغرفة الواحدة مركبة من قسمين الغرفة والمقصورة.

ث5-. المقصورة:

من قصر الشيء أي عزله أو ستره ومنعه عن الأنظار[39]، وهي قسم يقتطع من الغرفة يجعل له مدخل بستار كما تجعل فيه دكانة من الجبس أو سدة من الجريد موضوعة على جذوع النخل. تكون المقصورة خاصة بالزوجين دون الأولاد، وتضع فيها الزوجة صندوق ملابسها وادوات زينتها البسيطة، غالبا ما تكون المقصورة مظلمة ليس لها نوافذ.

في فصل الصيف ونظرا لارتفاع درجات الحرارة تبيت كل العائلات في وسط الحوش وكثيرا

ما يجعل سرير تقليدي مصنوع من جريد النخيل يعرف بالسدة يرفع بنحو 0.50م عن مستوى الأرض لتفادي الحرارة المنبعثة من التربة وكذلك العقارب والحشرات الضارة.

ث6-. المطبخ:

يعرف محليا بالكانون، يكون في شكل غرفة ضيقة تعلوها قبة وقد تكون ملاصقة للساباط أو منفصلة عنه في الجهة الجنوبية أوالشرقية من الحوش ويجعل في إحدى زواياه موقد للحطب متصل بمدخنة على غرار ما عرف بالبيوت الإسلامية[40].

إلى وقت قريب ظل الكانون هيكلا ثانويا تخطيط الحوش نظرا لمحدودية دوره، فهو يستغل إلا في الشتاء أو في موسم الرياح، ويمكن إرجاع سبب عدم إهتمام العائلات بهذا المرفق الحيوي إلى بساطة المعيشة حيث كان غذاء الناس يتمثل عموما في التمر أو كسرة الشعير يضاف إليه بعض اللبن أوالحليب والماء. قد يلحق بالكانون أحيانا كوة صغيرة تستغل كميضأة .

ث7-. السقيفة:

تعرف السقيفة لغة على أنها «الصفة أو كل بناء سقفت به صفة أو شبهها مما يكون بارزا»[41] وإصطلاحا هي الممر الذي يصل بين المدخل من الزقاق ووسط الحوش وتكون بشكل منكسر يحجب النظرعما بالداخل تماشيا مع تعاليم الدين وقيم المجتمع المسلم التي تحث على الستر وعدم كشف حرمات المنازل، كثيرا ما تستغل السقيفة كمكان للجلوس لفترات قصيرة تتبادل فيها النسوة الزيارات يتناقلن آخر الأخبار أو يتعاون على أداء بعض الأعمال المنزلية كطحن الحبوب الجافة من قمح أو شعير وعادة ماتكون غير مسطحة مفروشة بالرمل، ونظرا لكثرة الجلوس أحيانا ما يسبب حرجا للداخلين من أفراد الأسرة الذكور، لجأت بعض العائلات إلى إضافة غرفة صغيرة جانبية عرفت بدار السقيفة والتي تحولت بمرور الوقت إلى دار للضيافة للأجنبي عن العائلة [42]، وهذا يعود بالأساس إلى طبيعة العائلات القمارية المحافظة والتي تتميز بالحشمة وعدم الأختلاط.

ث8-. المرحاض:

يعرف المرحاض محليا بإسم الخربة[43]، ويكون موضع المرحاض عادة في ركن منعزل من الحوش غير متصل بالبناء أو المرافق الأخرى وغالبا ما يكون في الجهة الشرقية منه، وينشأ عادة في شكل غرفة ضيقة مربعة تقريبا وغيرمسقوفة لتكون مفتوحة على الهواء للضرورات الصحية

والمناخية لا تتوفر على أدنى شروط المرحاض خاصة الماء لعدم وجود الحنفيات الذي يجلب في وعاء عند ضرورة الأستعمال.

ث9-. اسطبل الحيوان:

يكون موضعه مجاورا للمرحاض أي غير متصل بالمرافق الاخرى، وقد كان الأسطبل إلى وقت غير بعيد يعتبر مرفقا غير أساسي في عمارة الحوش داخل البلدة نظرا للروائح الكريهة التي قد تصدر منه، إلا أنه منذ مطلع الرابع عشر الهجري القرن العشرين الميلادي كثر استعمال الدواب كالحمير والبغال في أعمال السقي والجر، كما صارت أغلب العائلات السوفية على اختلاف مستواها الاجتماعي تهتم بتربية الأنعام خاصة الماعز فأصبح الإسطبل عنصرا مهما في تخطيط المنزل[44].

ث10-. صحن الحوش:

هو وسط الحوش الذي تحيط به كل العناصر الأخرى وتفتح عليه. عادة ما يكون الصحن غير مسقوف، وتختلف مساحته تبعا لمساحة الحوش ككل ولعدد الهياكل التي يتكون منها.

جعل وسط الحوش للضرورة المناخية فهو يوفر الضوء والهواء ويعتبر بمثابة الرحبة المصغرة للعائلـة ففيـه تجتمع الأسرة للتسامر والمبيت أثناء الليل في الصيف، ونظرا لكثرة الحشرات الضارة (العقارب) تنصب السدة فوق حمالات خشبية تعرف بالدواب، كما صار في عصور متأخرة يحفر في وسط الحوش بئر للماء للإستعمال المنزلي كثيرا ما تغرس إلى جانبها نخلة يستظل بها.

معظم سكان سوف كانوا يعيشون على زراعة النخيل ويقضون معظم أوقاتهم في غيطان النخيل خارج الحواضر الرئيسية فقد عرف الحوش الريفي كبديل عن دار الكاف أو السقيفة ويكون عادة على حواف الغوط أو خارجه يشتمل عادة غرفة غرفة واحدة وبيت للخزين وساباط، وقد يسيج بحاجز من الجريد لمنع الهوام أو الحيوانات الضالة .

الغوط هو واحة النخيل المنشاة في منخفض عميق شبه دائري قد يبلغ مئات من الأمتار طولا وعرضا، ويكون خصيصا لزراعة النخيل لتكون قريبة من مستوى سطح الماء قد تصل لعمق (10-16م) ثم يجعل للنخلة حوض عميق يخترق الحزام (طبقة اللـوس) فوق الماء بحوالي 30 سنتمتر، وتتم عملية إنجاز الغوط عن طريق رفع الرمل على الظهر بواسطة

الشارية[45] أو بواسطة الزنبيل[46] على ظهور الحمير أو البغال، ويتم إخراج الرمال ووضعها على حواف المنخفض لتكون بمثابة الساتر للكسر من حدة الرياح، وعادة ما يبتدأ العمل مع الفجر حتى طلوع الشمس، وقد تستغرق عملية الحفر أشهرا أو سنوات على حسب المساحة المراد استغلالها وقد يستوعب الغوط الواحد أحيانا ما يناهز الـ100 نخلة، وتشترك كل الأسرة في أعمال البستنة وتقتصر عملية رفع الرمل على البالغين الرجال.

وتكون عملية حفر الغيطان على حسب جودة المياه وقربها من السطح ، ورغم أن عملية الحفر متعبة ومضنية جدا، لكن الآباء والأجداد مع قلة الوسائل وبساطتها وبعزيمتهم وتعلقهم بغراسة النخيل وإصرارهم على تعمير المنطقة أبدعوا الغيطان[47].

إن عملية انجاز الغيطان للنخيل تحقق عدة أهداف منها:

1- تقريب النخلة من مصادر المياه الجوفية .
2- حماية المحصول من الرياح والأتربة .
3- توفير نسبة من الرطوبة داخل الغوط تساعد على زراعة محاصيل موسمية.

لقد مثل الغوط لعقود طويلة محور الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة، فصار لها علاقات خارجية خاصة مع بلاد النمامشة والأوراس وبلاد الجريد التونسية، وصارت محل الاهتمام السياسي للمالك المجاورة فحاولت السيطرة عليها وضمها لسيادتها ولكنها ظلت عصية نظرا لطبيعة الإنسان السوفي الذي ما لجأ إلى هذه المنطقة إلا ليكون سيدا في أرضه قال الرحالة ابن الدين الأغواطي في رحلته سنة 1826 م «... ولا يخضع سكان وادي سوف إلى حاكم... وهم يتكلمون العربية، وأهل سوف يتمتعون باستقلال كامل، ولم يطيعوا أبدا أي سلطان ومعظم تجارتهم مع غدامس ففيها يبيعون العبيد...» حتى دخول المحتل الفرنسي الذي وجد نحو 154 ألف نخلة «تؤتي أكلها كل حين» فعمد إلى السيطرة على هذه الثروة وإخضاع أهلها لإرادته.

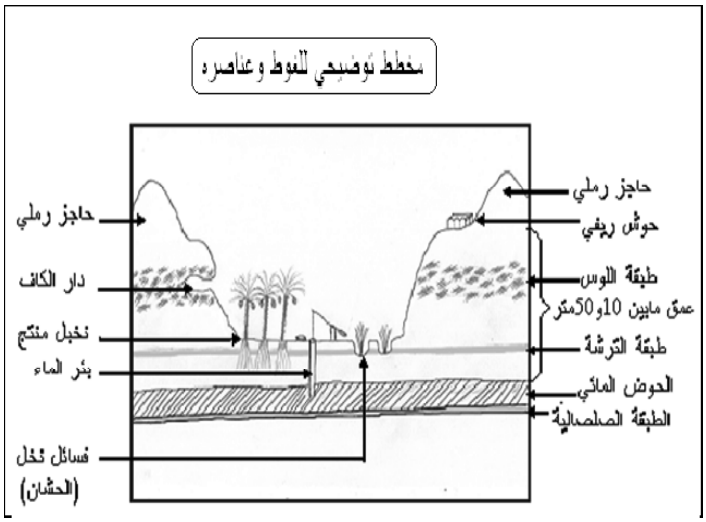

ج. مـــواد البنـــاء:

أستعمل البناء السـوفي كل المواد التي أتيحت له في بيئته والتي عرف كيف يكيفها بطريقة تتماشى وخصوصيات المنطقة المناخية والاجتماعية وابرز هذه المواد الحجارة الرملية والكـلسي، الجبس وعناصر النخلة المختلفة خاصة الجذوع والجريد:

1. الحجـارة:

1-أ. اللـــوس:

هو صخر رملي مركب تشكل من بلورات رملية دقيقة تجمعت في شكل هندسي غير منتظم ذا رؤوس مدببة أو محدودبة ذو لون أصفر فاتح، يتميز بقوة التحمل خاصة بعد ربطه بمادة الجبس يعتبر أقل تأثرا بالرطوبة من الحجارة الكـلسية، يتواجد اللـوس في شكل نطاقات عرضية على مستويات قريبة من السطح يتوافر بكثرة في الجهة الغربية من المدينة خاصة في ضاحية المقلع والغربية وكذلك في غمرة السفلى شمالا على بعد نحو 4 كلم.

استعملت حجارة اللـوس بكثرة في البناء في ثلاثة أحجام:

- الحجارة الكبيرة تكون عادة ثقيلة توضع خاصة في الأساسات كما ترفع بها الدعامات .
- الحجارة المتوسطة مخصصة لرفع الجدران التي عادة ما يتراوح سمكها مابين 0.25/0.30 متر.
- القطع الصغيرة تعرف محليا بالترشة تستعمل في التسقيف لتشكل منها القباب والأدمـاس والعقـود .

1-ب. الصلاجـة:

بضم الصاد وتشديد اللام من صلج الشيء أي تصلب[48] والمقصود الحجارة الكـلسية المتصلبة وهي نوع من الحجارة تشكلت بتصلب حبيبات الجبس والرمل متجمعة بإشكال وإحجام مختلفة تكون ذات لون فاتح يميل إلى الزرقة تتميز بأنها مقاومة للحرارة عازلة للصوت وقد تكون أشد صلابة من اللـوس إذا لم تتعرض للرطوبة وهي عادة تستخرج من مستويات عميقة تصل حتى ثلاثة أمتار ومنها الصلبة نسبيا وتكون عادة قريبة من ظاهر الأرض تصلبت بعامل الجفاف دون تعرضها للضغط.

شاع استخدام الصلاجـة في البناء بكثرة في عهد متأخر نظرا لانتظام شكلها عكس اللوس وبسبب سهولة تأثرها بالرطوبة توضع عادة وسط الجدار في مستوى مرتفع عن الأساسات.

2. الجـبس:

الجبس نوعان وذلك حسب طريقة تكوينه:

الجبس الطبيعي : يسمى محليا بجبس البرانيس يوجد مع الصخر الملحي على شكل أجسام مسطحة أو كتل ليفية متراكبة مع الحجر الجيري أو الحجر الرملي أو الطين أو على هيئة رواسب ذات طبقات تكون ظاهرة فوق سطح الأرض ولكن بكميات محدودة ويستخدم في.

- الطب الشعبي كجبيرة للأطراف المكسورة لكي يساعد على تثبيت العظم المكسور في مكانه حتى يعود إلى طبيعته .
- غسل مادة الصوف حتى يعطيها لونها الأبيض .
- تبييض المباني التي أثرت فيها العوامل الطبيعية فتحول لونها للاصفرار .

الجبس الاصطناعي: هو المسحوق الكـلسي الذي ينتج بحرق حجر التـــــافزة، يتميز بلونه الأبيض المائل إلى السمرة ما يجعله عاكس لأشعة الشمس عازل للحرارة والصوت، ويستعمل

في عملية البناء كرابط للحجارة وكذلك في تكسية أو تلبيس الجدران وعمليات الزخرفة. لكنه شديد التأثر بالرطوبة نظرا لمكوناته الملحية كبريتات الكالسيوم لهذا كثيرا ما نلاحظ اليوم أساسات المباني متآكلة بفعل تأثير الرطوبة والتعرية الـريحية.

عرفت صناعة الجبس تطورا في أواخر القرن التاسع عشر بسبب زيادة أعمال البناء وتوسع الحركة العمرانية، وهذا ما جعل صناعة الجبس تتطور في وسائلها لتوفير كميات أكبر لتحقيق الاكتفاء الذاتي من مواد البناء الضرورية على الرغم من التطور الصناعي في مجال البناء بالاسمنت والآجر، فإن بعض أهالي وادي سوف ما زالوا يحافظون على صناعة الجبس المحلي لكونه المادة الملائمة لطبيعة العمران التقليدي الذي ما زال سائدا بأحياء وقرى المنطقة.

وفيما يلي عرض لمراحل صناعة الجبس .

✓ **عملية الحرق:** تتم في الكوشة أو الفرن يُشيد بالقرب من مقلع الحجارة وتكون ذات شكل دائري لها فتحتان إحداهما ضيقة في الأسفل وهي مكان الموقد ويستخرج منه الجبس بعد الحرق، والفتحة الثانية هي المدخنة وتكون واسعة في أعلى الكوشة وهي مفتوحة للهواء مباشرة حيث يدخل الحطب من الفتحة العلوية مشكلا من أجزاء من جذوع النخل والكرناف[49] وعصي الرتـم[50] بينما توضع التـافزة بشكل مرتب من الأكبر حجما إلى الأصغر التي بإمكانها سد كل المنافذ التي يمر منها الدخان وعادة ما تضرم النار في الموقد آخر النهار لتظل مشتعلة طيلة الليل (هذه الطريقة تمارس بإحترافية وتنتج الكوشة الواحدة مقدار حمولة شاحنة متوسطة الحجم .

ظل الجبس يعتبر المادة الرئيسية للبناء في سوف حتى عهد قريب لكن مع دخول مياه الحنفيات إلى المنازل زادت نسبة الرطوبة في التربة ما أثر على صلابة أساسات الجدران كنتيجة لتحلل الجبس وتحوله إلى ما يشبه التراب الأمر الذي جعل السكان يستعيضون عنه بمواد البناء الحديثة خاصة الأسمنت، وظل استعمال الجبس مقتصرا على عمليات التلبيس الداخلي أو في فن الزخرفة بالنحت الذي شهد رواجا في العهود الأخيرة.

3. العناصر النباتية:

لقد ارتبط تاريخ عمران سوف بحفر الغيطان وزراعة النخيل، وكانت النخلة مصدر الكثير من مواد البناء أهمها:

-3أ. الجذوع:

أو سيقان النخيل الكبيرة خاصة والتي قد يصل قطرها أحيانا إلى 50سم وبعد أن يقطع طوليا إلى قسمين أو أكثر،تستخدم كدعامات للربط بين الجدران أو كأكتاف لحمل السقف أو المداخل، كما شكل منها السرير داخل غرفة النوم، كما صنعت منها الأبواب للفقراء ولكن بعد تكسيتها بصفيحة معدنية والكثير منها كان يستخدم في حرق الجبس.

-3ب. الجريد:

وهي بمثابة الأغصان للنخيل فبعد أن تنزع منها الكرنـاف والأشواك تستخدم في تشكيل السقيفة (المأوى الأول للإنسان السوفي)، حيث أستخدم الجريد كحاجز عن أشعة الشمس الحارقة أو للإتقـاء الرياح، وقد يستعان بجذوع النخيل كدعامات وقد تشكل السقيفة أحيانا عند جذع النخلة، كما أستعمل الجريد بمثابة ساتر(سور خارجي) للحـوش في الأرياف، أما في المدينة فقد أستخدم الجريد الأخضر الذي يكون لينا في تشكيل الأقواس البدائية في مدخل السـاباط، حيث يوضع فوقه الجبس الذي سرعان ما يتصلب ثم ينزع الجريد وقد يترك في مكان، كما صنع من الجريد السدة للتسقيف بدلا من القبة، أو لتتخذ كسرير للنوم داخل الغرفة أو خارجها في وسط الحـوش.

-3ت. الكرنـاف والليف:

تمثـل «الكرنافة « الجزء العلوي من الجريـدة الذي يبقى ملتصقا بالجذع بعد أن تقطع الجريدة، وتبلغ مقاساتها بحجمـها العادي ما بين 20سم إلـى 25سم. ويتم نزعها من الجـذع

وتوضع لتجفف فترة من الزمن، ثم تستعمل للتسقيف بحيث توضع فوق السدة على الجهة المسطحة وهي بذلك تغلـق الفراغات بين الأخشاب ولزيادة قوتها، كما يضاف إليه الليف وهو عبارة عن شبكة من الألياف تغطي الجزء العلوي من جذع النخلة بين الكرناف، ويستعمل كذلك في غلق المساحات الصغيرة والفراغات التي يتركها الكرناف الذي يوضع على قطع جذوع النخلة، ويقوم البناءون بتبليله قبل نشره على الكرناف، ولذلك يعتبر استخدام هذا العنصر في السقف ضروري لغلق كل المساحات والثغرات الصغيرة قبـل وضع الجبس.

4. وسائل التسقيف:

-4أ. القبـة:

ابتكر سكان المنطقة تقنية التسقيف بالقباب وطوروها حتى شاع استعمالها في كل العمائر فلم تقتصر على المنشآت الدينية فقط بل صارت العنصر الأبرز في العمارة السوفية حتى أطلقت عليها **Isabelle Eberhardt** سنة 1900م مدينة الألف قبة[51].

لقد شاع استعمال القباب في سوف لعدة أسباب نذكر منها :

الضرورة المناخية: إن الشكل المحدودب الدائري يعتبر مقاوم للرياح فلا تؤثر فيه ولا تتكدس الرمال فوقه كما لا يسمح بتجمع مياه الأمطار كما أن الهواء الساخن داخل الغرفة يرتفع إلى أعلى وقد تترك له فتحات صغيرة تسمح بخروجه (ظهر ذلك في عصور متأخرة).

الضرورة التقنية: تميزت القباب الأولى في المنطقة تميزت بسهولة تشكيلها فهي لا تتطلب وسائل كثيرة أو تقنية معقدة وكل ما يلزم هو إقامة الجدران الأربعة الحاملة لها ثم تنجز في

شكل محدودب قليلا، دون أن يكون لها شكلها نصف الدائري كما هو الحال في العمائر الحديثة اليوم.

الضرورة المادية: تعتبر مادة الجبس المصنعة محليا عاملا مساعدا في إنتشار التسقيف بالقباب نظرا لسرعة تصلبها وتماسكها هذا ما لم يتوفر حتى في مواد البناء الحديثة وما يتطلب الأمر إلا خفة ومهارة من طرف البنائين.

اختلفت أشكال القباب حسب مواد البناء المستخدمة أو التقنية المتوفرة، والطرز المعمارية السائدة وغيرها من المؤثرات. فهناك القباب المستديرة والمضلعة والمخرمة والمشكلة من دورين وقد عرفت أشكالها في سوف تغييرا بارزا من القبـة المفلطحة فالمحدودبة ثم النصف كروية وقد سـاهم المستعمر الفرنسي في تطـور تقـنية أنجاز القبـاب بالمنطقة حيث استعملها في منشآته المـدنية والعسكرية .[52]

يتم بناء القبة انطلاقا من القاعدة المربعة أو المضلعة بالاعتماد على تقنية الحنايا الركنية التي تقوم عليها القبة، بعد تحديد نقطة مركزية تتجه نحوها الجدران الأربعة، فتأخذ جدران القبة انحناء تدريجيا كلما ارتفع البناء إلى غاية الالتقاء في مركز القبة وهو أعلى نقطة فيـها، ويستعان في تدويرها بتثبيت خيط في مركز قطر القبة (السرير الذي يقف فوقه البناء) والذي بواسطته يحدد حجمها.

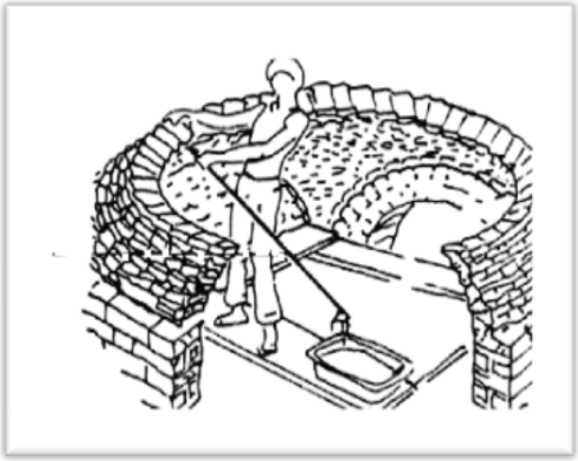

4-ب. الدمـس:

الدمس كلمة عربية من دمس الظلام أي اشتد وتعني الغطاء أو ما يستتر به[53]، يعرف أحيانا بالقبو وهو عبارة عن سقف نصف اسطواني مجوف يشكل بإستخدام العقود بصفة متكررة، القبو يكون غالبا ضخما وثقيل الوزن لذا يحتاج إلى دعم متين يسنده على الجانبين الطويلين، كثيرا ما استخدم تحت الأرض ولذا يطلق أحيانا تسمية القبو على السرداب. ظهر استعمال القبو في المنطقة منذ القرن التاسع عشر بشكل خاص في عمارة الزاوية ثم شاع استعماله في العمائر المدنية في منتصف القرن العشرين، خاصة منذ إدخال عنصر الحديد المعروف محليا بالفيراطي (fer à T) والمستعمل أصلا في تركيب السكك الحديدية بدلا من الخشب وقد استعمل كدعامات أفقية توضع متعامدة على الجدران الحاملة، فصارت الغرفة الواحدة تسقف بعدة أدماس صغيرة متوازية تسند إحداها الأخرى تعرف أحيانا بالسقف المعقود.

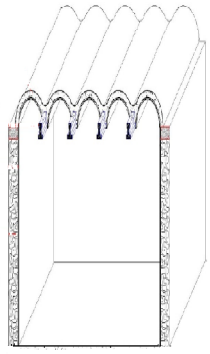

يتميز الدمس بنفس خصائص القباب من حيث قوة المقاومة وفي مواجهة العوامل المناخية كالتقليل من تركيز أشعة الشمس والأمطار إلا أنها تغطي مساحة أكبر.

عرفت بعض العمائر استعمال القبو المتقاطع الذي يشكل في الوسط علامة × ولكن ذلك نادرا أقتصر على الأسقف الضيقة.

4-ت. السـدّة [54]:

السـدّة بتشديد وضم السين وتشديد الدال وتصنع من جريد النخيل الذي يقطع في مرحلة معينة من السنة لتخفيف الثقل عن النخلة وبعد أن تنزع منه السعف والأشواك والكرناف تشد إلى بعضها بواسطة حبال مضفورة من الليف وبعد أن تقص بشكل مستقيم تترك في الماء حتى تأخذ شكلها المستوي ثم تجفف تحت الشمس لتصبح صالحة للاستعمال، كثيرا ما تستعمل للتسقيف حيث تمدد على عرض الغرفة فوق حواف الجدران الحاملة أو على دعامات أفقية من جذوع النخيل ثم يوضع فوقها الحلفاء لسد المنافذ ثم تفرش طبقة من الحصى ويصب فوقها الجبس في حالة شبه سائلة ليتصلب بسرعة في شكل طبقة علوية، يستعمل هذا النوع من التسقيف لسهولته وقوته كما أنه أكثر تكييفا لهواء الغرفة أو الرواق.(الصورة)

5. وسـائل الـدعم:

5-أ. العقــود:

على غرار المدن الإسلامية الأخرى لا يكاد تخلو أي منشأة عمرانية في سوف من العقود خاصة في السـاباطات والمساجد، وتقوم تقنية إنجازها في أول الأمر بالاستعانة في تشكيلها بجريد النخيل الأخضر المنزوع السعف والذي يكون مرنا، فيقوس ويثبت طرفاه على الجدارين الحاملين أو الدعامات ليكون بمثابة القالب ويوضع فوقه الجبس ثم تصفف حجارة اللوس فوق بعضها وبنسق منظم وسرعان ما يتصلب، وبعد أن ينزع الجريد تبقى آثاره واضحة في البناء ليتشكل العقد البسيط في شكله ومظهره، ثم تطورت التقنية فأخذ ت العقود شكل قوس كامل أو منكسر.

-5ب. الدعامات والأعمدة:

تعتبر الدعامات والأعمدة من أهم العناصر المعمارية الإنشائية بالمباني والمساجد وقد كانت في البدايات الأولى لبناء المساجد من جذوع النخل لتحمل السقف المصنوع من جريدة النخل. ولما انتقلت صناعة البناء إلى الأحجار عملت الدعامات الحجرية والأعمدة.

تستعمل الأعمدة والدعامات في المباني الكبيرة ذات الأسقف والجدران العالية، وباستثناء المنشآت الدينية فإن العمارة المدنية خاصة الحوش كانت تفتقر إلى وسائل دعم واضحة نظرا لبساطة البناء، حيث ينجز الحائط ابتداء من وجه الأرض مباشرة وقد يحفر له بقدر(20 أو30سم)، وقد يستعان أحيانا إذا كان الحائط طويل عرضيا بإقامة دعامة تكون في شكل تقاطعي مع الحائط على هيئة حرف T. كما استعملت أجزاء من جذوع النخيل أفقيا لدعم جدارين داخل الغرف الواحدة أو كأكتاف فوق المداخل والأبواب، كما استعملت في العهد الاستعماري دعامات حديدية تعرف محليا بالفيراطي وهي تحريف لـ fer à T_ بالفرنسية التي صارت توضع أفقيا عند انجاز الأدماس وكثر استعمالها في الفترات المتأخرة بعد الاستقلال.

وقد اشتملت بعض الدور في الزاوية التيجانية على دعامات مربعة ومضلعة تحمل بوائك الأروقة المحيطة بالصحن، أما المنشآت الدينية خاصة المساجد فقد استعملت فيها الأعمدة أسطوانية الشكل والمصنوعة بالجبس والحجارة المحلية بمختلف الأحجام حسب وظيفتها وأضخمها التي في جامع سيدي المسعود (الجامع العتيق بالوادي). والظاهرة اللافتة أن كل الأعمدة لا تشتمل على قاعدة أو تاج.

ظلت عمارة المسكن التقليدي في سوف على هذا النمط في التخطيط، تشتمل على نفس الهياكل حتى مطلع القرن العشرين وخلال الحقبة الاستعمارية، وظلت مواد وتقنيات البناء نفسها .

اليوم المنزل السوفي أخذ يندثر لتحل محله المساكن العصرية المبنية بالآجر والأسمنت المسلح والشيء الأخطر اليوم هو ظاهرة البناء الهش التي أتت على ما بقي من هذا الموروث المعماري للمنطقة ليشهد نفس مصير غيطان النخيل التي تعرضت للدفن .

هوامش البحث:

1 . بلاد الجريد تقع في الجنوب الغربي من الجمهورية التونسية وهي كل المناطق المحاذية لشط الجريد من مدنها قفصة وتوزر، وسميت كذلك لإنتشـار زراعة النخيل فيها.

2 . Voisin André-Roger, Le Souf monographie, imprimerie El-walid éditions ,EL-OUED, 2004,p.24.

3 . جمع غُرد أي الفريد من نوعه، أو الشيء الذي يصدر عنه صوت عذب وهذا كناية عن الصوت الذي تصدره الكثبان أثناء هبوب الريح، أنظر ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة (د.ط،ت) ص:**3232.**

4 . مصدر هذه المعلومات مركز معالجة معطيات محطة الأرصاد الجوية بمطار قمار **2001.**

5 . الليالي البيض هو نوع من التقويم عند فلاحي المنطقة ويقصد بها وسط ليالي الشتاء الباردة وتمتد من **25** ديسمبر إلى **13**جانفي من كل سنة دلالة على الصقيع.

6 . Lutaud, CH. Exposé de la situation générale de territoire du sud. typographie Adolphe ,Jordan 1908, p.158.

7 . الظهراوي مصطلح محلي يقصد به الشمال، أو ظاهر البلاد أي خارجها.

8 . القبلي مصطلح محلي في المنطقة يستدل به على الجهة الجنوبية، وقد أوردها ابن منظور بمعنى وجهة أي اتجاه ، انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف القاهرة (د.ت.)، مجلد خامس، ص:**3517.**

9 . أي القادمة من جهة البحر المتوسط شرقا، من منطقة خليج قابس في تونس الذي يبعد نحو **200**كلم عن سوف.

10 . جبال الأوراس من سلسلة الأطلس الصحراوي التي تعبر حدا طبيعيا بين التل والصحراء .

11 . عدوان وطرود من القبائل العربية التي أرسلها الفاطميون إلى بلاد المغرب في القرن **5**هـ/**11**م للانتقام من الإمارات المستقلة فيها، عن أصل القبيلتين أنظر: عبد الرحمان بن خلدون ،تاريخ ابن خلدون، إعداد خليل شحادة، مجلد **6**، دار الفكر، بيروت، **2000**، ص: **23.**

12 . محمد العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.**1**، ص:**134.**

13 . نفسه، ص: **134.**

14 .Najah Ahmed, Le Souf des Oasis .Editions la maison des livres. Alger, 1970. P.48

15 . مرمول كرفخال، إفريقيا، مترجم عن الفرنسية، ج.**1**، مكتبة المعارف، الرباط، **1984**، ص:**90.**

16 .Najah Ahmed, op.cit. p,48.

17 . محمد العدواني، نفسه، ص:**117.**

18 . محمد العدواني، نفسه، ص:**82.**

19 . أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، مكتبة المثنى ببغداد (د، ت)، ص: **39.**

20 . عبد العزيز غوردو، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، الكويت، ط.**2**، **2011**، ص:**17.**

21 . بلحميسي مولاي، المرجع السابق، ص:**93.**

22 . مازالت هذه الكهوف موجودة بمدينة مطماطة التونسية وكذلك بمنطقة جبل نفوسة بليبيا.

23 . Ahmed Najah, Le Souf des Oasis, p.92.

24 . إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، الدار التونسية للنشر، تونس**1977**، ص: **28.**

25 . المسعود الشابي نسبة إلى قرية الشابية بتونس ومتزعم الطريقة الشابية المتوفى في 1028هـ/1619م دفين زاوية شاشار قرب خنشلة. أنظر: إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، دار النشر: منشورات ثالة، الأبيار- الجزائر2007، ص: 242.

26 . ابن منظور، المصدر السابق، المجلد 2، ص: 1050.

27 . مصطفى سالم، الأطلس الأثري لإقليم الزاب في العهد الإسلامي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، جامعة الجزائر2009/2008، ص:75.

28 . الذراع: هو وحدة قياس جمعها أذرع، وهو مابين طرف المرفق إلى طرف الأصبع الأوسط، ويختلف طول الذراع الشرعي حسب المذاهب الفقهية وقدره عند المالكية 53سم، انظر ابن منظور، المصدر السابق، المجلد 3، ص:1495، أنظر كذلك: علي جمعه محمد، المكاييل والموازين الشرعية، القدس للإعلان والنشر والتسويق، ط2، القاهرة، 2001، ص:97.

29 . السدة: هي جريد الذي يجمع إلى بعضه بشكل أفقي بواسطة خيط متين أو حبل تستعمل للنوم صيفا في وسط الحوش أو داخل الحجرة كما تستغل للتسقيف، انظر بن منظور، المصدر السابق، المجلد 3، ص:1970.

30 . حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية وأثرية، موفم، الجزائر2006، ص:241.

31 . ابن منظور، نفسه، المجلد الثالث، ص:1923.

32 . تعرف التيارات الهوائية القادمة من الشمال محليا بالظهراوي وتتميز ببرودتها صيفا وشتاءا لذلك تقوم بدور معاكس للريح القبلي أو الشهيلي.

33 . André Voisin, Op. Cit. p.109.

34 .Eberhardt I.,Victor Barrucand, Dans l'ombre chaude de l'Islam, Imprimerie A.Diary, Paris, 1926, p.251.

35 . حملاوي علي، المرجع لسابق، ص:247.

36 . ابن منظور، نفسه، المجلد الثاني، ص:1085.

37 . Cauvet C., Notes sur le Souf et les Souafa, B. S. G. Alger, 1934, p.66.

38 . النهوش: هو كل تمر غير أصيل أي ليس من الأنواع المعروفة والتي تعد نحو مائتي نوع منها دقلة نور، الغرس، الطرطبوشة، تل السين، الحمراية وغيرها. أنظر إبراهيم العـوامر، المصدر السابق، ص:64.

39 . ابن مظور، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص:3647.

40 . شافعي فريد، العمارة العربية في مصر، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص:433.

41 . ابن منظور، المصدر السابق، المجلد الثالث، ص:2041.

42 . Ahmed Najah, Op. Cit. p.92.

43 . الخربة: جمعها خربات وهي موضع الخراب تطلق على المبنى المهجور، أو الذي على وشك السقوط، أنظر بن منظور، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص:1121.

44 . عادة ما يجعل المرحاض والإسطبل مكشوفين حتى تساعد الشمس على تجفيف الفضلات لتجمع وتنقل إلى المزارع لتستغل كسماد طبيعي للنبات.

45 . الشارية: هي القفة المصنوعة من سعف الجريد تخصص لحمل الرمل.

46 . الزنبيل: هو قفة كبيرة تكون بشكل طولي توضع على ظهور الدواب.

47 . وتشبه هذه العملية بأشغال رفع الحجارة الضخمة لإنجاز أهرامات مصر الفرعونية حتى جاز تسميتها بالأهرامات المقلوبة ولكن الفرق أن الأولى للأحياء والثانية للأموات.

48 . ابن منظور، المصدر السابق، المجلد الرابع، ص:2450.

49 . الكرناف: بضم الكاف هو الطرف العلوي من الجريد الذي يكون موصولا بجذع النخلة، وعند استعمال الجريد ينزع منها الكرنـاف والأشواك ليستعمل في التدفئة أو لحرق الجبس.

50 . الرتم هو شجر ينمو في الصحراء والسهوب لا يتجاوز ارتفاعه المتر أوراقه أبرية مذاقها مر وهو شديد الاشتعال.

51 .- Eberhardt, I. Mes journaliers, Ed. d'Aujourd'hui, Paris, 1985, p.88.

52 . حافظ المستعمر الفرنسي منذ دخوله لمنطقة سوف سنة 1883 على الخصوصية المعمارية للمنطقة من حيث مواد وتقنية البناء مع بعض التطوير في هندسة المباني.

53 . ابن منظور، المصدر السابق، مجلد 2، ج15، ص:1421.

54 . ابن مظور، نفسه، مجلد 3، ج22، ص:1970.

الفخار في الجنوب الجزائري دراسة تحليلية وجمالية (مدينة بشار أنموذجا)

أ.د. مهتاري فائزة (جامعة تلمسان)

Abstract:

Handcrafts are considered as very important among the industries in Algeria, mainly in Bechar's area. They do not only contribute in Tourism prosperity but they are so demanded by the tourists during the whole year. Among the most useful ones pottery. Since the need to pottery appears to suit it within the needs of primitive people, and as a result of the development, pottery craft developed through the use of clay which depends on the decoration of animals, plants and geometric shapes too. In Bechar craftsman are still preserving this patrimony from machine's innovation, with all the advantages that this last offer, they prefer working by their hands. the choice of colors is suitable to the area and to the Sahrawian preferences, so that we find the red, the yellow clear and dark brown. We are trying throughout this study to make people aware of this very important handcraft that will disappear if we did not play a crucial role to preserve it.

مقدمة:

يحتل الفخار أو الخزف مكانة مُهمة في التراث الحضاري الإسلامي، وقد حضي الخزف الإسلامي بعناية الكثير من العلماء والباحثين وقد كان حافزهم إلى هذه العناية، كثرة ما عُثر عليه منه في الحفريات التي اضطلعت بها الهيئات العلمية، في مراكز الحضارة الإسلامية ومواطن ازدهارها في مختلف عصورها.

ومن أهم الأسس التي اعتمد عليها العلماء في تاريخ الخزف: المادة الخام وطريقة الصناعة، والزخارف والمكان الذي عثر عليه فيه، وقد عمد المؤرخون عند عدم توافر هذه الأسس إلى الافتراض أو الترجيح[1].

وقد حظِيَ الفخار في الجزائر بمكانة هامة، إذ أنه غنيٌّ بالأشكال والألوان وإن اختلف من منطقة إلى أخرى إلا أنه يعكس تراثاً محلياً ثرياً وإبداعات رائعة، تفنّن من خلالها الصّنّاع في إظهار إمكانيتهم وحرصوا على عكس عاداتهم وتقاليدهم المحلية، ومن أشهر أنواع الفخار في الجزائر، الفخار بمنطقة القبائل، وندرومة، والفخار الصحراوي، وهو محل دراستنا في هذه المداخلة التي سنحاول فيها تناول جانب مهم من جوانب الصناعات التقليدية في منطقة بشار والتي تعتمد على هذه الصناعات في استقطاب السُّواح والحفاظ على الإرث الثقافي والحضاري للمنطقة، على غرار حرفة الترميل، والسلالة، وصناعة المجوهرات وغيرها من الفنون الرائعة.

يوجد في الجزائر نوعان من الفخار:

1. الفخار الريفي:

وهو موجود بكثرة وهو يستلهم أشكاله من سجل قديم وثري بالرموز والأشكال الإيحائية.

وتعد منطقة القبائل من أكثر المناطق محافظة على هذا الموروث الفني من خلال تنوع الأواني الفخارية: كالمزهريات، الجرار، أواني الطعام، وتبقى هذه الصناعة مزهرة وراسخة في المجتمع الجزائري لارتباطها الوثيق بأدوات المطبخ.

2. الفخار في المدينة:

يتميز الفخار في العديد من المدن بتأثره بالأشكال الإسلامية.

تزخر منطقة بشار بصناعات تقليدية عديدة أهمها الفخار الذي يعدّ من أكثر الفنون التطبيقية التشكيلية انتشاراً فهو جزء من تقاليد المنطقة ويعبّر عن الواقع الاجتماعي من خلال النماذج والأشكال المدروسة.

وحرفة الفخار عند أهالي منطقة بشار جزء من أصالتهم وهويتهم، وتُورَّث جيلا عن جيل.

والفخار يصنع من الطين المحروق دون طلاء ومادته أقل نقاء من طينة الخزف وجدرانه غليظة وهشة ويستخدم في صناعة القُلل والأواني المطبخية[2].

ونظراً لحاجة الفرد للأواني الفخارية فإن حجمها يختلف على حسب اختلاف نوع الحاجة، فهناك فخار للاحتياجات اليومية لاستعمالات في المطبخ، وهناك من يستعمله للزينة والتجميل[3].

ويعد الطين المادة الأولية لصنع الأواني الفخارية، حيث يستخرج من مناجم خاصة، ولمنطقة بشار طينات مختلفة وأبرزها من حيث الاستعمال:

أ) **الطينة العادية**: وهي التي يصنع منها الفخار ذو اللون البني الفاتح والذي يعطي وحدة اللون للأواني الفخارية بعد تجفيفها وتسويتها ومرونتها»[4].

ب) **الطينة الحمراء**: والتي نجدها في مناطق كثيرة لأنها قريبة من سطح الأرض ويمكن الحصول على كمّيات كبيرة منها بسهولة وقد توجد على شكل ترسبات واسعة في الوديان والسهول[5].

ج) **الطينة البيضاء**: وهي منعدمة في الصناعة المحلية ببشار رغم جودتها وتحملها لدرجة حرارة عالية.

ينقسم الخزف من حيث المواد المصنوع منها وطريقة صنعه إلى ثلاثة أنواع:

- **النوع الأول:** أوان مصنوعة من طينة (عجينة) حمراء محروقة مطليّة أو غير مطلية، ويعرف هذا النوع بالفخار، وينقسم هذا الأخير إلى ثلاثة أقسام: فخار غير مطلي، وفخار مطلي، وفخار من طينة سوداء[6].

- **النوع الثاني**: أوعية مصنوعة من طينة (عجينة) بيضاء جيدة ويعرف هذا النوع بالخزف وتتكون العجينة الجيدة منه على ثلاثة مواد: مواد مرنة ومواد خشنة ومواد صاهرة[7].

- **النوع الثالث**: الأواني المصنوعة من خزف شفاف تسمح عجينتها بمرور الضوء وتعرف بالبورسولين وتمتاز هذه العجينة بنقاوتها إلى حد بعيد، وللحصول على الثلاثة السابقة يجب أن تمرّ صناعته بمراحل عديدة هي[8]:

1. **مرحلة الأعداد والتحضير .**
2. **مرحلة التشكيل .**
3. **مرحلة التجفيف والحرق.**
4. **مرحلة الزخرفة.**
5. **مرحلة التلميع.**
6. **مرحلة الحرق الثانية.**

والطينة الحمراء هي الأكثر استعمالا في حرفة الفخار بين أهالي منطقة بشار، وبعد إحضار الطين يقوم الحرفي بتنظيفه من الشوائب العالقة ثم يقوم بكسر الكتل الطينية ثم تبلّل بالماء ثم يضاف إليها بقايا الآنيات القديمة أو نشارة الخشب. وبعد خلط المواد مع مادة الطين تترك ليومين أو ثلاثة حيث توضع في أكياس بلاستيكية لتخميرها وتجدر الإشارة أن إضافة القطع القديمة المكسرة من الفخار والتي تسمى بالعامية بـ»التفون» الذي يترك نعومة للمصنوعات ويعطي الفخار خفة حسب الحرفيين»[9].

ويتم تكوين الطينة غالبا باليد وإذا زاد الطلب يتم تحضير المادة بالاستعانة ببعض الشباب القاطنين بالمنطقة ويتم تحضير الطينة في حوض واسع أو أحواض تشبه أحواض صباغة الجلود مستعملين الأرجل لكسب الوقت[10].

والتربة الكاشفة تصلح لصنع أواني الشرب من الفخار كالجرار والشربات،... وهناك ما يسمى بالتربة الكامدة فهي أكثر خشونة والأواني المصنوعة منها أكثر سماكة وهي في صنعتها أقل دقة لقلة طواعيتها أثناء التشكيل ويمكن الإفادة منها في صنع تشكيل القطع الفخارية الكبيرة التي تستوجب أن تستوي بدرجات حرارة عالية قد تصل إلى 1000 لذلك قد تسمى لبعض من هذا النوع من التربة ما يعرف بالتربة النارية التي تتحمل درجة الحرارة العالية[11].

تأتي بعد ذلك مرحلة تشكيل العجينة وهي تتم بثلاثة وسائل: أولها باليد ومع أن استعمال اليد هو أقدم الوسائل التي عرفها الإنسان منذ عرف الأواني المصنوعة من الطين إلا أنها تحتاج إلى مهارة فنية عالية والوسيلة الثانية هي استعمال الدولاب في عملية التشكيل وقد لجأ الإنسان لاستخدام الدولاب في أول أمره لتشكيل القطع الأسطوانية وقد عرف الدولاب منذ أقدم الحضارات، فقد عرفه قدماء المصريين... ثم تطورت الدواليب وتعددت أنواعها فبعضها يدار باليد أو بالقدم، إلا أن الدولاب الروماني ذا القرصين هو الذي شاع استعماله في العالم القديم ولا يزال يستعمل في وقتنا الحالي.

أما الطريقة الثالثة فهي تشكل بواسطة الصب في القوالب وتستعمل هذه الطريقة غالبا إذا تتوفر الطينة الصالحة للإنتاج التجاري باستعمال الدولاب[12].

وقد لاحظنا في الواقع صناعة الفخار بمدينة بشار أن عملية التشكيل للعجينة قد تتم إما بـ:

- ✓ التشكيل اليدوي بأساليب المختلفة.
- ✓ التشكيل على الدولاب (العجلة) الذي يدار بالقدم أو الكهرباء.
- ✓ التشكيل بالماكينات الدوارة والمكاسب.
- ✓ التشكيل بقوالب الجبس إما بأسلوب الضغط داخلها أو الصب بالطينات السائلة.

ويتم التشكيل أيضا بطريقة الحبال: وتستوجب هذه الطريقة الطينية المتماسكة ذات الليونة والتجانس وذلك بعمل حبال ذات سمك متقارب وطول مناسب ويبدأ ببناء قاعدة على شكل دوائر حلزونية فوق بعضها. ومن ميزات هذه الطريقة أنها تتيح أشكالاً مناسبة باستخدام أدوات بسيطة[13].

ويتم تحضير الطين الناعم، وبعد تخميره في الماء لمدة يوم واحد ثم يوضع على لوح خشبي لمدة يوم واحد حتى يصبح عجينا حيث يُداسُ بالقدمين أو باليد حتى يكتمل عجنه ثم يقطع منه ويوضع على سطح مكتبة دولاب الفخار، بعد ذلك تدار بواسطة القدمين وتشكل عجينة الطين بواسطة اليدين خلال دورانها حسب الطلب من أجل التشكيل[14].

وعند انتهاء الحرفي من تشكيل القطعة على الدولاب يعمد إلى تزيينها بلمسات فنية وزخارف ومن ذلك إحداث خيط بارز أو محفور حول العنق أثناء الدوران[15].

أما المرحلة الثالثة في صنع الأواني الفخارية فهي عملية التجفيف أو الحرق، وهي آخر الخطوات في تشكيل الإناء قبل زخرفته، فبعد أن تجفف الأواني تجفيفا طبيعياً، وبالتدريج تصبح معدّة لحرقها لتتحول من طينة جافة إلى خزف. وتحرق الأواني في درجات حرارة مختلفة حسب تركيب طينته، فالطينة الحمراء (أي الفخار) المحتوية على أكسيد الحديد لا تتحمل درجات الحرارة المرتفعة ويكفي لحرقها الوصول إلى درجة 900 سنتجراد تقريبا، أما الطينة البيضاء مثل الكولين وهي التي تحتوي على مادة الأليومين بوفرة ويقل بها أكسيد الحديد والمواد الغريبة الأخرى، فإن حرقها يتطلب درجات حرارة مرتفعة تصل إلى 1100 سنتجراد.

ويسمى حرق الأواني بعد عملية تشكيلها مباشرة، بالحرق الأول، إذ أنها تحرق مرة ثانية وثالثة ورابعة في بعض الأحيان بعد دهانها بالطلاءات المختلفة[16].

وعملية الحرق إما أن تتم في فرن تقليدي خاص بالحرق يسمى عند البعض الكانون أويتم

حفر حفرة حيث تتم عملية الحرق عن طريق جذوع النخيل، كما يبين الحرق عن طريق جذوع النخيل. كما يبين الحرق مدى صلابة تركيبة الجسم ومدى تحمله للنار ودرجة تماسك جزئياته وتفاعلها مع بعضها[17].

أما المرحلة الرابعة فيتم فيها طلاء الأواني وزخرفتها وهنا يظهر الذوق الفني ومدى إبداع الحرفي، في استعمالاته للزخارف المتنوعة وقد شاع استعمال نوعان من الزخارف: الهندسية والنباتية والتي هي عبارة عن وحدات زخرفية يشكلها الحرفي في التعبير عن خياله وبعد نظره.

ويستعمل الرسم باستعمال ورق الكاربون ويعتمد على قلم الرصاص من نوع (hb) أو (hu)، والرسومات التي تدرج على المنتوج الفخاري لها أشكال متنوعة إما أن تكون هندسية أونباتية أو كتابات بالخط العربي أو المزج بينهما وهذا على حسب طلب الزبون، ولكل شكل ثمنه الخاص به[18].

وقد تتنوع الوحدات الزخرفية من طبيعية كفن التوريق الهندسية المعتمدة على أشكال المثلث والمربع والمستطيل والدائرة وغيرها، والوحدات الزخرفية الحية والتي تعتمد على الخطوط الحرة ومعرفة التكوين البنائي والتشريحي للطبيعة، والوحدات الزخرفية الكونية، والتي تشمل مظاهر الكون من السّحب بتشكيلاتها المختلفة وكذلك الأبراج السماوية، وكذا البحار والرياح والأرض وما عليها من كثبان رملية وسهول وغيرها»[19].

وقد تختلف وسائل الزخرفة من ألوان مائية أو تزينية وحتى الترابية والتي تعني تزيين الآنية الفخارية بمادة التراب ولكن بلون مغاير.

أنواع المصنوعات الفخارية:

نجد المصنوعات الفخارية في منطقة بشار والمصنوعة بالطين الأحمر، أواني الطعام والشرب وأوان مختلفة أخرى:

- **الصحون**: تمتاز صحون المنطقة بشكلها الدائري وعدم وجود القواعد في الأسفل، وتمتاز بسمك حجمها ولاسيما الصحون (القصارى) التي تستعمل في صنع الكسكس.

- **الأقداح**: وتأتي في صدارة المصنوعات الفخارية لأنها تستعمل في طبخ الطعام وهي تتسم بكونها أوعية ذات قواعد مستوية غير مستديرة لأنها توضع فوق المناصب وتشغل النار من

الأسفل لطهي الطعام، ويظهر للقدر عروتان قرب الفوهة من الجانبين وحافة دائرية وسميكة بوضع غطاء له مقبض من وسط الغطاء شكله كروي أو بيضوي.

أواني الشرب:

- **القلقل:** تصنع من الطين ولها شكل دائري وتستعمل لحفظ الماء وتبريده ومنها ما يستعمل لحفظ اللبن ومنها ما يستعمل لحفظ اللبن ومنها ما يستعمل لحفظ المنتوجات الزراعية، ويوضع في فوهة القلة العادية ويُسمونها (بيقبيق) وهناك نوع آخر يسمى (غلوس) ويستعمل لجلب الماء لدلك وضع له الفخاريون عروتين.

- **الأزيار**: يختلف زير المنطقة عن باقي الأزيار في المناطق المجاورة وبدنُهُ يشبه بدن القلة ولكنه يختلف عنها في شكل الرقة إذا أن الزير الذي يصنع بالمنطقة له رقبتان جانبيتان وله صمام مصنوع من الطين يوضع في فوهة الرقبة له مقبض نصف دائري وله من الأسفل قاعدة صغيرة قليلة التجويف تأخذ في الأخير شكلاً دائر يا ويمكن وضع الزير على سطح مستوي على عكس القلة.

- **الجدار:** وهو جمع جرة، وتستعمل لشرب الماء.

- **الأكواب**: وهو الكائن أو الطاس يأخذ شكلاً أسطنوانياً، والأواني المستعملة للشرب والطعام لا تزخرف بواسطة الرسومات.

الآلات الموسيقية الفخارية:

يصنع من الطين ما يعرف بـ(أقلال) واهتم به نساء المنطقة للتنفيس عن همومهن من جهة وليعبرن به عن أفراحهم وهو أنواع أهمها:

أقلال: وهو كبير الحجم بوضع تحت الإبط بمشد وينقر عليه حيث يستعمل في رقصة البارود ورقصة الطبل.

أقلال (الربوعي): وهو أقل حجما من الأول كما يختلف عنه الايقاع، أما الصغير (بقالي- أبقة) فيمسك بقبضة اليد وعادة ما تتسلى له الفتيات في المناسبات والدربوكة[20].

التحف الفنية:

منها المزهريات وهي حديثة الصنع بالمنطقة وقد أصبح الفخاريون يتفننون بمادة الطين لإبداع بعض التحف (كالمبخرة).

ولعل آخر مرحلة هي مرحلة التلميع، وتنقسم الدهانات إلى نوعين: دهانات شفافة وأخرى غير شفافة»[21].

وعملية تلميع الأواني الفخارية تعطيها ميزة خاصة إذا ما تعلق الأمر بالفخار الخاص بالديكور»[22].

وبعد أن تتم عملية التلميع للأواني الفخارية يتم حرقها من جديد في الفرن في درجة حرارة عالية ولمدة 24 ساعة فتصبح لامعة وتتحول بذلك إلى خزف.

ولعل خاتمة مداخلتنا سنحاول من خلالها جمع أهم خصائص الفخار بمنطقة بشار، والتي تعد من أهم المناطق الجزائرية في هذه الصناعة، ويعتبر حرفيوها من المتشبثين بهذه الحرفة التي توارثوها أبا عن جد.

ولعل أهم ما يميز هذا النوع من الفخار الصحراوي وينعكس ذلك من خلال مواد الصناعة وخاصة الألوان الرملية النابعة من المنطقة كما أن الأشكال أكثرها هندسية أو نباتية، وقد أدرجنا نموذجا لمزهرية بها زخارف كونية، مجسدة في أمواج البحر الذي قد يشتاق إليه ساكنو المناطق الصحراوية لذلك يحاولون محاكاته والتماسه من خلال الأشكال المرسومة على المزهريات والآنيات.

ولعل الميزة المهمة الثانية أيضا هي غلبة الألوان الداكنة من البني الغامق إلى التدرج في البني والأسود والقرميدي، وذلك طابع خاص بالمنطقة فهو يتجسد أيضا في ألوان المنازل والعمائر.

تظهر في فخار مدينة بشار أشكال هندسية مستمدة من أشكال منطقة تمنراست وسكان الطاسيلي وهي زخرفة غالبة من بشار إلى القنادسة وأدرار. وقد تنعكس الأشكال الموجودة في المجوهرات الفضية على الآنيات الصحراوية وحفاظا على الطابع الصحراوي المتجذر في هوية الإنسان المحافظ على ثقافة الأصلية.

ملاحظة أخرى مهمة تخص الفخار بالمناطق الصحراوية، هو أن الأواني البسيطة والمستعملة يوميا لا تنفق عليها طلاءات غالبة، في حين يتفنن الحرفي في زخرفة الأواني الغالبة والمزهريات.

لا يزال الحرفيون في منطقة بشار، على غرار الكثير من الحرفيين في الجزائر، يستعملون الأساليب

التقليدية في صناعة الفخار، لا لشيء سوى للمحافظة على هذه التقنية الفريدة من نوعها في الصنع، ومع أن التطور قد مسَّ الكثير من المجالات إلا أن هؤلاء لا يزالون يعشقون الدولاب والعجن البسيط حتى تلامس أياديهم تلك الطينة النقية والبسيطة، بساطتهم وبساطة بيئتهم الجميلة.

طرق صناعة الفخار وتزيينه وعرضه بمنطقة بشار

هوامش البحث:

1 . سهاد ماهر، الخزف التركي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، طبعة 1397هـ-1977م، ص:3.

2 . الملتقى الثاني للبحث الأثري والدراسات التاريخية، الفخار في الجزائر، أدرار في 1994م، ص:66.

3 . مرزوق محمد بن عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، (ح)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ص:100.

4 . عقاب محمد الطيب، الأواني الفخارية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص 21.

5 . بيلينكشون دورام، فن الفخار، صناعة وعلماً، ترجمة: عدنان خالد وأحمد شوكت، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، 1974م، ص:5.

6 . Arsenaux : Les arts décoratifs, p :169.

7 . سعيد حامد الصدر، الخزف، المطبعة الأميرية، 1958، ص:9.

8 . نفسه، ص:13.

9 . سيمو حياة، الحرف التقليدية بولاية بشار حرف الترميل والفخار والسلالة نماذج، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم الثقافة الشعبية، 2011م2012-م، ص:192.

10 . نفسه، ص:192.

11 . نفسه، ص:192.

12 . W.P Parry ; Pottery for schools, (London), pp:35 – 36.

13 . سيمو حياة، المرجع السابق، ص:137.

14 . صناعة الفخار، من موقع: www.alruyadh.com.

15 . عقاب الطيب، المرجع السابق، ص:23.

16 . سعاد ماهر، المرجع السابق، ص:48.

17 . صناعة الفخار، من موقع: www.alruyadh.com.

18 . أحمد صربي زايد، دراسة مبادئ وأصول القواعد الزخرفية وعناصرها وأساليبها، دار الطلائع للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر، 1998م، ص:15.

19 . نفسه، ص:23.

20 . سيمو حياة، المرجع السابق، ص: 169 – 168.

21 . Kerny; The complte book of pottery, Making, p: 200.

22 . الصناعة التقليدية الجزائرية، نشر المؤسسة الوطنية للاتصالات والنشر والاشهار، Anep، أفريل 1998، ص:87.

عوامل وأسباب اندثار القصور الصحراوية
وسبل المحافظة عليها قصور منطقة توات أنموذجا

أ. أمحمد منصوري (المركز الجامعي للبيض)

Abstract:

The desert palaces are one of the most important archaeological and cultural attractions that abound in the Algerian Sahara, which is one of the important evidence of the human being presence and association in this region, due to the difficulty to live in and to the harshness of the natural conditions, but he was able to break and overcome them and build palaces and buildings that were able to resist extinction and collapse because of the surrounding various kinds of factors. For this we must maintain, preserve and repair it so that we keep a witness and a link between the ancestors and future generations as well as to take advantage of them in the desert tourism development. The following problem raises after all: What are the causes and factors of the demise of palaces and desert buildings and how they can be maintained and preserved?

مقدمة:

تزخر الصحراء الجزائرية وخاصة منطقة توات بالعديد من القصور ذات الطابع الصحراوي، بنيت بمواد محلية محضة، تتمثل في الطين، الطوب، وخشب النخيل والملاط وهذا راجع الى طبيعة المنطقة التي تتميز بارتفاع درجة الحرارة في الصيف والبرد القارص في الشتاء، كل هذه العوامل متتداحلة فيما بينها ادى الى تأثيرها على خواصها الكيمائية والفيزيائية والقوة الميكانيكية للمواد مما جعلها عرضت للانهيار والاندثار، ومن خلال هذه المداخلة اردنا ان نتطرق الى مواد بناء هذه القصور وأسباب وعوامل اندثارها وكيف يمكن صيانتها والمحافظة عليها.

أولا- مواد البناء:

من خلال استطلاعنا على المباني التواتية تبين لنا أن المواد المستعملة في عملية البناء مواد

محلية استخلصها البناء من البيئة المحيطة به والمتوفرة بكثرة ويمكن الحصول عليها دون أدنى تعب وعناء، وتتمثل فيما يلي:

1. الطين:

يعتبر الطين منذ الاف السنين وسيلة من وسائل البناء وهو عبارة عن عجينة من التراب الناشف مضاف إليها الماء، حيث عرفت هذه المادة إقبالا واسعا لدى سكان المنطقة، واستعملت في ربط وتماسك الحجارة والطوب، والطين يحتوي على أنوع مختلفة من المعادن[1]، هذه المعادن تعطي للطين لونا معينا مثل اللون الأسود أو الأبيض أو الأصفر أو الأحمر[2] وتمتاز هذه المادة في كونها عازلة ولينة يسهل تشكيلها لأنها تمتص نسبة عالية من المياه تقدر ما بين 60% الى 70% من وزنها وهي على نوعين فمنها الطين الدسمة ومنها الضعيفة، ولكي تكون قابلة لعملية الإستعمال ينبغي أن تكون نسبة مكونتها على الشكل التالي كما هو موضح في الجدول التالي[3].

المادة	الرمز الكيميائي	النسبة المئوية
اكسيد السيليس	SO2	35% الى 85%
الألمنيوم	AL2O3	9% الى 25%
الجير	Cao	0% الى 25%
المغنيزيوم	Mgo	0% الى 25%
اكسيد الحديد	Fe2O3	3% الى 9%
ثاني أكسيد الكاربون	CO2	0% الى 13%
الماء	H2O	5% الى 11%
أكسيد قلوي	K2+Na2O	1% الى 5%
أندريد كبريتي	SO3	0% الى 3%

2. الطوب:

استعمل في بناء المنزل الطوب المحلي المجفف في الشمس، ويعد أحد العناصر الرئيسية المكونة للبناء وتتم طريقة تشكيله على النحو التالي، تخلط الطين الخام مع الماء والرمل فقط إذا كانت من النوع الضعيف ويضاف لها التبن أو سعف الجريد للتقليل من دسمها ميزيد من تماسكها، ثم القيام بخلط الخليط جيدا بالأرجل ويقلب بالمعول حتى يذوب ويصبح عجينة طرية متماسكة، بعدها يصب الطين بكميات في قالب خشبي مستطيل الشكل بدون قاعدة ثم تسوى بالأيدي، وبعدها تنزع من القالب هذا من جهة ومنجهة أخرى عن طريق اليد حيث تشكل كومة من عجينة الطين وبعدها يتم ضربها بأصابع اليد وكفها وهنا يكون شكل الطوب

دائري، وعلى هذا النحو تستمر العملية حتى ينتهى من تشكيل كل العجينة، وبعد الانتهاء من هذه العملية يترك الطوب المشكل في الشمس لبضعة إيام حتى يجف ويكسب صلابة.

شكل رقم (5) طريقة تحضير وصنع الطوب

وفي بعض الحالات يقوم الصانع بعد أن يجف الوجه العلوي بتقليبه حتى يجف الوجه السفلي، ويعتبر الطوب المجفف في الشمس من المواد النظيفة بيئيا والعازلة للأصوات والغير الموصلة فهو يحتفظ بالحرارة طوال النهار وينشرها ليلا وذلك لضعف مقاومته الطبيعية بـــ 0.22 حريرة لكل دقيقة منه وبالسنتمتر مربع[4].

ويفضل صناعة الطوب في أوقات الربيع والصيف لتفادي سقوط الأمطار ولتجفيفها جيدا[5]، ومع ان الطوب يعتبر من المواد الغير مقاومة للعوامل الطبيعية إلا أنه بإمكانه أن يدوم لفترة طويلة، والسبب في ذلك يكمن في قلة نسبة الرطوبة الصحراوية وشدة مقاومته للإهتزازات[6].

3. الملاط الطيني:

وهي المادة الأساسية المستعملة للرلط بين مكونات الجدران، ويكون بالوان مختلفة حسب التركيبة التي يحتويها وهو مكون اساسا من الطين الجاف والرمل ومنه المتكون من الجير والرمل ومنه ما يسمى بالتشمنت وهو عبارة عن ملاط محلي أستعمل بكثرة في قصور توات له لون وردي، يتم الحصول عليه من الجبس الرطب من أصل السباخ، يأخذ شكل أكوام أو

طبقات أفقية تبلغ 1م من العمق[7]، وصناعة الملاط الطيني لاتختلف كثيرا عن سابقتها من حيث تشكيلها أو نسب المواد المكونة منها فالملاط الطيني يعد لربط وتماسك الجدران.

أما الملاط المخصص لتلبيس الجدران يحضر عن طريق مزج الماء والطين حتى يتم الحصول على سائل طيني صافي، عند ذلك يضاف له الرمل الصافي ويخلط الكل دفعة واحدة حتى يصبح ملاط لزجا، ويستعمل كذلك لتلبيس الجدران وفي عملية التسقيف إيضاً، وما تجدر الإشارة اليه أنه كلما ازداد سمك هذه المادة كلما ازداد العزل الحراري[8]، وللملاط دور كبير في ربط وتماسك مواد البناء بما أن له أهمية كبيرة لمميزاته العديدة المتمثلة في:

- التحامه الجيدمع مواد البناء,
- سرعته في التصلب.
- مقاومته للضغط وللتأثيرات المناخية.
- غير مسامي إذ أنه يحمي البناء من الرطوبة.
- يلعب دور هام في تسوية المساحات غير المنتظمة أثناء البناء

ويقول ابن خلدون في وصفه للملاط " ..... فمنها البناء بالحجارة أو الأجر يقاوم بها الجدران ملصقا بعضها البعض والكلس الذي يعقد معها فيلتحم كانها جسم واحد ....."[9].

4. الخشب:

يعد الخشب من بين المواد الأساسية التي أستعملت في المباني والقصور التواتية بولاية أدرار منذ وقت مبكر فصنعت منه الأبواب والحوامل والسقوف وفي عملية الربط بين الجدران وغيره، ويشير ابن خلدون الى أهمية الخشب في حياة الإنسان فيقول: " ويتخذ كأوتاد وأعمدة لخيام البدو الرحل... " أما الخشب المستعمل بكثرة خشب النخيل ويعود ذلك لغناء المنطقة، بهذا النوع من الأشجار، حيث يتم إستغلال النخلة الكبيرة في السن في عملية البناء بعد قطعها يتم تقسيمها طوليا الى قسمين أو اربعة اقسام حسب ما يتناسب وطبيعة المبنى، ثم تترك لبضعة أيام تحت أشعة الشمس حتى تجف وتصبح صالحة للإستعمال، فهي تستعمل في عملية تسقيف المباني وكوسيلة من وسائل الدعم في السلالم وفي صناعة الأبواب.

ثانيا- تقنيات البناء:

إن تقنيات البناء هي تقليدية تخضع الى المواد الأولية المنوفرة بالمنطقة بالدرجة الأولى، والى

الظروف المناخية والعوامل المؤثرة بالدرجة الثانية، ولهذا فقد اهتم المعماريون في إقليم توات بالبناء وتفانوا في تقنياته، وذلك لإيجاد كل الوساءل لضمان سلامة المبنى من جهة ومن جهة أخرى ضمان استقرار أجزائه مع مراعاة الجانب الطبيعي من هزات وزوابع رملية، ونذكر من هذه التقنيات مايلي:

1. الأساسات:

حيث يقوم البناء بعملية البحث عن الركيزة الأساسية التي يستطيع أن يضع عليها البنية الأولى للجدار لكي تسمح له بتوزيع هذا الثقل بطريقة متساوية ومتناسقة مع مكونات المبنى، ويكون عمق هذا الأساس حسب صلابة الأرضيات، فالأساس هو وضع قاعدة المبنى أو الأعمدة الحاملة في الأرضيات وتثبيتها حتى تتحمل الثقل، لذلك نلاحظ ارضية المبنى وخاصة في الجنوب جزئها السفلي أغلظ وأسمك من الجزء العلوي[10]، اما في المباني الرومانية القديمة كانت الأسس، تقدر بـ50سم تقريبا[11].

2. الجدران:

بنيت بالطوب المركب بطريقة منتظمة احيانا واحيانا بطريقة غير منتظمة، ويختلف سمكها من جدار الى اخر، وكلما زاد ارتفاعها قل سمكها بحيث تبلغ في القاعدة 1م وتضيف كلما زادت علوا إلى أن تصل 15سم، أما إذا بلغت هذه الجدران مستوى السطح فهنا تكون الاحاطة على شكل سياج فقط، اما المادة الرابطة فهي الملاط بأنواعه حسب نوعية الجدار، ولتلبيس الجدار بملاط من الطين أستعمل البناء قطعة خشبية مستوية وفي بعض الاحيان يستعمل حتى اليد التي تترك أثار واضحة على الجدران، وكان البناء يستعين بالخيط للحصول على جدار مستقيم.

الصورة رقم (1): تبين الفرق في سمك الجدران كلما ارتفعنا عن الأرض

3. السلم:

بنى السلم بجذوع النخيل وتدخل مادة الدبش هي الاخرى في تكوينه ومادة التشمنت كمادة رابطة[12] حيث توضع مجموعة من جدوع النخيل لا تتعدى ثلاثة جدوع، وذلك بشكل مائل يتماشى والشكل المطلوب بحيث ترتكز في اسفل السلم على مجموعة من الحجارة في حين يستند طرفها الثاني على الجدار وبعد وضع الحجارة تغطى بالطين أو التشمنت كمادة لاحمة لتوضع بعدها قطع مهذبة ذات شكل مستطيل لتشكيل القائمة والنائمة لدرج السلم، وفي الاخير تبلط بملاط من التشمنت لقدرته على مقاومة التقلبات الجوية[13].

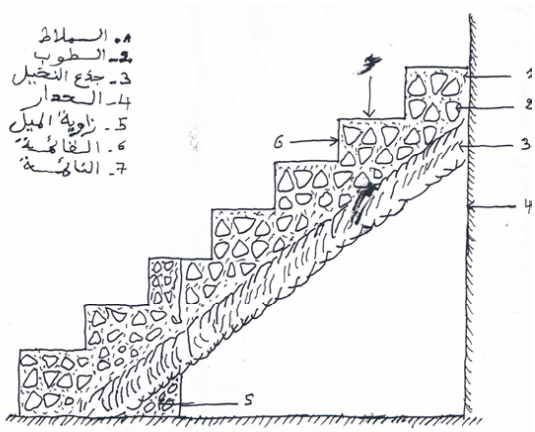

الشكل رقم (2) تقنية بناء السلم

4. التسقيف

إن تقنية التسقيف بواسطة جذوع النخيل من أوسع الطرق انتشارا بإقليم توات، والسقف له شكل مسطح إذ توضع مجموعة من قطع الخشب المهيأة مسبقا بشكل طولي على الجدران تبعد عن بعضها بنفس المسافة ثم يوضع فوقها الكرناف بعد ذلك بالتشمت أو الطين ليصقل في الأخير بطبقة ملساء من التشمنت، ويراعى في بناء هذا النوع من السطوح انحدارها في اتجاه وجود الميزاب لمنع تجمع المياه، وفي هذه التقنية لا يتعدى طول الغرفة ثلاثة أمتار على حسب طول خشب النخيل ويزداد العازل الحراري بزيادة سمك المادة الطينية والتشمنت المستعمل فوق الشدة على شرط أن لا يتعدى 40سم لارتباطه بمدى تحمل قطع الخشب لهذا السمك[14].

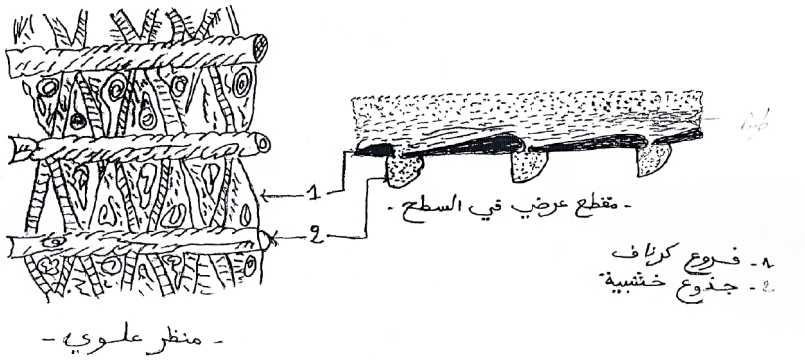

الشكل رقم (3): يوضح تقنية التسقيف

ثالثا- عوامل التلف وأسباب الانهيار:

إن عوامل وأسباب انهيار المعلم عديدة ومتعددة، حيث قمنا بتقسيمها الى ثلاثة أسباب رئيسية، بالإضافة إلى أسباب لها صلة بالمادة الأصلية، والتي تتمثل في:

1. عوامل طبيعية:

ويقتصر هذا العامل على ثلاثة عناصر أساسية وهي:

أ. الرطوبة:

تحتاج جميع المباني الى عزل تام من الرطوبة والمطر، المياه الجوفية والسطحية ومن مساوئ تأثير الرطوبة ومياه الرشح على المباني أنها تساعد على تلف العناصر وموادها الإنشائية والبنائية مما يؤدي إلى قصر عمر حياة المبنى بخلاف تعفن المواد المساعدة على تكاثر الحشرات والفئران والطحالب والفطريات[15]، كما تلعب الرطوبة دورا مهما في اغلب العمليات الكيميائية لتلف، فان تأثيرها على ثبوت الأبعاد والخصائص الفيزيائية لبعض المواد تكون كذلك ذات أهمية كبرى، فالخشب قد ينحني ويتشقق في حالة ارتفاع وانخفاض الرطوبة، حيث لا تستطع الطبقة المستعملة ان تتماشى مع تمدد الخشب وتقلصه عند تغير الرطوبة فتحصل عملية التقشط على الأرجح، وتلاحظ هذه التأثيرات على الأغلاب في المناخ الحار والجاف، إذ لا يتقلص الخشب بدرجة ملحوظة فحسب بل ان الهشاشة تعتريه[16]، ولرطوبة اسباب كثيرة ومتعددة يمكن تلخيصها كالأتي:

- مياه الأمطار:

نظرا الى أن القصور تقع في بيئة صحرا وية نادرا ما تتساقط فيها الأمطار إلا أن ذلك لا يمنعنا من الحديث عن هذا العامل، وذلك لأن مواد البناء التي بنيت بها هذه المعالم هي شديدة التأثر بمياه الأمطار التي تعمل على تفكيك مواد البناء المستعملة وكذا قدرتها على الأختراق المباشر لسقف المباني وعناصره المختلفة خاصة ذا علمنا أنها تتهاطل في هذه المناطق بصفة مفاجئة وأحيانا تكون غزيرة وتدوم لفترة تصل حتى 48 ساعة، وقد تتسبب في تهديم الكثير من المباني وغالبا ما تنجح مياه الأمطار من التغلغل داخل المبنى من خلال الفراغات بين الحوائط والشبابيك وكذلك من مسامية مواد البناء وسطح السقيفة، ويعتبر المطر العامل الأساسي والرئيسي في تجوية المباني المشيدة بالطوب اللين، حيث أن زيادة المياه إلى تفريق معادن الطين بصورة كاملة، ثم تزيحها بعيدا عن مكانها، هذه الحالة تحدث مباشرة عندما تتعرض المباني الى امطار قوية وتحدث بصورة غير مباشرة عندما تسيل المياه على جدرانها[17].

- المياه الجوفية:

المياه الجوفية قد تتجمع تحت اساسات المعالم نتيجة انفجار ماسورة صرف أو أي عوارض أخرى ولهذا قد يحدث هبوط للمباني إن لم يعمل حساب لذلك مثل عمل مواسير صرف مفتوحة الوصلات أو خنادق صرف حول المباني خاصة في هذا الظرف الذي يشهد تحولات حضارية ومعمارية في هذه المنطقة.

- صعود الرطوبة الأرضية:

تصعد الرطوبة من التربة تحت المبنى الى الاساسات وذلك عن طريق الخاصية الشعرية من خلال مسام التربة ومواد البناء المستعملة في المبنى خاصة اذا علمنا ان البيئة الصحراوية تحتوي على مياه جوفية معتبرة يرتفع منسوب مستوى هذه المياه عن طريق الخاصية الشعرية وبالتالي تشكل خطرا على مستقبل المعلم ، وهناك اسباب اخرى مثل سوء صرف المياه في الموقع ، التكثيف ، المياه السطحية ...[18].

ويمكن تلخيص تأثير الرطوبة على المعالم في النقاط التالية :

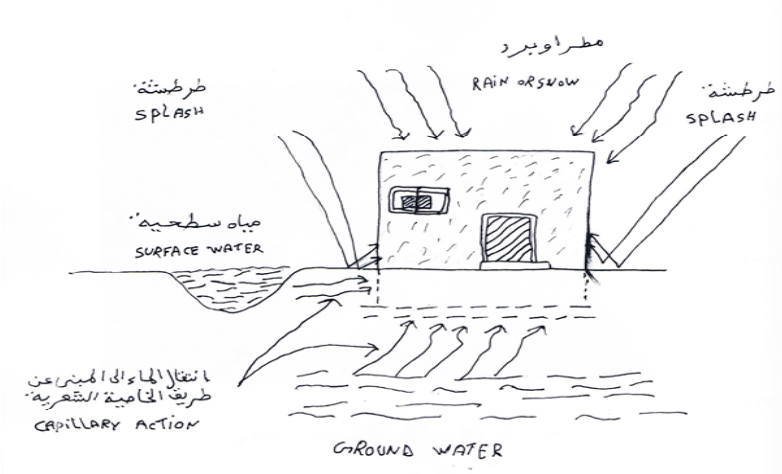

شكل رقم (4) مصادر المياه والرطوبة المؤثرة على المبنى.

- تعمل على تمليح الجدران واسقف وارضيات المعالم .

- تعمل على انحناء وافساد الخشب المستعمل في المباني .

- تعمل على إفساد جميع التكسيات الارضية والحوائط .

تعمل على تنشيط تكاثر الفطريات والبكتيريا والسوس في الخشب المستعمل في المباني[19].

ب. درجة الحرارة:

تؤثر الحرارة المرتفعة بشكل كبير على الأبنية والمباني الأثرية بسبب ارتفاعها وانخفضها مما يؤدي الى إضعاف الروابط بين المكونات الأساسية للبناء لأنها تتمدد بدرجات مختلفة وباتجاهات مختلفة، وتزداد في المناطق ذات المناخ الصحراوي، حيث يمكن ان ترتفع حرارة الواجهات خلال النهار الى 60 و70 درجة مئوية، كما يمكن أن تنخفض خلال الليل بشكل ملحوظ، كما أن تنوع ألوان الواجهات يمكن أن يسبب اختلافا في درجات التمدد، كما أن التسخين يؤدي لرفع درجة حرارة الطبقة الخارجية فتتمدد أكثر من الطبقات التي تليها مما يسسب تفككها وتسمى هذه الظاهرة بظاهرة التحرشف، وكلما كانت الفروقات بين درجات الحرارة أكبر كان تأثيرها أكبر خاصة وإنها تعمل على تفتيت المواد الأصلية لمكونات البناء[20].

الصورة رقم (2): تبين ظاهرة التحرشف تفتيت المواد الأصلية لمكونات البناء تحت تأثير الحرارة

ج. الرياح:

تعمل الرياح على ردم المباني والعناصر الأثرية بالتراب والرمل مما يشكل ضغوط عليها، كما تعمل على نحت الجدران وتفتيتها، وكثيرا ما نشاهد جدرانا وصخورا تقف على حواف مدببة كنتجية لهذه الظاهرة[21]، وتعمل أيضا على تجوية مباني الطوب اللين وهو عامل هام ويؤثر بصفة أساسية ومباشرة عن طريق الظاهرة المعروفة بالنسف بالرمل[22].

الصورة رقم (3): توضح تأثير الرياح على المباني الطوبية

2. عوامل بشرية:

تبقى التأثيرات السلبية لكل ما سبق مقبولة نوعا ما لأنها خارجة عن الأرادة، لكن تعدي الأنسان في هذه الحالات يكون غير مقبول، أما ما يسببه الإنسان عن غير قصد بسبب نشاطه الحياتي الأعتيادي يمكن أن نجد له عذرا، لكن مالا يمكن أن نجد لع عذرا هو الأثار الضارة الناتجة عن سوء الإدارة والتخريب المتعمد الذي يحدثه الإنسان واللامبالاة والإهمال، ولا سيما الحرائق والهدم والتكسير وكذا الترميم الخاطئ فهذا النوع من الهدم راجع الى عدم إدراك القيمة الأثرية والتاريخية للمبنى، هذا من جهة ومن جهة أخرى رغبته في التجديد والتماشي مع حركة التطور العمراني وغيرها من المشاريع، إن إرجاع مثل هذه الممارسات الى جهل وقلة الإحترام والإهمال لا يمكن أن يكون عذرا فإذا كان الانسان الذي وصل الى أعلى درجات الذكاء غير قادر على تنظيم نفسه والتعامل مع ممتلكاته بشكل لائق فهذا غير مقبول[23].

ويمكن اجتناب مثل هذه الاضرار عن طريق عمليات المراقبة المنظمة الفعالة والحراسة المشددة والمستمرة والزجر القانوني وتوعية الجمهور وتعريفه بتراثه واهميته وموقعه من التراث الثقافي العالمي[24].

3. عوامل بيولوجية وحيوانية:

تعد القوارض احد الكائنات التي لها دور كبير في تدمير وتهديم المباني المنجزة بالطوب خاصة الفئران التي تقوم بحفر حجور داخل المبنى وبالتالي تستطيع زعزعة أساسات المبنى، وكذا بعض الحشرات كالخنافس والصراصير، ومن بين الحشرات التي كان لها قسط كبير في تهديم المباني هي الأرضة والمعروفة بالنمل الأبيض وهي تمثل قسما من الحشرات المضرة خاصة بالابنية التي تركيبها خشبي، وبما ان المعالم جل سقفها كان من الخشب فانه كان له الباع الكبير في انهيارها.

ومن بين أنواع الحشرات التي تضر بالخشب الجاف هي من نوع kalotermitidae[25].

وهنا نحن نهتم أساسا بالنوع الذي يهاجم التركيب الخشبي، والأرضة تصنف إلى مجموعتين :

-1 أرضة الخشب الجاف dry_woodterminres.

-2 الأرضة الواقعة تحت سطح الأرض subterraneantermintes.

أما بالنسبة الأخطار الحيوانية فتعتبر الطيور من أخطر ما يؤثر على المباني الاثرية، فهي اذ

تجثم عليها في جماعات ترمي فضلاتها العضوية حيثما تقف، وهذه الفضلات ليست لا لشئ كما يعتقد البعض، إذ أنها تحتوي على الأقل على نوعين من جراثيم الامراض الخطيرة وهي بلاسمرزيم والتهاب السحايا الجرثومي، كما ان هذه البقايا العضوية ذات التفاعل الحامضي وأعشاش الطيور وحتى جثثها كلها تشكل مشكلة في التعامل مع الأبنية الأثرية والنصب والحفاظ عليها[26].

4. أسباب ذات صلة بالمادة الاصلية:

أ. عيوب الخشب المستعمل (جذوع النخيل):

إن الاستعمال الواسع للخشب في تركيبة المعالم كان له الاثر الكبير في تهديم وانهيار المعالم لما ماله من عيوب وتنقسم هذه العيوب الى عيوب طبيعية وأخرى إنشائية.

- **عيوب طبيعية:** يمكن تلخيص العيوب الطبيعية الرئيسية فيما يلي: العقد، الشروخ العميقة، الشقوق الحلقية، الالتواء، الاعوجاج، التقوس.

- **عيوب إنشائية:** عيوب الخشب كمادة قليلة ولكنها خطيرة ويجب مراعاتها وعلاجها وتتلخص فيما يلي:

- **التسوس:** ويأتي للأخشاب عن طريق حشرات السوس التي تعيش مع بعضها في مجموعة كبيرة، ويعتبر التسوس في الخشب من أخطر العيوب لأنه مثل السرطان يتزايد بكثرة وينقل إلى بقية الأخشاب القريبة منه وهذا العيب يؤثر على قوته الإنشائية ونظرا لكون أن سقيفة المعالم كانت تقريبا خشب وبالتالي فإن لهذا العامل القسط الكبير في انهيارها.

- **التحلل:** يحدث في الخشب بفعل البكتيريا او الطحالب مع وجود الرطوبة .

- **القابلية للاحتراق:** معظم الخشب قابل للحتراق مالم يعالج كيميائيا.

- **التمدد والانكماش:** تتأثر الاخشاب بالرطوبة والحرارة ويظهر ذلك بالتوائها وتقوسها.

ب. الطوب النيئ واضراره:

- حوائط الطوب لا تقاوم الرطوبة ومياه الامطار .

- حوائط الطوب النيئ تكون مكان جيد لمعيشة الحيوانات القارضة والحشرات وتكاثرها .

- سهولة تشقق الحوائط بفعل العوامل الجوية المختلفة وهذا ما يؤثر على شكل المباني.

- قصر عمر مباني الطوب اذا ما قورنت بمباني الطوب الأحمر[27].

رابعا- الحلول المقترحة للصيانة والترميم:

إن صيانة وترميم المباني والمعالم التاريخية لإيقاف التلف تستوجب علينا التدخل على المباني وتدارك التأثيرات الخطيرة وعلاجها ويشمل التقوية والإصلاح والتجديد.

أ. التقوية:

هي إضافة المواد اللاصقة أو الداعمة لإطالة بقاء بنية الأثر ويمكن استخدام الطرق الحديثة، ولكن عندما تكون مادة الأثر من المواد سريعة العطب مثل الخشب والطوب عندما يجب استخدام الطرق التقليدية.

ب. الإصلاح والتجديد:

نوضح في البداية ان سبب الاصلاح والتجديد في الحاجة الماسة اليه ويتضمن تجديد ما تلف من مواد الحماية كتساقط الكلسة أو تكسير جزء من مادة البناء أو الأجزاء الإنشائية الحاملة كالأسقف والجدران وفقرات الأقواس والأعمدة مما قد يؤثر على عنصر المتانة في البناء، وهنا يجب حد ما أمكن من عملية الاستبدال والاكتفاء بما هو ضروري جدا، إن إدخال أي تعديل أو تجديد على المباني وعناصره سيغير من معالمه ويقلل من قيمته، وهنا نصل إلى واحد من أكثر المفاهيم صعوبة في الترميم الحديث وهو الأصالة.

وبصفة عامة يجب ان تكون هناك قاعدة أساسية وهي يجب أن تتساوى قوة المواد المستخدمة في عملية الترميم مع قوة المواد الأصلية، أو تكون اضعف منها لأن النظريات أثبتت أنه إذا كانت المواد المستخدمة اقوى من المواد الأصلية فإنها تعجل من تلف الاجزاء القديمة التي تتصل بالاجزاء الجديدة وهذا ما يتعارض مع تقنيات صيانة المواد الأثرية[28]، أما بالنسبة لعملية الحماية والصيانة فهنا نخص بالذكر الحماية ضد العوامل الطبيعية كالرطوبة والحرارة وكذلك العامل البيولوجي والحيواني.

1. المكافحة ضد العوامل الطبيعية:

إن التحري الدقيق عن مصدر الرطوبة هو ضرورة أساسية للوصول إلى معالجة حالة

مرضية فالرطوبة تعتبر نتيجة لاحقة لتاثير قوى فيزيائية محددة غير متوازية في بناء ما ففي حالة وجودها يجب أن يؤدي المعماريون والمهندسون ما يشبه مهمة الأطباء، فيقومون بكافة الفحوصات الضرورية لتحديد طبيعة المرض ومن بين الحلول المقترحة لعزل الرطوبة عن المعالم أو المباني تتلخص فيما يلي:

- استعمال الطبقات العازلة للرطوبة:

الغرض من الطبقات العازلة للرطوبة هو منع انتقال مسارات الرطوبة أو المياه من منطقة إلى أخرى وكذا منعها من المرور بين مواد البناء وعدم انتشارها داخل المبنى سواء كانت جوفية أو مطر أو مياه الرشح عن طريق الخاصية الشعرية[29].

- التخلص من ماء المطر:

يجب أن تدرس مسالة التخلص من مياه المطر دراسة كافية نظرا لخطورتها، ومن الممكن استخدام أسلوب عمل مزاريب مناسبة لتصريف المياه من فوق الأسطح أو الأسقف وكذا استخدام اسلوب المنحدرات لدفع المياه اتجاه قنوات تؤدي الى نظام صرف جيد[30].

- استعمال العزل التام:

حيث يتم عمل سقف مبنى الطوب مع عمل ميول بالسقف تفضي إلى مزاريب جانبية لتصريف المياه من فوق السطح، ولا يجب السماح بتكوين برك مياه قرب الحوائط وهذه المباني يمكن ان تعيش لفترات طويلة إذا خضعت للحماية المستمرة وأهم النقاط الحيوية اللازمة لحماية هذه المباني هي:

نظام السقف، نظام تصريف المياه، الحفاظ على أساسات الحوائط، إصلاح السريع لمسألة هبوط المباني، حيث أن إجهادات القص الناتجة عن هبوط المباني ينتج عنها شقوق مختلفة طبقا لضعف قوى شد مواد البناء، مثل هذه الشروخ تكون خطيرة لو سمح للمياه بالتسرب إلى داخلها ووقاية بقايا الطوب عن طريق إعادة إصلاح السقف من فوقها مع عمل نظام جيد لتصريف المياه[31].

ب. الحماية من اشعة الشمس:

تعتبر الحماية من اشعة الشمس القوية بالمناطق الحارة من الأشياء الضرورية فمنذ القدم وسكان هذه المناطق يعملون على حماية أنفسهم منها، وعموما يمكن تقسيم حماية المباني من

أشعة الشمس الشديدة إلى مرحلتين هما:

- الإقلال من الأشعة المباشرة المنعكسة التي تسقط على المباني والواجهات.

- حماية المعالم من الأشعة الساقطة عليها[32]، وذلك برش او دهن الحوائط الخارجية والأسقف والواجهات التي تواجه اشعة السمش مباشرة باللون الأبيض لأنه يعمل على عكس الحرارة بدلا من امتصاصها عكس الألوان الأخرى باستعمال مستحلب الجير وذلك لتقليل من شدة الحرارة الساقطة على المعالم خاصة في فصل الصيف الشديد الحرارة.

2. المكافحة ضد العوامل البيولوجية والحيوانية:

أ - الحماية من الحشرات:

عند اصابة بناية ما بهجوم الأرضة، يجب حفر وهدم كل مواقع الخلايا وتعالج مثلا بمسحوق ثالث أوكسيد الزرينخ، وإذا كانت الخلية صغيرة فإن قليل من هذا المسحوق يدفع في الثقب الذي يعمل في مركز الخلية وقد أجريت الإختبارات في معهد CSIRO في استراليا ولوحظ أن كمية قدرها 1.75 غرام تقتل مستعمرة تحتوي 1.5 مليون نملة أرضة في مدة أسبوعين[33].

ب. الحماية من الطيور:

من الحلول المقترحة والتي جربت وأعطت ثمارها الكهرباء وذلك عن طريق وضع أسلاك عالية التوتر، وكذلك المركبات الكميائية الحارقة للأقدام والأطعمة السامة والمناعة للإخصاب، وشبكات مفخخة، مركبات لاصقة، وأصوات مزعجة صوتية وفوق صوتية، وانفجارات متقطعة، والافتراسي صقور[34].

أما بالنسبة لصيانة وحماية الخشب من أخطار الحشرات والطفيليات التي تعمل على إتلافه فقد تمت حماية الخشب بشكل عام ضد الحشرات والفطور وأي طفيلي أخر كما يلي:

- عن طريق الإبادة باستخدام فرشاة أو رش وتشبيع الخشب بالمادة الخاصة وهي

Wood treatment of syprinal type star

- عن طريق الحقن باستخدام حقن نفس المحلول في كل ثقب في الخشب سواء كان من ثقوب وانفاق الحشرات أو من الثقوب الطبيعية.

وهذه المرحلة المزدوجة وقائية وعلاجية في آن واحد وهدفها القضاء على كل الحشرات البالغة أو اليرقات وابقاء الخشب في حالة جيدة وأخيرا وقائية[35].

ومن بين المواد المستعملة للمحافظة على الخشب وحمايته استعمال المواد الحافظة للخشب مثل الكريوزون ومحاليل البترول أو عن طريق محاليل شمعية مثل محلول الفينول الشمعي والمواد الحافظة للخشب يمكن وضعها بعدة طرق على الخشب مثل دهنها بالفرشاة أو غمس الخشب فيها[36].

أما بالنسبة للدور الذي يجب أن يقوم به الإنسان اتجاه المباني والمعالم فيتمثل في المراقبة الدورية بوضعه تحت الرقابة وعمل معاينات مستمرة وفحوص دورية منتظمة للتأكد من حالة كل مبنى لمنع الإنهيارات المفاجئة أو التهدم ولملاحظة حالة الترميم ومدى فاعلية عوامل الوقاية، وهدف هذه العملية منع إي تلف جديد وتدارك أي خلل محتمل حصوله في نظام الوقاية[37].

وفي الأخير ومن خلال هذه الدراسة تمكنا من استخلاص بعض النتائج والتي لخصنها في النقاط التالية:

- ضرورة إعادة بناء الأجزاء التي انهارت وترميمها وتجديدها وإصلاح ما يمكن إصلاحه وتقوية أساسات المعالم.

- الحرص على استعمال مواد ملائمة ومناسبة في عملية الترميم والتجديد، ذلك بأن تكون القوة الميكانيكية للمواد المستعملة تتساوى مع القوة الميكانيكية للمواد الأصلية أو تكون أقل منها حتى لا تؤثر على المباني وتسهل من عملية إتلافها.

- الحرص على استعمال أخشاب معالجة ضد السوس والحشرات الضارة به حتى تعطي للمعلم أكثر صلابة ومتانة خاصة السقيفة، حتى تدوم أطول مدة ممكنة.

- إعطاء قيمة للتراث التاريخي والأثري للحفاظ على ذاكرة سكان المنطقة وذلك بتوفير الحماية اللازمة للقصور ويتجلى ذلك بالمراقبة الدورية والمستمرة.

- وأخيرا نناشد السلطات المسئولة على هذا التراث الحضاري العناية بهذه المخلفات والمعالم لتبقى شاهدا على ما ضينا العريق في أحضان التاريخ.

هوامش البحث:

1 . لتوني يوسف، معجم المصطلحات الجغرافية، دار الفكر العربي، 1977، ص:336.

2. E .Oliver ; Matériaux de construction x2 gd E.M.E paris 1978.14 .

3. علي حملاوي، رسالة دكتوراه، قصور منطقة جبال عمور (السفح الجنوبي) من القرن العاشر إلى القرن . الثالث عشر الهجري (16 م - 19 م)، دراسة تاريخية، لم تنشر، ص:188

4 . نفسه، ص: 190.

5. Marsais (a) ; Manuel d'art musulman du ix au xii siècle, t1, Paris, 1926, p.58

6. P .Bardou et Arzoumanian, Archi de éditions parenthéses 1926 p17–18

7 . عليق ريحة نابت، قصر ملوكة، دراسة تاريخية واثرية، رسالة ماجستير، قسم الآثار، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، دراسة غير منشورة، 2003/2002، ص:50.

8 . يمينة بن صغير حاضري، قصري تقرت وتماسيين حلال فترة حكم بني جلاب (9هـ13-هـ/ 15م- 9م) دراسة تاريخية وأثرية، رسالة ماجستير، دراسة غير منشورة، ص:214.

9 ــ عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، بيروت، 1967، ص:72.

10 . عليق ريحة نابت، المرجع المرجع، ص88.

11 . J.P. Les Fondation dons la construction Romane, Dossier archéologique N°25 Nov-Dec, Paris,1977, p.48.

12 . عليق ريحة نابت، المرجع السابق، ص:21.

13 . يمينة بن صغير حاضري، المرجع السابق، ص:21.

14 . Godard (N) ; L'Oassia d'Urbanisme Saharien, Paris, 1953, p,47.

15 . فاروق عباس حيد، الموسوعة الحديثة في تكنولوجيا تشيد المباني، د. ت، ص:522.

16 . المنظمة العربية لتربية والثقافة والعلوم، صيانة التراث الحضاري، تونس، د ت، ص:305.

17 . جورجيو توراكا، تكنولوجيا المواد وصيانة المباني الأثرية، ترجمة أحمد إبراهيم عطية، دار الفجر للنشر والتوزيع، 04 شارع هاشم الشقر الترهة الجديدة، القاهرة، ص:205.

18 . فاروق عباس حيد، المرجع السابق، ص:524.

19 . نفسه، ص:527.

20 . هزار عمران وجورج دبورة، المباني الأثرية ترميمها صيانتها والحفاظ عليها، منشورات وزارة الثقافة، المدرية العامة للأثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية دمشق، 1997، ص78.

21 . نفسه، ص:117.

22 . فاروق عباس حيد، المرجع السابق، ص: 206.

23 . هزاز عمران، جورج دبورة، المرجع السابق، ص:87.

24 . نفسه، ص:117.

25 . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المرجع السابق، ص:361.

26 . هزاز عمران، جورج دبورة، المرجع السابق، ص:87.

27 . نفسه، ص:79.

28 . نفسه، ص:233.

29 . نفسه، ص:209.

30 . فاروق عباس حيد، المرجع السابق، ص:562
31 . هزار عمران وجورج دبورة، المرجع السابق، ص:210.
32 . شفق العوضي الوكيل، محمد عبد الله سراج، المناخ وعمارة المناطق الحارة، الطبعة الثالثة، 1989، عالم الكتب
38 عبد الخالق ثروت، القاهرة، ص:58.
33 . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،المرجع السابق، ص
34 . هزار عمران، جورج دبورة، المرجع السابق، ص:80.
35 . نفسه، ص:120.
36 . فاروق عباس حيد، المرجع السابق، ص:385.
37 . هزار عمران، جورج دبورة، المرجع السابق، ص:117.

المحافظة على قصر قنادسة في ظل التحديات

أ. بوجلابة فوزية سعاد (جامعة تلمسان)

Abstract:

Ksar has always been a place where different elements are organized from active life of its inhabitants. The most important is the one that links to agricultural work and foggara that constitute its social and economic substrate Also the Ksar was always a lively place where engaged in market activities, and where there are workshops and manufacturing transformation products needed for daily life and trade. Algerians Ksours are characterized by unity in structural designs and architecture and planning.

Several factors have combined to accelerate the degradation of Ksours, and from the findings made during the various visits to the south, the degree of each factor varies from one region to another and a Ksar to another. But the consummate abandonment and lack of maintenance in these structures remains the main cause of degradation, and include among other factors: As raw land which is the base material, is the Achilles heel for these houses because it requires periodic maintenance, Wind also affects strongly the earthen structures. It causes more or less aggravated by the impact of objects transported and the impact of sand damage (sandstorms), water in all its forms, contributes to the decline of Ksours (capillary rise, storm water form showers, leaks poorly designed pipes), new practices introduced by the inhabitants, to which were not designed Ksours (insertion of air conditions) Heavy rainfall are the consequences of the phenomen of climate change due to global warming. The scientific community attributes to a manmade global warming linked to fossil energy consumption inducing atmospheric emissions of Greenhouse Gases (GHG). It is certain that the rainfall will recur in the future and probably with a higher intensity.

مقدمة:

لبت القصور الصحراوية الحاجات الأساسية للإنسان، حيث جاءت عفوية ومتغيرة باستمرار بغية توفير الحيز الملائم لممارسة الإنسان نشاطاته فيها، بعيدا عما يكون مزعجا ومضرا مما يحيط بها من البيئة. من بين هذه القصور نذكر قصر قنادسة الذي يعتبر من المواقع الأثرية والقصور العريقة التاريخية ببشار، إذ يكتسي أهمية كبرى كونه قطب سياحي رئيسي في المنطقة. لقد جاء قصر قنادسة يحاكي البيئة الصحراوية التي نشأ فيها من خلال مواد البناء المستخدمة، والألوان والزخارف، ومن ناحية أخرى جاء منسجما مع الظروف المناخية الصحراوية، كما أن تصميمه يعكس أفكار ومعتقدات سكانه وهذا ما نلمسه في تخطيط القصر وكيفية تقسيم الفراغات.

لكن هذا الإرث الحضاري مهدد بضياع والزوال، وأصبح اليوم في صراع مع مستجدات العصر، فعلى القدر ما أصبح للعلم وتطوراته السريعة من أفضال جمة على البشرية في شتى المجالات، إلا أن هذا التقدم أثر على التراث الإنساني وما بقي منه من شواهد مادية، كما أن للتغيرات المناخية نصيب في تدمير هذه القصور، وعليه لابد من البحث في مصادر وأسباب هذه المشاكل ليتسني لنا معالجتها. ونظرا لما تكتسيه القصور الصحراوية من أهمية لدى السكان ارتأينا اقتراح بعض التوصيات من أجل المحافظة على هذا الإرث الحضاري، بعد البحث في الأخطار التي تواجهها هذه القصور من خلال قصر قنادسة.

1. مفهوم القصر

تطلق تسمية القصر في المناطق الصحراوية على تلك التكتلات السكنية التي تشغل مساحات صغيرة أو كبيرة على شكل قرى ومدن، تقطنها مجموعات عريقة في أماكن مرتفعة أو محصنة بسور به أبراج مراقبة، كما يحتوي على مدخل أو أكثر، وتضم تكويناته الداخلية بيوت للإقامة وبعض الساحات، يتوسطها مسجدا. كما نجد بعض القصور تحمل اسم العائلة المالكة أو الحاكمة، أو قبيلة سكنت القصر، أو صفة دالة على موقعه.

أما مضمون كلمة القصر بالمنطقة فلا تعني مسكن الأمير أو الملك كما هو متداول، بل تعني الحياة المدنية أو حياة الاستقرار، وكثيرا ما يطلق أهل البوادي على أهل الحضر: «القصوري أو المدني»[1].

أمّا لغويا القَصْرُ: لهذا اللفظ بهذا الوزن معان، منها: القصر الغاية ، يقال قصرك أن تفعل

كذا أي غايتك، والقصر : المنع، والقصر: ضم الشيء إلى أصله الأول، والقصر: تضييق قيد البعير، والقصر في الصلاة معروف، والقصر العشيُّ، والقصر: قصر الثوب معروف، والقصر المراد به ههنا: هو البناء المشيد العالي المشرف[2].

كما ورد تعريفه في لسان العرب لابن المنظور على أنه المنزل، وهو كل بيت فيه حجر قرشية، سمي بذلك لأنه تقصر بداخله الحرم أي تحبس وتحجب فيه، وجمعه قصور، مصدقا لقوله تعالى « وحور مقصورات في الخيام».

2. أهمية المحافظة على القصر قنادسة:

تعد القصور الصحراوية من الشواهد المعمارية التي تميز جنوب شمال إفريقيا بصفة عامة والجنوب الجزائري بصفة خاصة بطابعها المعماري المميز، والتي شكلت مع الزمن خط سير تجاري جد مهم عرف عند المؤرخين بطريق القصور، وكمراكز سكنية عرفت عبر تاريخها الطويل العديد من التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لتصل إلى الصورة التي هي عليها اليوم. وتعتبر دراسة القصور الصحراوية من المواضيع الجادة التي بدأت تستقطب اهتمام الباحثين في شتى العلوم (الاجتماع، الاقتصاد، الهندسة، التاريخ، الآثار... وغيره)، لأن وجود هذه التجمعات السكنية لم يكن بمحض الصدفة ولكنها منتوج لعبقرية الإنسان الصحراوي وخبرته ومهارته لسنين طويلة ارتبط فيها القصر بالماء، والأمان، وواحات النخيل، والإنسان.

لم تنتج القصور والحصون بلا داع وإنما قامت لضرورة وبدعم موروث حضاري ساهمت فيه كل الظروف الاجتماعية والسياسية والجغرافية، وتتمتع القصور في الجزائر بوحدة في التصميم الهندسي والتخطيط الهيكلي. لذلك فإن المناطق ذات القيمة التراثية أي التاريخية وما يحيط بها يجب اعتبارها بما فيها من مباني وميادين وحدائق وشوارع كتلة واحدة وجزءا لا يتجزأ. ويمثل نوع الاستعمال والأنشطة الموجودة بها جزءا أساسيا من التراث العمراني جنبا إلى جنب مع التراث المعماري. وبالتالي فإنّ نوعية الوظيفة التي تؤديها العمارة باختلاف أنواعها جزء مهم من الاعتبارات التراثية والاجتماعية التي يلزم الحفاظ عليها وتدعيمها في المناطق التراثية طبقا للمواثيق الدولية في مجال الحفاظ على التراث الأثري. دون إهمال ضمان استمرارية هذا الموروث والحيلولة دون اندثاره، من خلال صيانته وحمايته من الأخطار البشرية والطبيعية التي تهدده وباستمرار[3].

3. قصر قنادسة التاريخي:

تقع مدينة قنادسة على بعد 20 كم من ولاية بشار جنوب غرب الجزائر، على سفح سلسلة من جبال الأطلسي الصحراوي، يميزها المناخ الشبه الصحراوي الحار والجاف صيفا والبارد شتاءا[4].

من أهم معالمها الأثرية قصر قنادسة الذي بني على مرحلتين:

المرحلة الأولى: تم فيها بناء القصبة سنة 1242 مع مجيء الشيخ عبد الرحمن بن احمد المعروف باسم سيدي الحاج بن احمد.

المرحلة الثانية: تأسيس الزاوية حوالي 1686 من طرف الشيخ امحمد بن بوزيان، التي أصبحت قطب إشعاع ديني في كامل أرجاء المنطقة بل في المغرب العربي وإفريقيا[5].

4. الوضعية الراهنة لقصر قنادسة:

بينت المعاينة الميدانية لقصر قنادسة مدى تأثر التراث العمراني بالأوضاع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية لسكان المنطقة، وتجسد ذلك في ظهور فوارق بين الهندسة المعمارية للمباني القديمة والمباني الحديثة، والأخذ بالوسائل الحديثة، وما وفره التطوّر العلمي والتكنولوجي من متطلبات غيرت من نمط العيش الذي كان يسود في المنطقة، وأصبحت المدينة تعيش حالة اغتراب حضاري بصفة عامة واغتراب معماري بصفة خاصة، إلى جانب ما تلحقة الطبيعة من أضرار التي لا يمكن تفاديها إلاّ من خلال التقليص من أخطارها، وعلى العموم يمكن حصر هذه العوامل فيما يلي:

أ. الأخطار البشرية:

تسبب التوسع العمراني الحديث في انحصار قصر قنادسة في بعض الجهات وأصبح يقع ضمن محيط غريب عنه، فقد ترتب عن التوسع العمراني في الجهة الغربية ومجموعة من المحلات التجارية وموقف السيارات في الجهة الشمالية مجموعة من السلبيات يمكن حصرها في المظاهر التالية:

- تغطية مجال رؤية المعلم من جهاته الأربعة بصورة واضحة ، مما أدى إلى تباين كبير بين الهندسة المعمارية للقصر والمباني الحديثة ونلمس ذلك في العلاقات بين الفراغات والأشكال والألوان وتركيبة المواد المستعملة في البناء وحتى من حيث الارتفاع.

- عدم وجود تخطيط موجه لتوزيع المساكن والمرافق وانتشارها بصفة عشوائية.
- التخريب العمدي من طرف الزوّار من خلال تسجيل أسمائهم بآلات حادة وألوان كيميائية لا يمكن التخلص منها على الجدران، بالإضافة إلى ما يحدثه الأفراد من أعمال الهدم والتدمير في أسوار القصر بسبب الإهمال وعدم إدراك القيمة الأثرية للمعلم.
- رمي القاذورات والأوساخ داخل الممرات في القصر بشكل مشوه للمنظر.
- تشوه المنظر العام للمبنى بسبب انتشار الأعمدة واللاّفتات في المدخل الذي يؤدّي إلى الجامع والقصر والإيصال غير المنظم لأعمدة الإنارة العمومية والأسلاك الكهربائية .
- استعمال الاسمنت في تلبيس الجدران الخارجية لبعض أجزاء القصر الذي سيؤدي إلى غلق المسامات الجدران وإحداث ضغوط، إلى جانب تسرب ما تحويه من أملاح إلى سطح الجدران ومن ثمّ ستتبلور معرضة المباني إلى أخطار بليغة .
- كما أنه توجد أجزاء من القصر مازال يقطنها أهلها ، مما أدى إلى إحداث تغييرات بإزالة وإضافة أجزاء إلى المسكن على حسب مستجدات العصر وما تتطلبه ظروف العيش وهذا ترتب عنه إدخال مواد ووسائل حديثة إلى المسكن.
- لقد ساعد على تدهور قصر قنادسة القصور المالي لدعم عمليات الترميم، إلى جانب نقص المتخصّصين، وعدم التقيّد بدراسات علمية محكمة، والإهمال لقيمة الأثر.

إنّ للتشريع دور مهم في حماية المعلم الأثري ومحيطه من تعديّات الأفراد، إذ أنّ المعاينة الميدانية أكّدت قصور تطبيق القوانين المتعلّقة بحماية التراث الأثري منذ القديم، وهذا ما لاحظناه ميدانيا من خلال التعدّي الصارخ للأفراد على المعالم الأثرية وسرقة مواد بنائها، أو ترخيص عمليات البناء بجوار المعالم الأثرية، ومن ذلك تغيير واجهات المباني، وزيادة ارتفاع المباني المجاورة للمعالم الأثرية التي قلّما تكون مرخّصة، وأيضا ترخيص عمليات تحديث المساكن داخل القصر من أجل التوسيع، وخاصّة استغلال الأراضي المجاورة لأغراض فلاحية، فبالرغم من تلك الترسانة من القوانين التي تجرّم وتمنع الاعتداء على التراث الثقافي بجميع أشكاله، فإنّه ما زلنا نعاني عدّة مشاكل في مجال حماية الأثر، بسبب عدم تطبيق القوانين وتجسيدها ميدانيا من قبل السلطات المعنية، وغيابها ميدانيا وترك المجال مفتوح أمام مخرّبي التراث.

ب. الأخطار الطبيعية:

يميز منطقة بشار وضواحيها المناخ الحار والجاف ولاسيما في الفترة الممتدة من شهر ماي إلى غاية شهر أكتوبر، إذ تصل درجات الحرارة في الظل إلى 40°م، وتنخفض في الليل بحوالي 5°م، مما يتسبب في انخفاض نسبة الرطوبة الجوّية في الهواء إلى 27%، كما تقل السحب وينعد الغطاء النباتي مما يساهم في كثافة الإشعاع المباشر الساقط على هذه المناطق.[6] أمّا الأمطار فتتميز إلى جانب ندرتها بأنّها طارئة وغير ثابتة حيث معظمها يسقط على شكل سيول، ورياح المنطقة ساخنة محملة بالغبار والأتربة مع كثرة العواصف التي تعد ميزة المناطق الصحراوية في الجزائر.[7]

لهذه البيئة أثر على التراث المعماري في المنطقة بسبب الظروف المناخية وإهمال الصيانة الدورية والترميم لهذه القصور. وعلى العموم يمكن حصر هذه الأضرار فيما يلي:

تعد الريّاح والعواصف الرملية من أخطر العوامل المؤثّرة سلبا على العمارة الصحراوية، بحيث يلحق تراكم غبارها على الأسطح أضرارا وخيمة، كما تعمل على حت الأسطح ونقل وإرساب ما تحمله من رمال عليها ، فتزيد ظاهرة تآكل الجدران وسقوطها.

يؤدّي ارتفاع درجات الحرارة أثناء فترات الجفاف إلى تبخّر الماء الموجود في مادّة البناء، وتترسّب الأملاح فوق أسطح المباني سواء الداخلية أو الخارجية، حيث تظهر في شكل طبقات صلبة وبيضاء. إذ تعمل الأملاح على زيادة تفكّك جزيئات الحجر ونزوح المواد الرابطة بين الحجارة والمونة.

انهيار أجزاء كبيرة من القصر بسبب هشاشة مواد البناء وتلاشي وقدم الملاط الرابط بين المواد.

كثرة الشقوق والتصدعات ولاسيما على مستوى أسطح وقواعد الجدران بسبب النمل البري كما لاحظنا من خلال المعاينة الميدانية أسراب الطيّور التي تتسبّب في اتّساخ وتبقّع الأسطح، وانتشار فضلاتها في كامل أرجاء المبنى، وهذه الفضلات غنية بحمض الأمونياك الذي يتحوّل إلى حمض النيتريك والفوسفاريك عند توفّر الرطوبة وبخار الماء، بالإضافة إلى أنّها تعمل على خدش ونقر الأسطح وبناء أعشاش فوق المباني وتشويه منظرها العام.

5. المحافظة على قصر قنادسة:

بقدر أهمية التراث المعماري تظهر أهمية المحافظة عليه وضمان حمايته ضد الأخطار التي تواجهه، إذ أنه يمثل سجل حضاري حي ينقل لنا بصمات الماضي ويمكننا من معرفة مختلف الظروف السائدة في تلك الحضارات الماضية من عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية، لذلك وجب العمل على حمايته وضمان سلامته.

تكمن القيمة الثقافية للقصور الصحراوية في كونها شواهد محسوسة تعين على دراسة تطور الحضارات والفنون وتمثل المادة الوثائقية للبحث العلمي والغنية بالمعلومات التاريخية، كما تلعب دور اقتصادي هام لأنها تؤلف المادة الخام للصناعة السياحية، إذ أنها تساعد على رفع الدخل القومي وكلما كثر ما يمتلكه البلد من تراث وأثار زادت موارده السياحية. إلى جانب هذا تعتبر معيارا حضاريا لكونها تراثا يتصل بشخصية الأمة ويعطيها طابعا مميزا، فالتراث الأثري يحدد مستوى رقي الأمة في العلوم والفنون والذوق الحسي والإبداعي. وهكذا أصبح التراث حلقة من حلقات الحضارة البشرية التي تمازجت وتكونت عبر التاريخ وموضع فخر الأمم واعتزازها[8]. لذلك وجب الحفاظ على هذا التراث من خلال:

أ. مواجهة الأخطار الطبيعية:

يمكن التقليص من حجم خطورة الريّاح والحد من حجم التلف المصاحب لها من خلال إزالة الرمال من حول المباني الأثرية، وإقامة مصدات للرمال المتحركة أو عن طريق رش التربة من حول المبنى الأثري بالراتنجات واللدائن الصناعية ولاسيّما راتنجات السليكون إستر (Silicone Esters)، بالإضافة إلى تشجير المناطق المتاخمة للمباني الأثرية لصد الريّاح والعواصف المحملة بالرمال[9].

أما الرشوحات الناتجة عن التسرب من التمديدات الصحية يلاحظ تأثيرها السلبي على الجدران الحاملة لأنابيب الصرف الصحي المتآكلة، والتي بها ثغرات لذلك يستوجب استبدالها بشبكة جديدة[10].

يمكن التخلص من الأملاح الناتجة عن تبخر المياه بالتنظيف الميكانيكي، حيث يتم إزالة بعض الأملاح المترسبة على الأسطح الأحجار باستخدام الأدوات والأجهزة اللاّزمة لتحقيق هذا الغرض[11]، أو باستعمال بعض المواد والمستحلبات الكيميائية مثل كمادات من الطمي بعد غسله

ونقعه في الماء العذب لمدة 48 ساعة تقريبا، حتى يفقد ما به من أملاح قبل أن يستخدم، ثمّ يتم استخدامه على الجدران للتخلص من الأملاح الموجودة بها، وهذه الطريقة يمكن استخدامها في الجدران الخالية من النقوش والزخارف والألوان مثل قصر سيدي بومدين وأسوار المنصورة[12].

كما توجد طريقة أخرى للتخلص من الأملاح باستخدام الغسيل الكثيف بالماء العذب، لكن هذه الطريقة تؤدي إلى إضافة مياه إلى مواد البناء وهذه الأخيرة تخلق مشاكل أخرى صعبة وأيضا مكلفة [13].

تلحق الكائنات الحيّة بالمباني الأثرية أضرارا وخيمة ولاسيّما إذا توفرت الشروط اللاّزمة لتكاثرها، ومن بين أساليب مكافحتها ومنع تفاقمها نذكر ما يلي:

يمكن طرد الوطاويط من الأماكن المظلمة ولاسيّما المهجورة بتعميم الإضاءة في جميع أرجاء المبنى، والعمل على سد الفجوات والشروخ والشقوق التي يمكن أن تتخذها الوطاويط مضاجع لها، وفي الأخير تبخير الأماكن المتضررة بأبخرة الكبريت[14] .

يمكن التخلص من أنواع الطيّور من خلال تزويد المبنى بالمصائد، ووضع أسلاك شائكة فوق الجدران وغلق النوافذ والأبواب وتفقد الدوري للمبنى.

العمل على إزالة أعشاش النحل البري باستخدام الطرق الميكانيكية، ثمّ تنظف أثارها بالماء، أو الماء والكحول الإيثيلي، أو الماء والنشادر، وتزويد المبنى بالعدد الكافي من المصائد وسد الفتحات بسلك شبكي[15].

ب. مواجهة الأخطار البشرية:

نجم عن النشاط البشري تعديات صارخة على قصر قنادسة، وألحق به الكثير من تشويه وتدمير للناحية الجمالية للمبنى الأثري ومحيطه، وفيما يلي بعض المقترحات لمحاولة إعادة النظرة الجمالية للمعلم الأثري وجعله جزء لا يتجزأ من محيطه.

ب1-. تنظيم عمليات البناء:

يجب الأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين المباني الأثرية ببعضها البعض وعلاقتها بالفراغات المحيطة بها، ولاسيّما التطوّرات الحديثة في المجال المعماري التي يجب أن تنفذ بانسجام وتآلف مع القديم[16]. من ذلك:

- عدم السماح بإقامة صروح جديدة بمقاييس لا تتناسب مع أبعاد الأبنية القائمة من شأنها حجب المباني القديمة[17]، فقيمة الارتفاع للمنزل المراد بنائه تكون مرتبطة بارتفاع حوائط المبنى الأثري المجاور له، وفي حالة ما كان البناء عبارة عن مسجدا، فتعتبر الشرفات التي تعلو حوائطه ارتفاع المبنى، كما يجب مراعاة ترك حرم مناسب للأثر عند إعادة بناء المنازل أو وجود فراغات تتيح ترك مساحة أكبر[18] .

- الحفاظ على طريقة البناء الأصلية عند القيام بعمليات الإصلاح والترميم، والالتزام بالتفاصيل النموذجية للبناء مثل اللّمسات الأخيرة للسقوف والأفاريز وغير ذلك، واستعمال نفس الألوان الأصلية المستعملة لكلّ من الجدران الخارجية والداخلية للأبنية.

- الحفاظ بصرامة على المظهر الخارجي للبناء الأصلي أو أي من عناصره المتميزة المتبقية[19].

- احترام مواد البناء التقليدية وتعميم استخدامها في المباني الحديثة مع وضع بعض المفردات التراثية، حتى نضمن انسجام واجهة المبنى الحديث مع ما يحيط بها[20].

- لا يقتصر تأثير التلوّث البصري وما يحدثه من تشويه وتغيير في نظام البناء داخل إطار القصر، وإنّما يمتد بامتداده، ذلك الامتداد الذي يجب أن يتوافق ويتآلف مع القصر القديم وفي نفس الوقت مع الحياة العصرية، أي أنّ ذلك لا ينفي الأخذ بالوسائل الحديثة ومتطلباتها، شريطة الاهتمام بمفردات التراث وإبراز الهوية الأصلية لمدينة قنادسة[21].

ب2-. ضوابط الإعلانات التجارية الخارجية:

من أجل تفعيل عملية الحفاظ على قصر قنادسة يتوجب :

- عدم تشجيع القيام ببعض الممارسات المضرة بالمباني الأثرية أي كانت صفتها، مثل لصق أو تعليق اللاّفتات والإعلانات الإشهارية، لأنّها تشوه جمالية المبنى الأثري وتعيق عملية الحفاظ عليه.

- اتخاذ إجراءات صارمة لمنع انتشار الملصقات والإعلانات الإشهارية الكثيرة، سواء في الأماكن المجاورة للمواقع والمعالم الأثرية أو التي بالقرب منها.

- وضع أنظمة صارمة تعني بتحديد حجم وشكل ومكان ومحتويات جميع الإعلانات

والملصقات التي يسمح بها في أو بالقرب من أي موقع أثري[22].

ب3-. النظافة العامة:

من أجل الحفاظ على النظافة العامة للمدينة والمعالم الأثرية بصفة خاصة يجب تشديد العقوبات على إلقاء المهملات والمخلّفات في الطرق والفراغات العامة والخاصة، وسن القوانين التي تجرّم عمليات التشويه والتلوّث البصري المتعمد من قبل الأفراد، مع تكليف جهاز رقابي يقوم بمراقبة المخلفات وتنفيذ الإزالات وتوقيع الجزاءات الفورية حفاظا على المظهر العام للمدينة[23].

6. حماية وتثمين قصر قنادسة:

أ. الجرد والتسجيل:

يجب القيام بعملية مسح عام لمحتويات القصر من أجل إحياءها وتقييمها وتصنيفها باستخدام الصور والمخططات، ويتبع ذلك عملية جرد لكل أجزاء القصر وذلك بجمع الصور الفوتوغرافية والمصورات المساحية الفضائية، وإصدار المراسيم أو القرارات المتعلقة بذلك، وتبليغها إلى المالكين الخواص والجهات المعنية بحماية الآثار ويشار إليها في التسجيلات العقارية ويعلن عنها في الصحف ليكون الناس على علم بكل ما يجرد من مبان ويتوقفوا عن تخريبها أو المساس بها[24].

تتضمن عملية الجرد مجموعة من الشروط التي يجب فرضها على العقارات المحيطة بالمعلم الأثري من ذلك تحديد شكل البناء الحديث وارتفاعه والحرم الواجب تركه بينه وبين البناء المسجل[25].

وبالضرورة أن يشمل تحليل عوامل التأثير الاجتماعي والاقتصادي في حماية هذه المباني، وينبغي أن يكون مرجعا أساسيا في عملية التخطيط والتنظيم والإدارة ونتائج هذا التحليل تستخدم عند تصنيف المناطق المحمية أو المناطق التراثية[26].

ب-توفير الحماية القانونية:

يلعب التشريع دور فعال في الحماية القانونية للتراث ومن الضروري فهمه لتفعيل عملية تطبيقه، فالجزائر مثلا بوضعها القانون 04/98 المتعلق بحماية التراث الثقافي ساهمت في رسم خطة الحماية التي يجب انتهاجها لكن من الضروري تدعيم هذه النصوص التشريعية بنصوصها

التطبيقية[27].

ج-تشجيع الأبحاث العلمية:

ويتأتى هذا بالمحافظة على المؤسسات ذات الطابع العلمي والبيداغوجي ورفع مستوى الاهتمام بالتكوين المتخصص في ميادين علم الآثار وفي صيانة والترميم ومجال تاريخ الفن وغير ذلك[28].

كما أن التعليم وزيادة الأبحاث العلمية يساعد على فهم القيمة التاريخية للمنطقة، وهذه الأخيرة تعتمد على معرفة النماذج المعمارية المختلفة للمدينة، ومعرفة كيفية تخطيط حدود العقارات والشوارع التاريخية وخصائص المواد ومقارنتها مع التطور العمراني المعاصر وتخطيط شوارعه ومبانيه[29].

ومؤخرا شهدت جامعة بشار فتح تخصص في علم الأثار، لكنه يحتاج إلى دعم من مختلف شرائح المجتمع حتى يحقق أهدافه.

د. ترقية وإعادة الاعتبار للقصور الصحراوية:

من خلال:

- تعزيز الفهم والوعي من السمات الخاصة التي تضفي القيمة على المدينة الصحراوية وذلك باستخدام التكنولوجيا الحديثة للمعلومات والاتصالات[30].

- ربط القصور الصحراوية بشبكة الأنترنات والتعريف بها، وتقديم الآثار والمواقع الأثرية عبر القنوات التلفزيونية الدولية كخدمة ذات فائدة عامة.

- فتح المجال أمام المواطن لزيارة المعالم المحمية بتدعيم نشاطات الجمعيات الخيرية وتلاميذ المدارس والثانويات[31].

- الاستفادة من التراث اقتصاديا من خلال التهيئة العقلانية للقصور الصحراوية ودمجها في المسار السياحي[32].

- إصدار طوابع بريدية تحمل صور الآثار المادية للمنطقة من أجل إيصالها إلى أبعد نقطة في العالم ومن أجل تحسيس المواطن بأهمية التراث.

- إنجاز دكاكين بالمواقع الأثرية تباع فيها نماذج مستنسخة من الأثريات والبطاقات البريدية والصور والمطبوعات والمنشورات كما يمكن اتخاذ هذه المحلات نقاط مراقبة وحراسة ومكان تواجد المرشدين السياحيين[33].

7. توصيات:

- البحث في سبل إعادة تقويم القوانين والتشريعات الخاصة بالتخطيط العمراني وتقسيم الأراضي والإسكان وتنظيم المباني[34]، لكي تتناسق وتتفق مع القوانين الخاصة بحماية التراث المعماري، مع ضرورة تطبيق القانون وتوفير دعم مالي من خلال صندوق ينشأ خصيصا لمساعدة كل من يعيد بناء منزله داخل المدينة القديمة، بالإضافة إلى توفير إنتاج العناصر التقليدية المكوّنة للواجهات عن طريق مراكز إحياء الحرف التقليدية[35].

- تشكيل لجنة متخصصة في تخطيط العمران والعمارة والفنون الجميلة تعرض عليها المشاريع التصميمية الخاصة بالساحات والميادين والطرق الرئيسية والأحياء ذات الطابع المميز والمناطق التاريخية والتراثية[36].

- عدم إهمال المباني الأثرية غير المسجلة، حيث أن تجاور المباني الأثرية يعطي جمالا وقيما تبادلية.

- يجب أن تكون الحكومة ممثلة في إدارتها المحلية قدوة في هذا المجال عند إقامة منشآتها الحكومية داخل إطار المدينة[37].

- ضمان تحديث البنية الأساسية، بحيث يأخذ بعين الاعتبار الطابع الخاص بالمدينة.

- ينبغي للحكومات أن توفر ما يكفي من إجراءات ترخيص وإشراف، للحيلولة دون تشويه وتخريب وتغيير الطابع أو هدم البنايات والمساحات والشوارع ذات القيمة التاريخية والتي تتشكل منها المدن[38].

ملحق الصور:

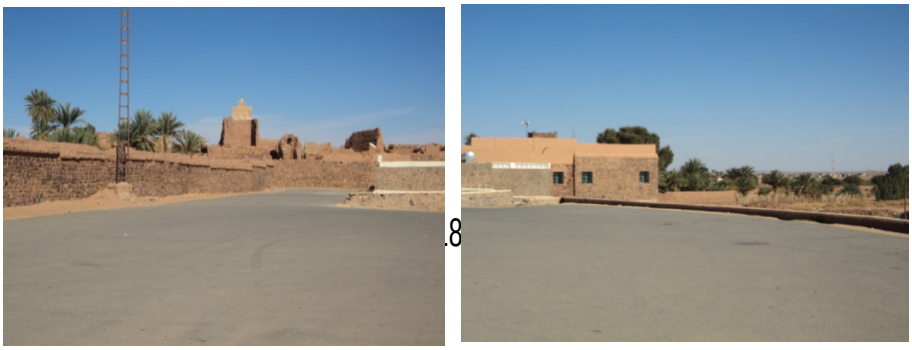

8.

الصور رقم: 01-02-03-04: تمثل منظر عام للقصر

الصورتان رقم 05 و06: توضحان تغطية مجال رؤية المعلم من جهاته الأربعة بسبب التوسع العمراني

الصورتان رقم 07 و08: توضحان مدى التباين بين الهندسة المعمارية للقصروالمباني الحديثة.

الصور رقم 09-10-11: توضح سوء توصيل الوسائل الحديثة واستعمال الاسمنت

الصورتان رقم 12 و13: توضحان انهيار أجزاء كبيرة من القصر بسبب هشاشة مواد البناء وتلاشي وقدم الملاط الرابط بين المواد

الصورة رقم 14: تبين العبث العمدي من طرف الزوار

الصور رقم 15، 16، 17: إهمال نظافة القصر وانتشار القاذورات والأوساخ في أرجاءه

هوامش البحث:

1 . مقدم ميلود، جرد المواقع والمعالم الأثرية بمنطقة الساورة، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في علم الأثار الوقائي، جامعة تلمسان، **2013**، ص-ص:**-03 04** .

2 . ياقوت الحموي ، معجم البلدان، م: **04**، دار صادر بيروت، لبنان، **1977**، ص: **354**

3 . يمينة بن صغير حاضري، القصور الصحراوية بالجزائر صورة للإبداع الهندسي، مجلة البحوث والدراسات، ع:**15**، **2011**، ص-ص: **136-137**.

4 .Naima Fezzioui et Belkacem Draoui, Aspect thermiquedans la conception architecturale du ksar kenadsa, Révue Archeologique, n° 02, la direction de la culture de Béchar, Dar Elhouda,Ain Melila,2008 P:99

5 . Ibid ;p:99

6 . Ibid.

7 . www.weatherunderground.com

8 . عبد القادر الريحاوي، المباني التاريخية حمايتها وطرق صيانتها، منشورات المديرية العام للآثار والمتاحف، دمشق **1972**، ص، ص:12،13.

9 . عبد المعز شاهين، ترميم وصيانة المباني الأثرية والتاريخية، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية، مطابع المجلس الأعلى للآثار، **1994**،ص:**204**.

10 . هزار عمران وجورج دبورة، مرجع سابق، ص:**102**.

11 . محمد عبد الهادي محمد، مرجع سابق،ص**213**.

12 . محمد أحمد أحمد عوض، ترميم المنشآت الأثرية، ط**1**، دار نهضة الشرق، القاهرة، **2002**، ص:**308**.

13 . جورجيوتوراكا، تكنولوجيا المواد وصيانة المباني الأثرية، تر: أحمد إبراهيم عطية، ط**1**، دار الفجر النشر والتوزيع، القاهرة، **2003**، ص**220**.

14 . عبد المعز شاهين، مرجع سابق، ص:**-216 217**.

15 . المرجع نفسه، ص:**218**.

16 . السيد محمود البنا، «التلوّث البيئي في المدن التاريخية»، مجلة كلية الآثار، ع**8**، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، **1997**،،ص**818**.

17 . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، صيانة التراث الحضاري، إدارة الثقافة، تونس، **1990**، ص:**338**.

18 . السيد محمود البنا، المرجع نفسه، ص: **820**.

19 . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المرجع نفسه، ص:**339**.

20 . السيد محمود البنا، مرجع سابق، ص:817.

21 . نفسه، ص:819.

22 . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مرجع سابق، ص:-340 341.

23 . أسامة محمود إبراهيم، مرجع سابق،ص:134.

24 . صبرينة دحماني، دمج المباني الأثرية المرمّمة في الحياة اليومية، مذكرة ماجستير، قسم علم الآثار، جامعة تلمسان، 2006-2007،ص- ص:46 47-

25 . نفسه، ص:47

26 . Rapport du séminaire de Nara sur le développement et l'intégritè des villes historiques ,op.cit,P :04

27 . عز الدين بويحياوي، المحافظة على التراث الوطني من وجهة نظر عالم الآثار، مجلة الثقافة، ع.16، 2007، ص-ص:19،20.

28 . نفسه، ص:20.

29 . Rapport du séminaire de Nara sur le développement et l'intégritè des villeshistoriques ,op.cit,P :04

30 . Ibid. ,P :04

31 . علي خلاصي، المحافظة على التراث الثقافي وتنمية المتطلبات السياحية بالجزائر، الملتقى السابع للبحث الأثري والدراسات التاريخية، خنشلة، 1999، ص:80.

32 . عز الدين بويحياوي، مرجع سابق، ص:20.

33 . علي خلاصي، مرجع سابق، ص:80.

34 . أسامة محمود إبراهيم، مرجع سابق، ص:134.

35 . السيد محمود البنا، « التلوث البيئي في المدن التاريخية»، مرجع سابق،ص:819.

36 -أسامة محمود إبراهيم، المرجع نفسه،ص134.

37 -السيد محمود البنا، « التلوث البيئي في المدن التاريخية»، مرجع سابق، ص:819.

38 . Rapport du séminaire de Nara sur le développement et l'intégrité des villes historiques,Convention concernant la protection du Patrimoine Mondial Culturel et Naturel, 23 éme session, Maroc, 1999,P 04.

الحظائر الثقافية كآلية للحفاظ على التراث الصحراوي في إطار التنمية المستدامة - حظيرتي الأهقار والطاسيلي نموذجا

أ.د جنان عبد المجيد، أ. كحول بسمة (جامعة فرحات عباس سطيف1)

Abstract:

In popular culture, the word desert evokes sun, sand and heat. It is a barren and uncultivated space. This representation, though true to a certain extent, cover a very singular reality.

The Sahara is also oases, that is to say very ancient living places. Speaking of life, it means that the oases are territories or spaces where the activities are organized by men, who still weave relationships between them.

The Algerian Sahara is recently treated as a place of meaning, attract more and more people that traditional Oasis can no more contain. Even the aridity, the Sahara has become attractive both from a standpoint of wealth production or of the amenities it offers.

The state has adopted a range of development programs for both infrastructure and economic activities but also to conserve the region resources, and in this context benefited Ahaggar and Tassili parks of many programs that aim to sustain development activities. And some international institutions have joined this initiative, which aims to protect natural and cultural heritage of this broad region such as the United Nations Development Programme UNDP and the Global Environment Fund FME, which reflects the global importance of this heritage, that can be considered an heritage of all humanity.

مقدمة:

تعتبر الجزائر أكبر دولة في القارة الإفريقية، كما تحتل أيضا المرتبة العاشرة عالميا من حيث المساحة الإجمالية تحمل إرثا تاريخيا كبيرا مكنها لأن تصنف من أهم المناطق الأثرية على مستوى البحر المتوسط على غرار كل من ايطاليا واليونان. وتعتبر الصحراء الجزء الأكبر منها وهي تعد من أكبر وأروع الصحاري في العالم، فهي غنية جدا بالشواهد التاريخية التي تمثل جزء من الذاكرة المحفوظة للمنطقة، حيث تروي لزوارها تلك الحقب الزمنية المتعاقبة والحضارة الإنسانية التي عرفتها، والمتجلية أساسا في الغابات المتحجرة التي تعود إلى أزمنة جيولوجية غابرة إضافة إلى مواقع الكتابات البربرية التي تحمل رسائل مشفرة كانت بمثابة وسائل اتصال بين القوافل التجارية، حيث كانت الصحراء منطقة عبور مهمة تربط شمال القـــارة الأفريقية بجنوبها.

فالصحراء الجزائرية هي منهل لكنوز إنسانية تتجاوز الصورة المتداولة عنها والمنحصرة في أبار النفط والثروات الطبيعية إلى كنوز من نوع آخر غير قابلة للزوال أو النفاد إن أحسن تسييرها، إنها كنوز التراث الإنساني الذي يتميز بالجمال والروعة وهو خلاصة تجربة الإنسان في العيش في هذه المناطق عبر التاريخ.

وهي تعتبر من أثمن محميات التنوع البيئي، بل تكاد تنفرد بهذا الطابع، وهو ما دفع السلطات المسئولة لتصنيف مساحات معتبرة منها كمناطق محمية أو بالتحديد إلى حظائر ثقافية وذلك نظرا للثروات الثقافية الكبيرة التي تتميز بها والتي لا يمكن فصلها بالتأكيد عن بيئتها الطبيعية.

حيث تلعب الحظائر الثقافية دور كبير في الحفاظ على الموروث الطبيعي والثقافي في الصحراء الجزائرية وتحقيق استدامته؛ وخصوصا مع استفادتها من مشروع حماية التنوع البيولوجي في المناطق ذات الأهمية العالمية بمشاركة بعض المؤسسات الدولية مثل برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (PNUD) وصندوق البيئة العالمي (FEM) والذي يهدف في العموم إلى حماية التنوع البيولوجي وفقا لمبادئ التنمية المستدامة بالمنطقة.

وعليه سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نتعرف على أهم الحظائر الثقافية بالجزائر (حظيرتي الأهقار والطاسيلي) وكذا الدور الذي تلعبه في حماية التراث الثقافي والحفاظ عليه

تحقيقا لمبادئ الاستدامة، وذلك من خلال التعرف أولا على بعض المفاهيم المتعلقة بالتراث الثقافي والتنمية المستدامة ومن ثم التعرض للحظائر الثقافية في الجزائر وحظيرتي الأهقار والطاسيلي على وجه الخصوص ومشروع حماية التنوع البيولوجي في المناطق ذات الأهمية العالمية الذي استفادت منه.

أولا: بعض المفاهيم:

المحميات الطبيعية والمواقع التراثية والأثرية:

تعرف **موارد التراث الطبيعي** بأنها "المناطق والمعالم الجغرافية بما تحتويه من معالم طبيعية أو تشكيلات فيزيائية أو بيولوجية أو فيزيولوجية يمكن ربطها بأصل الإنسان أو تاريخه أو ترتبط بأحداث جيولوجية أو تاريخية أو نشاطات بشرية، وتتضمن قيم ثقافية أو جمالية استثنائية أو لها قيمة علمية"[1]؛ وهي ذلك الجزء من البيئة الطبيعية ولا دخل للإنسان في تكوينها أو صنعها.

وتقسم الممتلكات الثقافية إلى:[2]

1. **الممتلكات الثقافية العقارية:** وتشمل - **المعالم التاريخية** كالمنجزات المعمارية الكبرى، والرسم، والنقش، والفن الزخرفي، والخط العربي، والمباني أو المجمعات المعلمية الفخمة ذات الطابع الدينى أو العسكرى أو المدنى؛ -**المواقع الأثرية** كالمواقع الأثرية بما فيها المحميات الأثرية والحظائر الثقافية؛ -**المجموعات الحضرية أو الريفية** مثل القصبات والمدن والقصور والقرى والمجمعات السكنية التقليدية المتميزة.

2. **الممتلكات الثقافية المنقولة:** وتشمل ما يلي: ناتج الاستكشافات والأبحاث الأثرية، الأشياء العتيقة مثل المصنوعات الخزفية، والكتابات، والعملات، والأختام، والحلي والألبسة التقليدية والأسلحة، وبقايا المدافن، الممتلكات الثقافية المتصلة بالدين وبتاريخ العلوم والتقنيات، وتاريخ التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، الممتلكات ذات الأهمية الفنية مثل: اللوحات الزيتية والرسوم المنجزة كاملة باليد، الرسومات الأصلية والملصقات والصور الفوتوغرافية باعتبارها وسيلة للإيداع الأصيل، المخطوطات والمطبوعات طباعة استهلالية، والكتب والوثائق، والمنشورات ذات الأهمية الخاصة، المسكوكات)أوسمة وقطع نقدية(أو الطوابع البريدية.

3. **الممتلكات الثقافية الغير مادية:** وتشمل الأغانى التقليدية والشعبية، والأناشيد، والألحان، والمسرح، وفن الرقص والإيقاعات الحركية، والاحتفالات الدينية، وفنون الطبخ، والتعابير الأدبية الشفوية، والقصص التاريخية، والحكايات، والحكم، والأساطير، والألغاز، والأمثال، والأقوال المأثورة والمواعظ، والألعاب التقليدية.

إن الهدف العام من إقامة المناطق المحمية هو حماية وإبراز الموارد الطبيعية والثقافية والأثرية والتراثية والاستفادة منها بصورة مستدامة ومتوازنة؛[3] ويجب أن تمثل بشكل عام جميع الأنظمة البيئية ذات الأهمية الكبيرة والموائل الطبيعية والنباتات والحيوانات الهامة، إضافة للمواقع ذات الأهمية الثقافية والأثرية والتي لها بعد حضاري وتاريخي، بحيث تعطى الأولوية عند اختيار المناطق لتكون مناطق محمية إلى الموارد الهشة والحساسة بيئيا وتلك التي لها أهمية حضارية وتاريخية كبيرة.

وتقوم عمليات الحفاظ على التنوع الحيوي والمقومات الطبيعية والتراثية والأثرية في هذه المناطق على اتجاهين:[4] داخل المناطق المحمية: أي في نفس المكان، أو خارج هذه المناطق كحماية الكائنات الحية المهددة بالانقراض في حدائق الحيوانات وحماية المقومات الحضارية والأثرية في المتاحف.

I. التنمية المستدامة:

ورد مفهوم التنمية المستدامة لأول مرة في تقرير اللجنة العالمية للبيئة والتنمية عام 1987 وعرفت هذه التنمية المستدامة في هذا التقرير على أنها «تلك التنمية التي تلبي حاجات الحاضر دون المساومة على قدرة الأجيال المقبلة في تلبية حاجياتهم»[5].

كما عرف برنامج الأمم المتحدة للبيئة 1991 التنمية المستدامة على أنها: «تحسين شروط وجود المجتمعات البشرية، مع البقاء في حدود قدرة تحمل أعباء الأنظمة البيئية».

وتتلخص مبادئ التنمية المستدامة في العناصر التالية:[6]

-**مبدأ العدالة:** يقوم هذا المبدأ على إمكانية حصول الناس على حقوق متوازنة في المجتمع من حيث المكانة والثروة، والتمتع بحصة متوازنة والمشاركة المنصفة في عملية التنمية من خلال السعي لاكتشاف مقومات التنمية.

-**مبدأ التمكين:** أي يجب أن يكون الناس في وضع يتيح لهم المشاركة الكاملة في القرارات والآليات التي توجه حياتهم ومصيرهم، والتي لا يجب أن تصاغ في غيابهم ودون أن يتمكنوا من التعبير عن حاجاتهم ومشاكلهم الفعلية.

-**مبدأ التقارب الاجتماعي:** إن تطبيق هذا المبدأ يرتكز على تنمية الموارد البشرية والقضاء على البطالة وعدم تهميش فئات واسعة من المجتمع وتطور المشاركة وتثبيت مبدئي المساءلة وحسن الإدارة.

وللتنمية المستدامة ثلاثة أبعاد مرتبطة ارتباطا وثيقا فيما بينها. ومن شأن الإجراءات التي تتخذ من أحدها تعزيز الأبعاد الأخرى مما يدعو إلى إحراز تقدم متزامن في كل منها. وتتمثل هذه الأبعاد الثلاثة في:[7]

أ- البعد الاجتماعي: تتكون التنمية الاجتماعية من متغيرات التعليم، الصحة ومستوى المعيشة. وتتحقق التنمية الاجتماعية المستدامة عندما تتوافر الموارد اللازمة لمقابلة احتياجات الأجيال القادمة من فرص التعليم ومن الخدمات الصحية ومن معدلات مقبولة لمستوى المعيشة.

ب-البعد الاقتصادي: القصد منه تحقيق معدل التغير في نصيب الفرد من الناتج القومي خلال فترة معينة ويتطلب ذلك مقابلة هذا المعدل مع معدل النمو في الموارد باستخدام التغيرات التي تطرأ على إنتاجية الموارد المتاحة. كما تتطلب التنمية الاقتصادية المستدامة ضرورة انخفاض معدلات النمو في استهلاك الموارد الطبيعية المتجددة عن معدلات النمو فى الكميات المتاحة من هذه الموارد.

جـ- البعد البيئي: يرتبط النجاح بيئيا بحسن الإدارة البيئية للمشاريع الإنمائية ويتطلب ذلك: وجود قانون بيئي، إنشاء مؤسسات معنية بشؤون البيئة، إجراء التقييم البيئي المستمر للمشاريع التنموية، نشر الوعي البيئي والتربية والتدريب وضرورة إدماج مفهوم التثقيف البيئي ضمن المناهج الدراسية. كما تتطلب الاستدامة تغييرا تكنولوجيا مستمرا في البلدان الصناعية لكون التكنولوجي أمر هام في التوفيق بين أهداف التنمية وقيود البيئة.

في العموم يمكن القول أن التنمية المستدامة تتضمن التخطيط لتنمية اقتصادية غير ضارة

بالبيئة، ولا تضع في الوقت نفسه قيودا على طموحات الإنسان المشروعة لتحقيق التقدم والرقي والنمو الاجتماعي والاقتصادي وهي إطار عام من أجل خلق توازن بين النشاط الاقتصادي والتنموي والنظام البيئي والطبيعي، وهذا من منطلق أن التنمية الاقتصادية والمحافظة على البيئة هما عمليتان متكاملتان، ولا يوجد تناقض بينهما، وعليه فالتنمية المستدامة تسعى لتحسين نوعية حياة الإنسان، ولكن ليس على حساب البيئة، وهي في معناها العام لا تخرج عن كونها عملية استغلال للموارد الطبيعية بطريقة عقلانية بحيث لا يتجاوز هذا الاستغلال للموارد معدلات تجددها الطبيعة.

ثانيا: الحفاظ على التراث الثقافي في حظيرتي الأهقار والطاسيلي في إطار مبادئ التنمية المستدامة:

II. الحظائر الثقافية في الجزائر:

إن التطور الملحوظ في حماية البيئة من جهة وحماية الممتلكات الثقافية من جهة أخرى وانطلاقا من التكامل بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها؛ أصبح جليا من أنه لا يمكن فصل الثقافة عن البيئة فهما مفهومان غير قابلان للتجزئة خاصة فيما تعلق بالمناطق التاريخية والأثرية المفتوحة على الطبيعة. وهو ما تجلى في الجزائر بعد إنشاء حظيرة الطاسيلي وظهور الحاجة إلى إدارة هذه المناطق في إطار رؤية شاملة وموحدة ونهج متعدد التخصصات. وقد جاء في هذا الاطار قانون 98-04 المؤرخ في 20 صفر عام 1419 الموافق لـ 15 جوان 1998 المتعلق بحماية التراث الثقافي والذي عرف الحظيرة الثقافية بأنها: «فضاء لا يميز بين الطبيعي والثقافي، يلاحظ ويدرك من منظور بيئي وثقافي كأداة ثقافية ومنجز جماعي في إعادة تشكيل مستمر، منتج تاريخي للعلاقات المشتركة بين السكان ونشاطاتهم وتصوراتهم الذهنية والبيئة التي يتقاسمونها[8] وهو ما يؤكد على خصوصية هذه المناطق فهي مساحات تتميز بغلبة وأهمية الممتلكات الثقافية فيها، والتي هي جزء لا يتجزأ من البيئة الطبيعية.

ولقد شرعت وزارة الثقافة في القيام بمشروع أشمل هو الأول من نوعه في العالم، وهو إنجاز شبكة حظائر ثقافية على المستوى الوطني، حيث توسعت مساحة المناطق المحمية في الجزائر إلى 937430 كم^2[9]، وستحرص فيها على ربط الثقافة بالبيئة لما لهما من إسقاطات على بعضهما البعض. فبالإضافة إلى حظيرتي الأهقار والطاسيلي تم إنشاء ثلاث حظائر أخرى: حظيرة الأطلس الصحراوي وحظيرة تندوف وحظيرة «توات- قورارة- تيدكلت». وقد مر إنشاء الحظائر الثقافية

بالجزائر على المراحل التالية:

1972	انشاء الحظيرة الوطنية طاسيلي ناجر على مساحة 3.000كم^2
1982	توسيع مساحة الطاسيلس ناجر الى 72000كم^2 وتصنيفه في مواقع التراث العالمي المشترك.
1986	اعتباره كمحمية للمحيط الحيوي.
1987	اعادة تنظيم حظيرة الطاسيلي وتوسيعها الى 138200كم^2
1987	انشاء الجظيرة الوطنية للأهقار على مساحة 450000كم^2
1998	صدور القانون 98-04 المتعلق بحماية التراث الثقافي
2007	دمج انشاء الحظائر الثقافية في المخطط التوجيهي للمناطق الأثرية والتاريخية (الذي يعتبر كجزء من SNAT)
2008	انشاء الحظائر الثقافية الثلاثة: الأطلس الصحراوي، تندوف وحظيرة توات- قورارة- تيدكلت

Source : Parcs Culturels du Tassili N'Ajjer et de l'Ahaggar - Plan d'Action pour la Biodiversité (PAB), 2010, p3.

III. التراث الثقافي في حظيرتي الأهقار والطاسيلي:

- **الحظيرة الثقافية الأهقار** :

تقع حظيرة الأهقار التي أنشئت سنة 1987 في أقصى جنوب الجزائر، على مساحة450.000كلم^2، تعين حدودها كالتالي:[10] الشمال: بلدية المنيعة بولاية غرداية وبلدية رويسات بولاية ورقلة، الشمال الشرقي: بلدية برج عمر إدريس بولاية إيليزي، الشمال الغرب: بلديتي أولف ورقان بولاية أدرار، الشرق : بلدية برج الحواس بولاية إيليزي، الغرب: بلدية برج باجي مختار بولاية أدرار، الجنوب: حدود جمهورية النيجر ويقدر طول الشريط الحدودي بحوالي 844 كلم وحدود جمهورية المالي ويقدر طول الشريط الحدودي بحوالي 338 كلم، وهي الأكبر في الجزائر، وهي قديمة التكوين حيث يبلغ عمرها بين 600 ألف ومليون سنة، مما أدى إلى ترقيتها إلى حظيرة وطنية محمية من طرف الديوان الوطني للحظيرة بموجب مرسوم رئاسي وهو جهاز ذو طابع إداري وثقافي أسندت له من خلال مديرياته الثلاثة في كل من تمنراست وعين صالح وأدلس مهمة حماية وترقية هذا الإرث الحضاري بالمنطقة[11]، وقد تم تغيير اسمها من الحظيرة الوطنية للأهقار إلى الحظيرة الثقافية للاهقار وفقا المرسوم التنفيذي رقم11-87 المؤرخ في 21 فيفري 2011.

إن القيمة التاريخية للحظيرة تعكسها نقوش وكتابات التيفينغ ولوحات صخرية تعود الى 600 ألف سنة تؤكد وجود حضارات في منطقة الصحراء سبقت حضارة الفراعنة، كما تضم

مواقع جيولوجية نادرة كمناجم وأثريات وبقايا مقابر تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام، بالإضافة إلى الكثير من النقوش كالرسومات الصخرية مما جعل ولاية تمنراست أغنى منطقة سياحية في الجزائر، كما أنها تعيش أكثر الطقوس كالاحتفالات الشعبية والأعياد المحلية كعيد الربيع أو ما يسمى «التافسيت والأسيهار»، وهي معارض تجارية تفتتح شهري جانفي وفيفري وجملة من الزيارات التي تشكل جزءا لا يتجزأ من ثقافة ووجود سكان الصحراء. إضافة لمناظرها الخلابة وسحرها الجذاب والجبال الصخرية أين توجد أحد أعلى القمم بالجزائر وهي: قمة تاهات اتاكور 3301م وكذلك يوجد بها أحد أجمل الممرات في العالم وهو ممر الأسكرام الذي يمكن من خلاله مشاهدة أجمل شروق وغروب للشمس في العالم.

- **الحظيرة الثقافية طاسيلي ناجر:**

تقع الحظيرة الثقافية للطاسيلي ناجر في الجنوب الشرقي للجزائر وتقدر مساحتها بـ 138.000 كلم^2، تعين حدودها كالتالي:[12] الشمال: التكوينات الرملية للكثبان الواقعة شمال التكوينات الرسوبية لهضبة التاسيلي ن أزجر، الغرب: بلديتي تازروك وأدلس بولاية تامنغست، الشرق: حدود ليبيا ويقدر طول الشريط الحدودي بـ 520 كلم، الجنوب: حدود جمهورية النيجر ويقدر طول الشريط الحدودي بـ 220كلم. وقد تم تأسيسها سنة 1972، ثم صنفت ضمن التراث العالمي من طرق منظمة اليونسكو سنة 1982 ثم وسع إلى مساحته الحالية 138.200كم^2 سنة 1986 وصنف كمحمية للمحيط الحيوي.

وهو عبارة هضبة من الأنهار في سلسلة جبلية، ترتفع بأكثر من 2000 عن سطح البحر عرضها من 50 إلى60 كلم وطولها800 كلم مشكلة مساحة 12000كلم^2، ترتفع من على الرمال قمم صخرية متآكلة جدا تعرف بالغابات الصخرية وكأنها أطلال مدينة قديمة مهجورة بفعل الزمن والعواصف الرملية، ويعتبر موقع التاسيلي من أهم وأروع المواقع العالمية من حيث طبيعته الجيولوجية، ويعود تاريخ هذا الموقع إلى 6000 سنة قبل الميلاد، وتتجلى عظمته من حفرياته التي كشفت عن بقايا الحيوانات والنباتات التي كانت تعيش بهذه المنطقة، ومن أهم مميزاتها: وجود أكبر وأجمل رواق للنقوش الصخرية على الهواء الطلق بالجزائر بمحطاته الـ 75 التي تضم أكثر من أربعة آلاف شكل تم جردها عبر مسافة تقدر بنحو 30 كلم.[13]

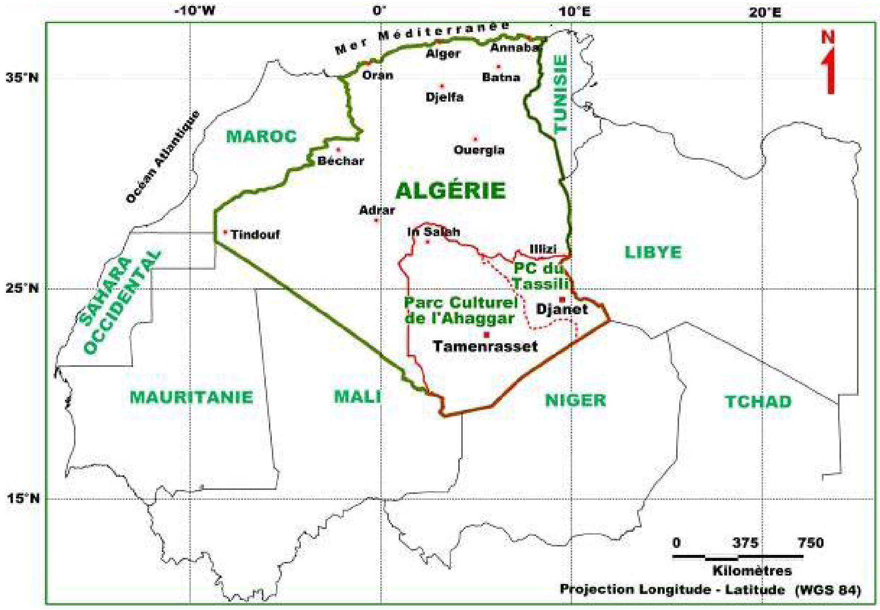

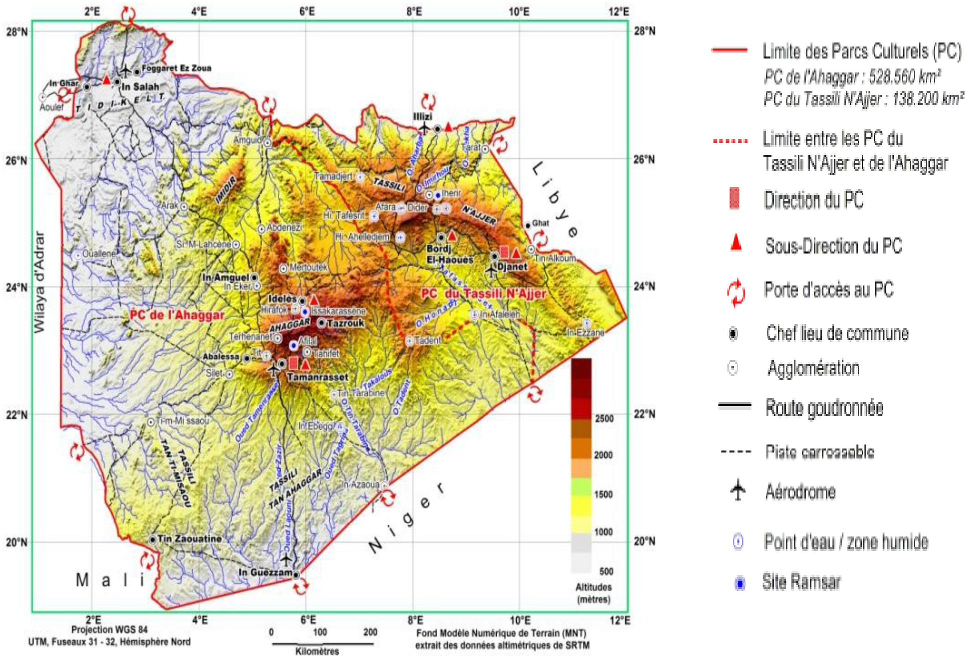

Source : Parcs Culturels du Tassili N'Ajjer et de l'Ahaggar - Plan d'Action pour la Biodiversité (PAB), 2010, p14.

- **التراث الثقافي في الأهقار والطاسيلي:**

تستفيد الممتلكات الثقافية المنقولة والغير منقولة والغير مادية من إجراءات وتدابير مصممة خصيصا لكل فئة من أجل حماية وتعزيز هذه الممتلكات؛ التي توجد في أعلى هرمها الحظائر الثقافية باعتبارها إرثا للإنسانية من الحضارات التي تعاقبت من عصور ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا.

التراث الأثري: لقد تعاقبت عدة حضارات في منطقة الأهقار والطاسيلي وذلك منذ العصور الحجرية القديمة حيث شهدت المنطقة الثقافة Oldowayen والثقافة الاشولينية Acheuléen وذلك من خلال الأدوات الحجرية الموجودة كذات الوجهين biface والسواطير hachereaux، كما توجد شواهد على الحضارة العاترية Atérien المميزة لشمال إفريقيا كالصناعات الحجرية المختلفة التي تميز جميعها بمحاور pédoncule. إضافة إلى شواهد العصور الحجرية الحديثة كالأدوات الفخارية والزراعية والتماثيل المنحوتة، كما تميزت المنطقة بالآثار الجنائزية والطقوس المختلفة.[14] إضافة للعديد من الآثار التي تعكس الحقب الزمنية المختلفة والحضارات التي شهدتها هذه المنطقة.

النقوش الصخرية: تعتبر منطقة الأهقار والطاسيلي من أهم مواقع النقش الصخري عالميا، حيث نقل رجل العصر الحجري يومياته وحياته من خلال نقشها ورسمها على الجدران والسقوف، حيث تمثلت الرسومات في حيوانات ومشاهد من الحياة اليومية إضافة لبعض الأشكال الهندسية.

نموذج من النقوش الصخرية المتواجدة بالأهقار والطاسيلي

التراث المبني: توجد بعض المباني لكنها في حالة متدهورة، إلا أنه توجد بعض المباني في

الأهقار التي تخضع ببعض الاهتمام من أجل ترميمها وتصنيفها مثل: صورو اق امستان sorro ag amesten، صورو بتازروق sorro de tazrouk، حصن تشارلز دي فوكو وقصبة بجودة. ومن جهة أخرى نجد المباني التقليدية التي تتمثل في مجموعة من القصور والقرى التي تتميز بطابع سكني مكيف مع الظروف المناخية والاجتماعية بالحظيرتين مثل قصور جانت (الميهان، ازلواز) وقرى اهرير، اهرهار وايميهرو بالطاسيلي ناجر، ومرتوتك وتيط بالأهقار التي بنيت كلها بالطين؛ وهي بالتالي تقدم نموذج رائع عن الاستدامة[15].

<u>التراث الغير مادي:</u> التراث الغير مادي في الأهقار والطاسيلي ينقل لحد الآن موروث الأسلاف المتجذر في ذاكرة المجتمع من خلال التقاليد الشفوية والأساطير حيث يترجم جزء كبير منه في ألحان الايمزاد والتيندي، كما أن المعارف المكتسبة من الأجداد تمكن سكان المنطقة من نسج علاقة وطيدة مع الطبيعة فكل جبل في الأهقار أو الطاسيلي إلا وله أسطورة معينة.

- **الطوارق:** هم أمازيغ يطلق عليهم بالرجال الزرق اشتق اسمهم من الكلمة الأمازيغية «Targa» التي تعني الساقية أو منبع الماء، ويطلقون على أنفسهم «الإموهار» التي تعني في اللغة العربية الرجال الشرفاء الأحرار. يعيش الطوارق في قبائل يرأس كلا منها شيخها الخاص»أمغار» تحت إشراف حكيم الحكماء «أمينوخال» الذي يعين من قبل شيوخ القبائل. تعيش هذه القبائل حياة الترحال في الخيام عبر رمال الصحراء متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم بداية من لباسهم الذم يقيهم من الحر والقر «فالاليوان والتندي والالوقال فالشاش ذي اللون النيلي، الاكرياري) السروال(والاراوسال)القندورة(والا راتيمن) الحذاء(كلها تجعل هذا الباس من المميزات الخاصة بالاهقار والطاسيلي»[16] إلى فلكلورهم الذم يعود إلى آلاف السنين المعبر عن آلامهم كسعادتهم باستخدام الشعر والتندي والأمزاد الذين تعزف عليهما الترقيات ويرقص على أنغامه الرجال الملثمون الذين ينقلون إلى السائح قصصهم وأساطيرهم كأسطورة تنهينان أم الأشراف وأشهر امرأة في تاريخال الطوارق والتي أسست مملكة الهقار، يوجد ضريحها اليوم في منطقة أباليسة في تمنراست. ويتكلم التوارق لغة «الايموهار» المشتقة من البربرية ويسمى الخط التيفناغ ويحتوي على 25 حرفا على الأقل»[17].

لكنّ هذا الثراء اللافت، تتهدده أخطار قد تؤدي إلى تلاشي صفحات ذهبية من تراث وحضارات الجزائر، يأتي في صدارة هذه المخاطر عوامل طبيعية داهمة كالجفاف والتصحر، والرياح والسيول الجارفة وهي ليست بأخطر من اعتبارات إنسانية تهدد التنوع البيئي

والبيولوجي الذي تمتلكه الحظيرة سواء عم طريق التهريب وسرقة القطع الأثرية المنتشرة في الحظيرتين أو الممارسات السلبية للسياح والزوار، أو بسبب قلة الوعي لدى المواطنين بأهمية التراث وإهماله. كما أن المساحة الواسعة للحظيرتين تحول دون إمكانية المراقبة الشاملة والكلية لها.

وعليه تعود مهمة الحفاظ على هذا الموروث وتثمينه لديواني الحظيرتين بصفتهما الجهة المسؤولة عن تسييرهما؛ حيث تعمل الحظيرة الوطنية للأهقار في مجال حفظ التراث والموروث الحضاري الوطني، من خلال هرم مهيكل إداريا، ويتكون الهرم من ثلاث مديريات جهوية لحماية وحراسة التراث، ولهذه المديريات تفريعات تتوزع على ثلاثة أنواع: «مركز حراسة الموقع، مركز حراسة ومراقبة، مركز إغاثة وإعلام، ناهيك عن مركز بوابة»[18]. وهذه المراكز جميعها تعمل بالتنسيق مع المصالح المعنية من درك وجمارك وشرطة المطارات ونقاط العبور، بغرض تأمين التراث من ظواهر النهب والسرقة والتهريب، كما يوجد تشكيل إداري عمودي يتألف من أربعة أقسام منضوية تحت مظلة الإدارة العامة، ومن مهام الأخيرة ترقية العنصر البشري بالتكوين والخبرات لتثمين الموارد البشرية المحلية وخلق روابط متينة بينها وبين الموروث الثقافي الوطني. وإلى جانب هذه الأقسام، هناك قسم خامس للدراسات وتنمية التراث الطبيعي يهتم بدراسة وجرد ومتابعة مكونات التراث الطبيعي، إضافة إلى قسم سادس يهتم بدراسة وحفظ التراث الثقافي، ومن مهامه البحث ودراسة الموروث المادي وغير المادي، وإنشاء ميكانيزمات من شأنها حفظه ونقله إلى الأجيال القادمة، كما يوجد هناك قسم سابع مختص في الاتصالات والتنمية السياحية، ومن مهامه الإعلام والاتصال ومراقبة مشاريع التنمية في مختلف القطاعات، حتى لا تكون هناك أي انعكاسات سلبية على منظومة التراث[19]. وهو الحال بالنسبة لديوان حظيرة الطاسيلي التي تراقب الداخلين للحظيرة من خلال مراكز حراسة وعبور وهذا طبعا بالتنسيق مع المصالح المعنية.

كما استفادت الحظيرتين من مشروع للحفاظ على التنوع البيولوجي وهو ما يساهم بالتأكيد في الحفاظ على ممتلكات الحظيرتين واستدامتها.

IV. مشروع المحافظة على التنوع البيولوجي بالمناطق ذات الأهمية العالمية في حظيرتي الأهقار والطاسيلي:

يندرج هذا البرنامج في الرؤية طويلة الأجل لوزارة الثقافة لجعل الصحراء كاقليم متفرد

يسير بطريقة مترابطة لا نفصل فيها بين القيم الثقافية، موارد التنوع البيولوجي وخدمات النظام الايكولوجي. وفيما يلي سنتعرف عن هذا المشروع:

اسم المشروع	المحافظة على التنوع البيولوجي ذو الأهمية العالمية والاستعمال المستدام لخدمات الأنظمة الايكولوجية في الحظيرتين الثقافيتين الأهقار والطاسيلي ناجر Préservation et utilisation durable de la diversité biologique d'intérêt mondial dans les Parcs Culturels du Tassili N'Ajjer et de l'Ahaggar
الوزارة المسؤولة والمساهمة في المشروع	وزارة الثقافة
الهيئات الدولية المساهمة في المشروع	الصندوق العالمي للبيئة FEM , برنامج الأمم المتحدة للتنمية PNUD
أعضاء لجنة قيادة المشروع	وزارة الثقافة، وزارة الشؤون الخارجية، برنامج الأمم المتحدة للتنمية PNUD، وزارة الداخلية والجماعات المحلية، وزارة المالية، وزارة البيئة وتهيئة الاقليم والسياحة، وزارة الفلاحة، وزارة الموارد المائية.
هدف المشروع	- المحافظة على التنوع البيولوجي في حظيرتي الاهقار والطاسيلي عن طريق تحديد إطار عام للتسيير والاستعمال المستدام للتنوع البيولوجي في المنطقة[20] - الموازنة بين الضغط والطلب على خدمات الأنظمة الايكولوجية بطريقة مستدامة. - المساهمة في التعريف بالصحراء كمنطقة ذات أهمية عالمية.
مراحل المشروع	جاء هذا المشروع على مرحلتين: **المرحلة الأولى** وتمحورت حول أدوات التسيير في حظيرتي الأهقار والطاسيلي في المجال القانوني والمؤسساتي، وقد لاقت هذه المرحلة تقييما ايجابيا من طرف الخبراء. وعليه تم إطلاق **المرحلة الثانية** من أجل تحديد الأنشطة والممارسات اللازمة للحفاظ على التنوع البيولوجي في الحظيرتين ومن ثم توسيع مجال الاستفادة إلى الحظائر الثقافية الأخرى:[21] حظيرة الأطلس الصحراوي، حظيرة تندوف، حظيرة توات-قورارة-تيدكلت والتي أنشئت بموجب المراسيم التنفيذية 407 – 09، 09 – 408، 09–409 على الترتيب والصادرة بتاريخ29 نوفمبر2009.

وقد أطلق ضمن المرحلة الثانية من هذا المشروع خطة العمل من أجل التنوع البيولوجي (PAB) والتي تمثل الإطار التنفيذي له؛ وقد جاءت في 7 محاور نذكرها كالآتي:

- التسيير التشاركي للتنوع البيولوجي،

- مراقبة ومتابعة التنوع البيولوجي،
- السياحة المستدامة،
- الإعلام التعليم والاتصال،
- البنى التحتية،
- الموارد البشرية،
- الدراسات التكميلية والتخطيط.

خاتـمة:

يشكل الموروث اللامادي والمعالم الأثرية المتواجدة في الصحراء الجزائرية في زمن العولمة تحد كبير للإنسان من حيث كثافة الأسرار التي تحتفظ بها والتي يمكن أن تكون رافدا ثقافيا مهما وملجأ فنيا يمكن لو استغل بأقل الإمكانيات وأيسر الطرق أن يكون عالما ثقافيا قائما بذاته، يمكنه تغيير الكثير من المواقف التقليدية وتقديم التراث الجزائري والصحراوي على الخصوص للباحثين عن جمال الطبيعة ونقاوتها وهدوئها.

فالاهتمام بمثل هذه المناطق الإستراتيجية بإمكانه أن يساهم في تحقيق العديد من المنافع الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي إعادة تحديد النظرة إلى الصحراء الجزائرية وتجاوز معاني الثروات النفطية فيها، كما يمكن بقليل من الجهد أن يتجاوز مفهوم طال تداوله بأنها منطقة قاحلة ومعزولة. إلا أنه بالمقابل يجب العمل على الحفاظ وتعزيز التراث الثقافي بالمنطقة وحمايته من مختلف التأثيرات، فبالرغم من الدور الكبير الذي يلعبه ديواني حظيرتي الأهقار والطاسيلي والخبرة التي اكتسباها على صعيد حماية وحفظ المكتسبات الحضارية والأثرية الوطنية المتواجدة في مساحة تقارب سبعمائة ألف كيلومتر مربع، إلا أنه يمكن الجزم بأنّ الحظيرتين وعمالهما لن يستطيعوا الوفاء بموجبات هذه المساحة، ما لم يكن هناك حس ووعي لدى الجميع بأهمية هذه الثروة وحساسيتها؛ وهو ما يدعو إليه برنامج حفظ التنوع البيولوجي في حظيرتي الأهقار والطاسيلي حيث يركز بالدرجة الأولى على التسيير التشاركي بالحظيرتين وضرورة دمج السكان المحليين في الحفاظ على موارد الحظيرة. كما أنه يقدم مجموعة من التدابير والخطوات التي تساعد الديوانيين على المحافظة على موارد الحظيرة وتنميتها واستدامتها، فضلا عن ترشيد استخدامها وترسيخ الشعور بالمسؤولية لإبقاء الحظيرتين صرحا شامخا في سماء الجزائر.

هوامش البحث:

1 . ابراهيم بظاظو، السياحة البيئية واسس استدامتها، الوراق للنشر والتوزيع، الأردن، ص: **306.**

2 . بالحاج حمو عبد الله، بابانجار يونس، النصوص القانونية المتعلقة بالتراث الثقافي الجزائري، وزارة الثقافة، **2013**، ص: **8.**

3 . ابراهيم بظاظو، المرجع السابق، ص: **465.**

4 . المرجع نفسه، ص: **469.**

5 . اللجنة العالمية للبيئة والتنمية، الاقتصاد البيئي والتنمية المستدامة، **1989**، ص: **83.**

6 . ايمان محمد الطائي، حسن حمود الفلاحي، التكوين الاجتماعي والثقافي ودورهما في التنمية المستدامة، مجلة البحوث التربوية والنفسية، العدد الحادي عشر، بغداد، ص **28.**

7 . لزعر علي، ناصر بوعزيز، البيئة والتنمية المستدامة: قراءة في المفهوم، الملتقى الوطني حول: آفاق التنمية المستدامة في الجزائر ومتطلبات التأهيل البيئي للمؤسسة الاقتصادية، جامعة قالمة، **2010**، ص:**2.**

8 . مرسوم تنفيذي رقم **12-291** مؤرخ في **2** رمضان عام **1433** ا لموافق **21** يوليو سنة **2012**، المادة **2**، العدد **44** من الجريدة الرسمية، **29** يوليو **2012**، ص: **5.**

9 Parcs Culturels du Tassili N'Ajjer et de l'Ahaggar - Plan d'Action pour la Biodiversité (PAB), 2010, p : 3.

10 . مرسوم تنفيذي رقم **12-291** مؤرخ في **2** رمضان عام **1433** ا لموافق **21** يوليو سنة **2012** المادة **3**، العدد **44** من الجريدة الرسمية، **29** يوليو **2012**، ص: **5.**

11 .http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D8%A8%D8%A7%D9%84_%D9%87%D9%82%D8%A7%D8%B1

12 . مرسوم تنفيذي رقم **12-292** مؤرخ في **2** رمضان عام **1433** ا لموافق **21** يوليو سنة **2012** المادة **3**، العدد **44**من الجريدة الرسمية، **29** يوليو **2012**، ص: **11.**

13 . http://ar.wikipedia.org

14 . Parcs Culturels du Tassili N'Ajjer et de l'Ahaggar – Op. Cit. p :16.

15 . Ibid. p :18.

16 . تقرير حول السياحة في الجزائر، الهقار والطاسيلي عالم من الطمأنينه، الديوان الوطني الجزائري للسياحة.

17 . المرجع نفسه.

18 www.startimes.com/f.aspx?t=23022928 consulté le 10-05-2014

19 . Ibid.

20 . Evaluation finale du projet Préservation et utilisation durable de la diversité biologique d'intérêt mondial dans les Parcs nationaux de l'Ahaggar et du Tassili (Phase 1), Octobre 2010, p 4.

21 . العدد **76** من الجريدة الرسمية، **6** ديسمبر **2009**، ص: **4، 8، 12.**

الحفظ الوقائي للمواقع الأثرية بغرداية

زعابة عمر، مخبر التراث الأثري وتثمينه (جامعة تلمسان)

Abstract:

What distinguishes each civilization of a country to those of others, of course, is its culture and heritage. However, the reality is that the loss, degradation and destruction have become the fate of the majority of archaeological sites in the Ghardaïa, which have been very elegant in recent past. Conservation and preservation of archaeological sites does not stop at preventive work, the role of the human beings is an essential element. For this reason then, that ensuring proper training of high-level specialist skills in the field, who will be responsible for ensuring the conservation of these sites, should be the concern of everyone.

مقدمة:

تزخر الجزائر عامة ومنطقة مزاب خاصة على الأطلال الباقية من الحضارات السابقة والإسلامية على وجه الخصوص، فالمواقع الأثرية الموجودة فيها تؤدي دورا هاما في صياغة ذاكرة الأمم وعمقها الحضاري وتمايز ثقافتها المحلية، ويمثل هذا التراث الأثري انعكاسا لهوية وحضارة هذه الأمم والرابط بين ماضيها وحاضرها والدليل الواضح على عراقتها وأصالتها، فيجب الحفاظ على هذا التراث وإعادة تأهيله لحفظه ووقايته وتطويره ليتلاءم مع ظروف العصر والتحولات الحضارية المستمرة .

لكن هذا التراث الأثري رغم أنه مصنف ضمن التراث العالمي والوطني لم يسلم من التخريب والهدم والإهمال، من المهم أن يكون الحفظ الوقائي للمواقع الأثرية من الأولويات الرئيسية في الإستراتيجيات السياسية، والاقتصادية للدول، لذا فعلى كلّ بلد العمل على ضمان ذلك في إطار ثقافته وتقاليده، فقد كانت اتفاقية أثينا سنة 1931م، بداية لتأسيس إستراتيجية عالمية تهتّم بالتّراث الأثري والتّاريخي في كامل أقطار العالم وذلك بإنشاء هيئات ومؤسسات دولية لحفظ ووقاية الممتلكات الثقافية ونذكر على سبيل المثال المنظمة الدولية للتربية، والتعليم، والثقافة "اليونيسكو"، أو المنظمات المنضوية تحت لوائها مثل الإيكروم.

1-الإطار الجغرافي والتاريخي لمنطقة وادي مزاب :

إن منطقة مزاب وكغيرها من المناطق الجزائرية، تتميز بطبيعتها وجغرافيتها وتاريخها مما خولها في إنشاء حضارة خاصة بها.

أ- الإطار الجغرافي:

تتميز مزاب والمناطق المجاورة لها بموقعها الجغرافي والفلكي الاستراتيجي وجيومرفولوجية تضاريسها وجيولوجيتها ومناخها التي أكسبها نوعا من الخصوصية.

أ- 1- الموقع الجغرافي والفلكي:

تقع منطقة واد مزاب بقلب المنطقة الشمالية للصحراء الجزائرية، على بعد 600 كلم جنوب الجزائر، بين خطي طول40˚0 و50˚2 شرق خط غرينتش وبين دائرتي عرض80˚32 و20 ˚33 شمالا[1]، وتتربع على مساحة تقدر ب 86106 كلم[2]، تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وترتفع عن مستوى سطح البحر ب 780م في الجهة الشمالية الغربية، وذلك في رأس الريحة جنوب حاسي الرمل، ويقل الارتفاع تدريجيا كلما اتجهنا إلى الجنوب الشرقي ليصل إلى حوالي 300م[3].

إداريا، ولاية غرداية يحدها من الشمال ولاية الأغواط والجلفة وجنوبا ولاية تمنراست، ومن الجنوب الغربي ولاية أدرار ومن الشمال الغربي ولاية البيض ومن الشرق ورقلة.

ويحدها تضاريسيا شمالا واد «أوريغينو» وغربا واد «زرقون» ويمتد شرقا بمحاذاته كل من زلفانة والقرارة وجنوبا واد متليلي[4].

أ2-جيومورفولوجية المنطقة:

تقع منطقة واد مزاب في الحزام الشمالي للصحراء الإفريقية، وتتكون من منخفض كريتاسي الذي ينقسم إلى حوضين، حوض قرارة وحوض ملغيغ التابعان للصحراء الدنيا، تفصلهما هضبة مكونة من حزام عمودي متصلة بسلسلة الأطلس الصحراوي شمالا، وبهضبة «تيديكالت » المتصلة بدورها بسلسلة الأهقار[5].

كما أنّ منطقة واد مزاب عبارة عن منخفض متدرج يتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، يمتد في وسطه أخدود يمثل واد مزاب لا يتعدّى عرضه الكيلومترين، وعلى امتداد

ضفتي هذا الوادي تمتد سلسلة من الجبال الصّخرية انخفاضها عن مستوى الهضبة يقدر بـ 80م[6].

تنتمي الترسبات الجيولوجية بالوادي إلى الزمنالكريتاسي (الطباشيري) الأوسط، مشكلة هضبة صخرية من الصخور الجيرية الصلبة من العهد التورنيني، نحتتها عوامل التآكل النهري في الفترة الرطبة التي بدأ معها العصر الرابع،مكونة مجموعة كبيرة من الأخاديد والأودية الجافة لا يتجاوز عمقها 100م تتقاطع فيما بينها، مشكلة ما يشبه الشبكة، سميت على إثره منطقة وادي مزاب بـ « بلاد الشبكة»[7].

من خريطة طبوغرافية على مقاس 1/200.000 أو1/500.000 ملمتظهر سلسلة من الوديان متوازية من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الشرقي في انحدار ضعيف يقدر بـ 0.2%، من بين هذه الأودية واد متليلي، واد تويل، واد موسك، الذي يعرف مصّبه بواد سبسب و» تغير « و» بوعلي « و» زرارة « ومن الشمال واد النسا، يتراوح طول هذه الأودية بين 100 إلى 300كلم[8]، نجد وادي مزاب الذي يستقبل مياهه عند سيلانه من وادي لعذيرة وواد الأبيض وواد توزوز، كشعاب رئيسية تسقيواحات غرداية ثم تصّب في وادي مزاب الذي يسقي واحات مليكه، أمّا وادي أنتسيه غرب الوادي فيسقي واحات بني يزقن ثم يصب بدوره في وادي مزاب، ويصّب فيه أيضا واد أزويل الذي يسقي جزءا من غابات بنورة مكملا مجراه إلى العطف حيث يلتقي به واد أيت مزاب ثم واد أولوال إلى زلفانة ،حيث يكمل مجراه إلى أن ينتهي بسبخة الهايشة على بعد 16 كلم من نفوسة شمال ورقلة.

إنّ المناخ في منطقة وادي مزاب كغيره من المناطق الصّحراوية، مناخ صّحراوي جاف[9]، يعتبر حوصلة لعوامل المناخ المختلفة كالحرارة والرطوبة والتساقط ومفعول الرياح ويتسم بصيف حار وجاف وشتاء بارد ورطب نسبيا، وهذا ما تأكده نتائج الديوان الوطني للأرصاد الجوية في ولاية غرداية.

الحرارة الشديدة والبرودة القاسية هي من سمات المناخ الصحراوي، إذ تعرف ارتفاعا محسوسا تصّل إلى درجة 48مْ مقابل حد أدنى يصل إلى 1مْ[10]، كما يعرف هذا المناخ بتباعد المدى الحراري في اليوم بين الليل والنهار.

إنّ الرطوبة في المناخ الصّحراوي منخفضة لقلة المسطحات المائية وارتفاع درجات الحرارة،

لكن ليست منعدمة حيث تشهد ارتفاعا نسبيا في فصل الشّتاء عكس فصل الصيف الذي تسجل فيه أدنى مستوى لها.

الأمطار الفجائية والغير المستقرة هي سمة التساقط في منطقة وادي مزاب، بمعدل60 ملل سنويا[11]، مع تعرضها أحيانا إلى ظاهرة الجفاف الذي قد يمتد إلى عدة سنوات كما تكون أحيانا خاطفة وغزيرة،تؤدي إلى كوارث وفيضانات على غرار فيضانات المسّاح * 1901، مسّاح[12]1914، ومسّاح1 أكتوبر 2008.

الرياح في منطقة مزاب حاضرة على مدار فصول السنة الأربعة، وتشتّد في فصل الربيع خصوصا وفصلي الشتاء والصيف، وتتراوح سرعتها ما بين 9.8 م/ثا و12.4 م/ثا[13].

ب- الإطار التاريخي:

إنّ منطقة مزاب كغيرها من المناطق، مرت بفترات تاريخية هامة، شهدت على براعة الإنسان الذي سكن هاته الربوع.

ب1- **مرحلة ما قبل التاريخ:**

إنّ فكرة استيطان إنسان ما قبل التاريخ بالمنطقة رفضها المؤرخون قديما لانعدام دليل مادي يثبت ذلك، وزعموا أن فكرة إستيطان المنطقة قريبة العهد، تعود للقرن الثاني للهجرة الموافق للثامن ميلادي، حيث اتخذها الإباضية وطنا لهم[14].

فخلال الدورة الحادية عشر لمؤتمر ما قبل التاريخ بفرنسا عام 1934م ، قام الباحث الدكتور بيار روفو « ROFFOPIERRE » بإلقاء محاضرة قدم فيها حصيلة الأبحاث الميدانية التي قام بها في المنطقة، حيث أكد الباحث وجود صناعة حجرية تعود إلى الحضارة الموستيرية القديمة والعاترية الحديثة، وكذا القفصية المتمثلة في النصال والنصيلات ذات الظهر المجندل وكذا النيوليتي، والنيوليتي ذات التقليد القفصي[15]، فقد عثر على حوالي 2956 أداة حجرية مقسمة على 11 محطة، تنتشر في كل من ضواحي المنيعة متليلي وقارة الطعام بنواحي بنورة[16].

إلى جانب هذا فإنّ المنطقة غنية بالرسوم الصّخرية، منها مشاهد للحيوانات ورموز التيفيناغ وأشكال أخرى، تنتشر في كل من موقع «مومو» و»أنتيسه» ببني يزقن، «مرماد» والموقع الأثري لقصر «بابا السعد» المندثر بغرداية ومنطقة عطفة الكتبة بأقصى شمال الضاية بن

ضحوة، ومنطقة «أمبارك» ببريان[17]، تمّ تحديد تاريخ معظمها إلى حوالي 5000 سنة قبل الميلاد وبالتحديد في فترة البرونز[18].

كما توجد بالمنطقة أشكال تشبه إلى حد كبير الجثى البسيطة (TUMULUS) رجّح أنّها عبارة عن معالم جنائزية لدفن الموتى اشتهرت بها مناطق الأطلس الصحراوي، وعين الصفرة وضواحيها في فترة فجر التاريخ، كما توجد هذه الأشكال في الجهة المقابلة لهضبة «بال فودار» شمالا وتحديدا غرب قصر بني يزقن.

ب- 2- المرحلة الإسلامية:

سكن منقطة وادي مزاب بنو مزاب منذ أقدم العصور وصولا إلى الفترة الإسلامية حيث وصل إليهم الإسلام على المذهب المعتزلي إلى أن تحولوا عنه إلى المذهب الإباضي.

- مرحلة ما قبل النزوح الاباضي:

تمتد هذه الفترة من الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا (84هـ703-م) إلى القرن الرابع هجري حيث كانت المنطقة تعرف ببادية بني مصعب وهي قبيلة بربرية، وبعد اعتناق هؤلاء الإسلام سبقت إليهم أراء المعتزلة فأخذوا بها[19].

كما اتفقت المصادر على وجود أقوام بمزاب قبل إنتشار المذهب الإباضي به، وذكر أنّ قرية «أغرم ن تلزضيت» من جملة قراهم ومقبرة تحت قصر ملكية تنتسب إليهم ويرجح أنّهم أقوام من البدو الرحل حسب ما يشير إليه اسم قريتهم (أغرم ن تلزضيت) والتي تعني قرية الصوف، على أنّهم قوما كانوا يرعون الغنم ويربون المواشي، ويذكر أنّهم من قبيلة « زناتة «، يقدر أنّ استقرارهم بالمنطقة كان هروبا من القبائل المنافسة لهم، حيث كانت نكبتهم على يد بلكين بن زيري سنة 369هـ كما أشار إلى ذلك ابن خلدون: « دوخ بلكين في هذه السنة المغرب وانكفأ راجعا ومر بالمغرب الأوسط فالتحم بوادي زناتة ومن إليه، ورفع الأمان على كل من ركب فرسا أو أنتج خيلا من سائر البربر وندر دمائهم فأقفر المغرب الأوسط من زناتة» فلا يستبعد أن تكون قد التجأت إلى الوادي واحتمت به[20]، وهناك آراء أخرى حول اندثار هذا القصر وهي إشكالية تاريخية لم يفصل فيها بعد.(الصورة3، 4).

ومن جملة القرى المندثرة التي تنسب إليهم قرية الصوف، تاميزارت بين بنورة ومليكه على يسار الوادي بابا السعد على قمة جبل غربي غرداية، تريشين وتالالت، وتافيلالت ومورکي ببني يزقن، يصل عددها إلى 15 قرية اندثر بعضها ولم يبقى إلاّ الحجارة المتراصة.

- المنطقة بعد نزوح الإباضية:

تمتّد هذه الفترة من القرن الرابع هجري إلى نهاية القرن الثامن هجري، تميزت بتحول نمط معيشة سكان بادية بني مصعب من طابع البدو إلى طابع الاستقرار والاعتماد على الزراعة الثابتة والتحول التدريجي من المذهب المعتزلي إلى المذهب الإباضي بمجيء الإمام أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي من وارجيلان، منتدبا من مؤتمرا ريغ المنعقد سنة 420 هـ1029-م، للنظر في المسائل التي تهم الإباضية منها اللاجئين واكتظاظ منطقة « ريغ « والبحث عن منطقة جغرافية تلّم شملهم وتكون صعبة المنال للغزاة المتربّصين بها من سلاطين الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط كالحمّاديين والزيريين والفاطميين.

خرج عبد الله يجوب الصحراء، فوقع اختياره على منطقة مزاب رغم قسوة طبيعتها، وبعد استقرار الإمام الفرسطائي بها بنى مسجده الذي لا يزال قائما إلى يومنا هذا بالعطف، داعيا سكان المنطقة إلى لمذهب الإباضي، وبعد استجابتهم لندائه أصبح مهجرا وملاذا آمنا للإباضية كلّما نالهم الاضطهاد، وبدأت تتوالى على المنطقة جماعات من أقطار مختلفة مثل ورقلة وواد إريغ، نفوسة، جربة، جبل عمور، قصر البخاري، المدية، سجلماسة، الساقية الحمراء وغيرها من المناطق المختلفة.

وجلهم قبائل بربرية وفيهم عرب أقحاح، حتى صارت لهم وحدة قومية سياسية ولغوية تواضع عليها بربرهم وعربهم بحكم المصاهرة والعلاقة المذهبية[21]، فكونوا في هاته الربوع القاحلةقصورا وهي: العطف، غرداية، بني يزقن، بنورة، مليكة، وجنات خضراء تدب بالحياة متغلبين على قسوة الطبيعة التي سخروها لتخدمهم وتخدم دينهم وأمنهم.

-2 المواقع الأثرية الهامة في ولاية غرداية:

لقد عرف سهل وادي مزاب عدة حقب تاريخية متنوعة بداية من عصر ما قبل التاريخ إلى العصر الإسلامي :

أ- مواقع ما قبل التاريخ:

تزخر عدة مناطق من ولاية غرداية بعدة مواقع لبعض الصناعات الحجرية والنقوش الصخرية تعود إلى فترة ما قبل التاريخ (فترة الباليوليثيك) إلى نحو 18.000 سنة إلى 3000 سنة قبل الميلاد الفترة الليبيكو- بربرية (فترة البرونز) وكل هذه النقوش الصخرية تم تأريخها إلى الفترة الليبيكو- بربرية.

تعتبر هده النقوش ذات أهمية في محتواها وتعتبرالشاهد المادي الذي يعكس النشاط البشري منذ عصور ما قبل التاريخ بالمنطقة مما يستوجب حمايتها والحفاظ عليها من الاندثار ومن أي توسع عمراني عليها أو في محيط حمايتها.

إن من الباحثين من استبعدوا فكرة وجود إنساني بمنطقة سهل وادي مزاب لانعدام دليل مادي يثبت ذلك، منهم الباحثين مارسيل مرسي ومارث غوفيون، لكن خلال الدورة الحادية عشر لمؤتمر ما قبل التاريخ بفرنسا عام 1934م، قام الباحث الدكتور بيار روفو «ROFFOPIERRE» بإلقاءمحاضرة قدم فيها حصيلة الأبحاث الميدانية التي قام بها في المنطقة، حيث أكد الباحث وجود صناعة حجرية تعود إلى الحضارة الموستيرية القديمة والعاترية الحديثة، وكذا القفصية المتمثلة في النصال والنصيلات ذات الظهر المجندل وكذا النيوليتي، والنيوليتي ذات التقليد القفصي[22]، فقد عثر على حوالي2956 أداة حجرية مقسمة على 11 محطة، تنتشر في كل من ضواحي المنيعة متليلي وقارة الطعام بنواحي بنورة[23].

إلى جانب هذا فإنّ المنطقة غنية بالرسوم الصّخرية، منها مشاهد للحيوانات ورموز التيفيناغ وأشكال أخرى، تنتشر في كل من موقع «مومو» و» أنتيسه» ببني يزقن، «مرماد» والموقع الأثري لقصر «بابا السعد» المندثر بغرداية ومنطقة عطفة الكتبة بأقصى شمال الضاية بن ضحوة، ومنطقة «أمبارك « ببريان[24]، تمّ تحديد تاريخ معظمها إلى حوالي 5000 سنة قبل الميلاد وبالتحديد في فترة البرونز.

أ1-أشهر مواقع النقوش الحجرية بولاية غرداية:

-1 موقع النومرات (العطف): حيث يحتوي على 5 محطات هامة تحتوي على مقابر جنائزية تدعى (تيميليس) ومواقع للنقوش الصخرية ومواقع للصناعات الحجرية.

-2 موقع أوخيرة (العطف): يحتوي على نقوش صخرية ذات أشكال ورموز متعددة.

-3موقع مومو (بني يزقن): يحتوي على عدة محطات للنقوش صخرية ذات أشكال ورموز متعددة.(الصورة2).

-4 موقع قصر بابا السعد الأثري (غرداية) يحتوي على نقوش صخرية ذات أشكال ورموز.) الصورة1).

-5 موقع بوهراوة(غرداية): يحتوي على نقوش صخرية ذات أشكال ورموز.

-6 موقع عطفة الكتبة (الضاية بن ضحوة): يحتوي على نقوش صخرية آدمية وبعض الحيوانات كالأحصنة والنعام .

-7 موقع سيدي مبارك وادي باللوح (بريان): يحتوي على رسوم صخرية لبعض الحيوانات وعلى نقوش صخرية.

-8 موقع متليلي: تحتوي على محطات للصناعة الحجرية زمن أشهرها موقع عذي الديب.

-9 موقع المنيعة: تحتوي على عدة محطات للصناعة الحجرية ومن أشهرها: مروقات، حاسي لعبيد وهضبة تدمايت.

بالإضافة إلى المعالم الجنائزية بصحراء المنيعة.

أ- ب- الدراسات الأثرية:

لقد كانت هذه المواقع التي بها النقوش الصخرية محل دراسات علمية من خلال بعض التقارير وبعض الأطروحات الأكاديمية من طرف العديد من الباحثين منذ سنة 1934 نذكر منهم الدكتور Pierre Roffo وAumassip G وBonnet.Y وAbonneau وLefebvre وكذلك الدراسات العلمية التي أجريت مؤخرا من طرف الدكتور نجيب فرحات والدكتورة مليكة حاشيد للمركز الوطني للبحث في ما قبل التاريخ والأنثروبولوجيا .CNRPAH

وحسب الدراسة التقنية لهذه النقوش تبيّن أنها منقوشة بأدوات حجرية بتقنية الطرق وأخرى بتقنية الرسم، تبدو هذه الرسومات على أشكال مختلفة يصعب تفسير معانيها من أهمها:

* أشكال آدمية لمحاربين.

* أشكال الحيوانات: النعام، الجمال، الأحصنة، الثعابين....

* أشكال هندسية: الدوائر أشكال U.V ....

* أشكال رموز مبهمة لم يتم تفكيك رموزها.

* حوف التيفيناغ.

صورة1:موقع بابا السعد-غرداية - صورة 2:موقع مومو-بني يزقن -

إن هذه المواقع الأثرية التي ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ مواقع مهمة وثرية بالمعلومات الأثرية وغيرها من المواقع التي لم تكتشف، لطالما لم نقم بمسح أثري، به نجرد كل ما لدينا من مواقع أثرية، ليسهل على المصالح والمؤسسات الخاصة حماية وحفظ هذا التراث، إلا بعض المحاولات الخاصة، لدى فالمعلومات ضئيلة وقليلة مما يستلزم وضع خطة لحفظ ووقاية هذه المواقع الأثرية في ظل عدم معرفة قيمتها الأثرية.

ب- المواقع الأثرية للفترة الإسلامية:

إن بقايا أثار أطلال القصور القديمة المتناثرة في منطقة مزاب تدل دلالة واضحة على أن المنطقة كانت عامرة بالسكان قبل مجيء الإباضيين إليها أي في فترة ما قبل الخامس هجري .

لقد شيد بنو مزاب الذين كانوا على المذهب المعتزلة الواصلية قبل نزوح الإباضية إلى المنطقة قصورا صغيرة، اندثرت كلها ولم يبق منها سوى بعض الأطلال وقد عدها الدكتور هيغي بنحو خمسة وعشرون قصرا اعتمادا على مصادر إباضية[25].

- ومن أهم هذه القصور هي:

- قصر بوكياو:

اتخذ لنفسه قمة الجبل على بعد 100م من سد بني يزقن على الواحة[26]، أقامه بنو مغراوة في حوالي القرن الرابع هجري، وكانوا على المذهب المعتزلي، وفي فترة من الفترات هاجروا قصرهم وانضموا إلى قصر بني يزقن، فحاليا لم يبقى منه سوى الأطلال وبعض أكوام الحجارة[27].

- قصر تلات:

إن هذا القصر من أقدم القصور في سهل وادي مزاب، يقع في الجنوب الغربي من واحة بني يزقن، ولا تزال أثاره وأطلاله باقية إلى اليوم شاهدة على ما شيده إنسان تلك المنطقة، ويذكر إبراهيم متياز أن هذا القصر أسسه الأخوان عدون وبكلي[28].

- قصر ترشين:

كان يسكنه المعتزلة ثم لجأ إليه الإباضية من نفوسة ومن المغرب واستقروا فيه،ثم انضموا إلى مدينة بني يزقن، في أواخر القرن التاسع الهجري، فاندثرت المدينة، ولم يبق منها سوى آثار المصلى[29].

- قصر تافيلالت:

أسس فوق الهضبة التي شيدت عليها مدينة بني يزقن فيما بعد، وكان يقطنه سمان من سجلماسة، ونزحوا إلى مزاب حسب إبراهيم متياز في أوائل القرن السادس الهجري، وقد انضم إلى هذا القصر سكان تلات وأقنوناي وترشين وبعض سكان موركي، فاتسع عمرانه ليصبح نواة، وحيا من أحياء مدينة بني يزقن، وما زالت آثار القصر كالمسجد والسوق شامخة إلى يومنا[30].

- قصر موركي:

يقع في الجهة الغربية من مدينة بنورة عند تقاطع وادي أنتيسا مع وادي مزاب، وقد شيد فوق هضبة تشرف على وادي مزاب ولم يبق منه إلا أكوام من الحجارة[31]، أسسه الشيخ باستشري بن أيوب بن عدون.

- قصر أغرم ن تلزضيت (قصر الصوف):

من خلال التسمية يبدو أن أهل هذا القصر كانوا بدو رحل يحترفون الصناعات الصوفية ويربون الماشية، يقع هذا القصر في الجهة الجنوبية الشرقية من قصر العطف يبعد عنها بنحو 6 كيلو متر، وهو من أقدم القصور التي كانت يقطنها بنو مزاب، ولم يبق منه سوى بقايا جدران لثلاثة أو أربعة مساكن[32] (الصورة3).

- قصر أولوال:

هو من أقدم القصور التي تلا بناءه بعد أغرم ن تلزضيت(قصر الصوف)، شيد على قمة الهضبة في الجهة الجنوبية لقصر العطف ويبعد بنحو كيلومترين، ولا يزال جزء من سوره قائما

إلى اليوم مع برجه الدفاعي[33]، حيث يقع في موقع استراتيجي مهم جدا يشرف على مجرى وادي مزاب[34])الصورة6).

- قصر بنورة القديم:

يمثل الجزء العلوي المندثر لقصر بنورة في جهته الشرقية، ولا تزال آثاره قائمة إلى اليوم وهو محاط بسور دفاعي تتخلله أبراج دفاعية،و يتوسطه مسجد قديم تعلوه مئذنة هرمية الشكل تشرف على صحن كبير[35])الشكل1)(الصورة5).

- قصر أغرم ن واداي :

يقع في الجهة الجنوبية في سفح قصر مليكة، أسس عام : 395 هـ1004-م، ومعنى تسميتها : القرية السفلى، تهدم عام 1123م ولم يبق منه إلا المسجد..

- قصربابا السعد :

يقال أنه أسس سنة 1046م وكان موجودا إلى غاية سنة 1526م[36].

- تلات موسى: أسسه الشيخ عدون بن إبراهيم ويقع ببني يزقن .
- قصرأقنوناي: يقع ببني يزقن .
- قصر الأحنش: يقع قرب بنورة .
- قصر تميزرت: يقع بين بنورة ومليكة .
- قصر المنيعة القديم: يقع بالمنيعة .
- قصر لمبرتخ: يق بالقرارة.

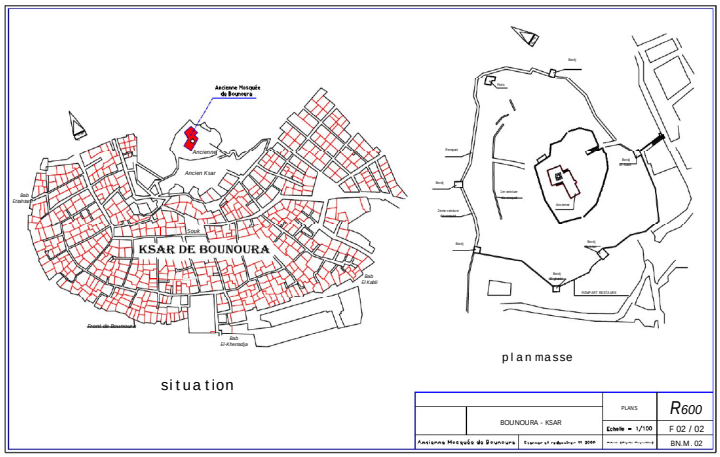

الشكل1:مخطط للموقع الأثري قصر بنورة القديم عن د.ح.ت.و.م.

صورة3:الموقع الأثري أغرم ن تلزضيت من صورة جوية في سنوات الستينيات.

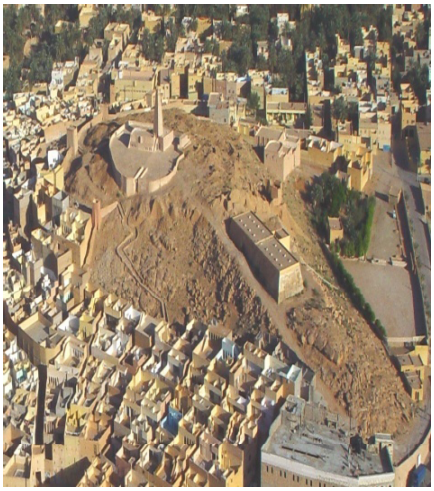

صورة5:الموقع الأثري قصر بنورة القديم-غرداية-

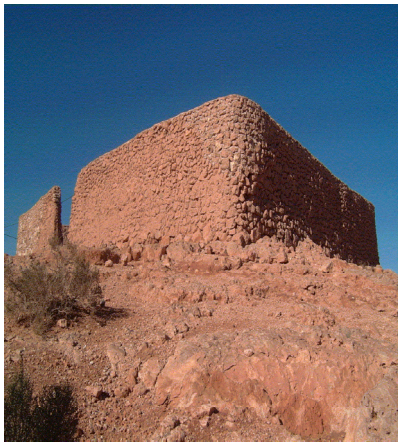

صورة4:حصن قصر تلزضيت-العطف

صورة6:حصن قصر أولوال-العطف

وغيرها من القصور التي لم يرد ذكرها في الكتب وبقيت مكتوبة في الروايات الشفوية والتي بدورها اندثرت وبقي منها سوى الأطلال في الروايات، ومن هذه القصور كانت الانطلاقة الفعلية لحركة عمرانية متواصلة، وبالتحديد بداية من القرن (5هـ/11م)، تأسست مدن على شكل قصور عبر كامل وادي مزاب وخلال عدة قرون.

3- حفظ ووقاية المواقع الأثرية:

تعرف المواقع الأثرية بأنها مساحات مبنية دونما وظيفة نشطة وتشهد بأعمال الإنسان أو بتفاعله مع الطبيعة، بما في ذلك الأراضي المتصلة بها، ولها قيمة من الوجهة التاريخية والأثرية أو الدينية أو الفنية أو العلمية، لكن هذه المواقع حساسة إذا بقيت دون عناية وحفظ ووقاية وذلك بتوفير الوسائل وهي:

أ- تسجيل الأثار:

إنّ تسجيل الآثار هي في الأساس عملية توثيقية، ويمكننا وصف أية حفرية أثرية لا تعتمد طرق التسجيل والتوثيق الميداني بأنها مضيعة للوقت ولا ينحصر فقط في تسجيل القطع الأثرية بل يتعدّاه إلى المواقع الأثرية وكذلك الطبقات والبقايا الأثرية[37].

تعتبر السلطات المحلية والمجتمع المدني ممثلا في الجمعيات، مؤسسات الأشغال الخاصة،

مكاتب دراسات المسؤولين الأوائل على تسجيل التراث الثقافي ضمن القائمة الوطنية والعالمية، وذلك لأن تسجيل الآثار يجعلها في منأى عن التخريب والضياع ويمنحه تغطية قانونية، وهذا ما هو عليه القطاع المحمي في سهل وادي مزاب.

أ- 1- التسجيل ضمن التراث الوطني:

فيما يخص تسجيل التراث الثقافي على المستوى الوطني فقد جاء في القانون 04-98 أهم إجراءات التسجيل اللازم إتباعها، يمكن أن تسجل في قائمة الجرد الإضافي وإن لم تستوجب تصنيفا فوريا، تكتسي أهمية من وجهة التاريخ أو الآثار وتستدعي المحافظة عليها.

تم تشطب من قائمة الممتلكات الثقافية وتصنف نهائيا خلال مهلة 10 سنوات[38].

يكون التسجيل في قائمة الجرد الإضافي بقرار من الوزير المكلف بالثقافة عقب استشارة اللجنة الوطنية للممتلكات الثقافية ذات الأهمية الوطنية، بناء على مبادرة منه أو مبادرة أي شخص يرى مصلحة في ذلك.

كما يمكن أن يتم التسجيل بقرار من الوالي عقب استشارة لجنة من الممتلكات الثقافية التابعة للولاية المعنية، بالنسبة إلى الممتلكات الثقافية التي لها قيمة على المستوى المحلي، بناء على مبادرة من الوزير المكلف بالثقافة، أو الجماعات المحلية أو شخص يرى مصلحة في ذلك[39].

أ- 2- التسجيل ضمن التراث العالمي:

عملية ترشيح دولة ما لموقعها تتطلب العديد من الخطوات، أهمها التوقيع على الاتفاقية[40]، لتصبح الدولة عضوا فيها بعد ذلك تقوم الدولة بإعداد قائمة بمواقعها ذات القيمة الاستثنائية، ثم تختار من القائمة ما تريد ترشيحه ليدرج في قائمة التراث العالمي، موضحة مبررات الترشيح وان الموقع محافظا على أصالته ويحظى بإدارة وحماية بشكل مناسب، مع تقديم تحليل يشمل مقارنة للموقع مع مواقع أخرى من نفس النوع، ولكي تتم الموافقة على إدراج المواقع في قائمة التراث العالمي لابد أن تنطبق عليها معايير محددة في المادتين (2،1) من الاتفاقية، وهي معايير تضمن أن يكون الموقع ذات قيمة عالمية استثنائية ومحافظا شرطي الأصالة والسلامة، وإذا أصبح الموقع المدرج مهددا بأخطار جسيمة قد تسبب في إزالته، فإن لجنة التراث العالمي تقوم بعد استشارة الدولة المعنية بإدراج الموقع في قائمة التراث العالمي المهدد للخطر، ويعني إدراج الموقع في قائمة التراث العالمي المعرض للخطر أنه بحاجة إلى عون وأعمال كبيرة لحمايته،

ولا يعني عدم إدراج ملك من التراث الثقافي أو الطبيعي في أي من القائمتين المذكورتين، ويزداد عدد المواقع العالمية المدرجة في قائمة التراث العالمي كل عام، فقد بلغ عدد الدول التي لديها مواقع مسجلة في قائمة التراث العالمي حتى عام 2005م 137 دولة، وبلغ عدد المواقع المدرجة في القائمة 628 موقعا ثقافيا و160 موقعا طبيعيا و24موقعا مختلط .

يعتبر كل موقع من مواقع التراث العالمي ملكا للدولة التي يقع فيها وعليها مسؤولية حمايته وإدارته إلا أن يحظى باهتمام المجتمع الدولي[41].

ب- الحماية القانونية للتراث:

تقسم الحماية إلى نوعين هامين يساهمان بشكل فعال في ضمان سلامة المواقع الأثرية وإيصالها إلى الأجيال القادمة:

ب- 1- الحماية القانونية الدولية:

يرسخ اهتمام الإنسان بتراثه نظم وقوانين مؤطّرة في تشريعات وطنية ودولية، وقد عمل المجتمع الدولي تحت غطاء منظمة اليونسكو على ضمان حماية قانونية فعالة، من خلال المؤتمرات والندوات والاستفادة من الخبرات، فعملت اليونسكو بمساهمة الدول الأطراف على سن التشريعات الدولية اللازمة لضمان حماية فعالة للتراث الثقافي العالمي، والجزائر كطرف في الاتفاقيات الدولية تسهم في مجال حماية التراث الثقافي[42]، ومن ضمن ما جاء في التشريعات :

المادة الثالثة من ميثاق حماية وإدارة التراث الأثري 1990م «لوزان»، نصت على ما يلي:

«حماية التراث الأثري، ينبغي اعتباره واجبا أخلاقيا على جميع البشر، بل هي أيضا مسؤولية جماعية عامة، للالتزام لابد من الاعتراف به من خلال التشريعات ذات الصلة وتوفير ما يكفي من الأموال لدعم البرامج اللازمة للإدارة الفعالة للتراث .

التراث الأثري شائع في جميع المجتمعات البشرية، ولذا فإنه ينبغي أن يكون من واجب كل بلد لضمان أن تتوفر الأموال الكافية لحمايته.

التشريعات ينبغي أن تحظر على التدمير والتخريب أو من خلال التغيرات والتعديلات من أي موقع أثري أو النصب أو إلى محيطهم بدون الحصول على موافقة من السلطة الأثرية ذات الصلة .

وينبغي أن يشترط التشريع، لضمان الحكم الصحيح لحفظ وإدارة والوقاية على التراث الأثري، مواد قانونية كافية وينبغي أن توضع في التشريع الجزاءات المنصوص عليها فيما تعلق بانتهاكات التراث الأثري.

إذا التشريعات تحمي فقط تلك العناصر من التراث الأثري، التي هي مسجلة في الجرد الانتقائي القانوني، كما ينبغي توفير الحماية المؤقتة للمواقع الأثرية غير المحمية أو المكتشفة حديثا حتى يتم تقييمها»[43].

ب2- الحماية القانونية الوطنية:

على المستوى الوطني عملت السلطات على توفير الحماية القانونية اللازمة، وذلك من خلال وضع تشريعات تخص المعالم والمواقع الأثرية وكذا التشريعات للأعمال التي لها علاقة بالمعالم والمواقع الأثرية وبمحيطها ويتضح لنا ذاك جليا فيما يلي :

في القانون 90/29 المؤرخ في 17/12/1990م، الخاص بالتهيئة العمرانية والمرسوم التنفيذي رقم 91/175 المؤرخ في 14 ذي القعدة عام 1411هـ الموافق 28ماي 1991م الذي يحدد القواعد العامة للتهيئة والتعمير والبناء اللذين يضعان التوجيهات العامة للحفاظ على المواقع الأثرية .

المخطط العام للتهيئة والتعمير يساهم بشكل مباشر في حماية وصيانة المواقع الأثرية وذلك وفقا لتشريعات التهيئة العمرانية.

وتؤكد المادة 35 من قانون 98/04 على مراعاة الأنشطة للمشاريع المراد انجازها في المحميات المصنفة وضرورة إدراجها مسبقا في إطار مشاريع التهيئة والتعمير أو في مخططات شغل الأراضي.

ونلاحظ أن هناك توافق بين القانون 90/29 للهيئة العمرانية وقانون حماية التراث الثقافي 98/04 في مادته 36 فيما يخص حماية التراث الثقافي والمحميات الأثرية، وتشدد المادة 36 على ضرورة اطلاع السلطات المكلفة بإعداد مخططات التوجيه والتعمير ومخططات شغل الأراضي في مستوى كل بلدية على المحميات المسجلة في قائمة الجرد الإضافي أو المصنفة.

ويجدر بالذكر أنّ رخصة البناء في مناطق المحميات الأثرية لا تمنح إلا بموافقة المصالح المختصة بحماية التراث الثقافي وهي مديرية الثقافة، ويوضح جليا في المادة 69 من قانون التهيئة العمرانية.

ج- الحماية التقنية للمواقع الأثرية :

تعتبر الحماية التقنية للمواقع الأثرية خطوة هامة لحفظ ووقاية الموقع الأثري والحفاظ عليه، ويكون ذلك إما بالوقاية أو المعالجة وذلك على حسب الظروف.

وقد اهتم المتخصصون في مجال حماية المواقع الأثرية في العالم منذ بداية القرن العشرين، تحت إشراف اليونسكو بالطرق العلمية والعملية اللازم إتباعها للحفاظ على المواقع وإنقاذها من الضياع، ورسخ ذلك في اتفاقيات دولية[44].

والجزائر كعضو في منظمة الأمم المتحدة، قد أقرت بجل الاتفاقيات الخاصة بحماية التراث الثقافي، بالإضافة إلى دلك فقد اجتهد المختصون والمشرعون على حد سواء، إلى وضع الأساليب اللازمة للتدخل على الممتلكات الثقافية في الجزائر.

وتكون الحماية التقنية باتخاذ التدابير الوقائية أو التدخل العلاجي على معالم الموقع:

ج1- التدابير الوقائية:

- مواجهة الأضرار الناجمة عن الإنسان:

حيث أنّ تخريب المواقع الأثرية الناتج عن الإنسان، يكون في مجمله عن طريق أعمال الهدم والتخريب، أو الإهمال، أو عن طريق المشاريع التنموية، والتراخي في تطبيق قوانين حماية التراث ..الخ.

بالنسبة لتجنيب المواقع الأثرية أضرار التخريب المتعمد الذي يحدث جراء اعتداء الأفراد على الموقع الأثري وذلك لسبب الجهل بأهمية ممتلكاتهم، فإن ذلك يستدعي توعية المواطنين من جهة، وإحكام المراقبة من جهة ثانية، وذلك بتفقد الموقع الأثري بشكل منظم، وتطبيق عقوبات صارمة بحق المخالفين[45].

فيما يخص المشاريع العمرانية والأراضي الفلاحية التي يقصد بها التنمية المستدامة، فيجب أن تدرس بعناية فائقة لئلا تؤدي مثل هذه المشاريع إلى إزالة ما تحتوي عليه هذه المواقع الأثرية من مباني وبقايا أثرية، إذ لابد أن يشترك في هذه الدراسات، كما توصي بذلك القوانين الحديثة والتوصيات الدولية، اختصاصيون في التاريخ والآثار والاجتماع مع المهندسين المعماريين والعمرانيين.

- مواجهة الأضرار الناجمة عن الطبيعة:

يكون بالسيطرة على البيئة المحيطة بالتراث الثقافي وذلك بمنع عوامل التلف من التأثير بواسطة تحييدها أو وصولها إلى المبنى نفسه[46].

تعتبر الرطوبة من أهم المشاكل التي تؤثر على الموقع الأثري، إذ يعتبر عزل الرطوبة قدر الإمكان من الموقع الأثري عاملا حيويا في الحفاظ عليه، وتختلف طرق العزل باختلاف مصدر الرطوبة .

الأمطار والسيول تهدد المواقع الأثرية وتؤثر عليها، لذلك من الواجب العمل على تصريف المياه الناجمة عنها كي تتسرب إلى الجدران والأساسات والبقايا الأثرية.

إنّ الخطر الذي يتعرض له الموقع من مشكلة النباتات الطفيلية التي أتعبت الخبراء، لا سيما في الأقاليم الكثيرة الرطوبة، حيث قطع هذه النباتات لا يحل المشكل، حيث تعود إلى النمو من جديد، لتصبح أكثر قوة، ولم يعط قاذفات اللهب لحرق النباتات ولا المواد الكيماوية المبيدة للجذور نتيجة تذكر ..، ومن الطبيعي أن تكون الوقاية خير من العلاج، أي الحيلولة منذ البدء دون نشوء هذه النباتات، وذلك بسد الثغرات والشقوق وبتكحيل مابين حجارة البناء تكحيلا متقنا.

ج- 2- التدابير العلاجية:

يقتضي الأمر اللجوء إلى التدابير العلاجية، عندما تكون المعالم الظاهرة في الموقع في حالة تدهور، ويقتضي التدخل المباشر على مستوى المعلم، وتختلف هذه التدخلات حسب نسبة التشوهات الطارئة على المعلم الأثري[47].

سبب الإصلاح والتجديد يكمن في الحاجة الماسة إليه، ويتضمن إصلاح ما تلف من مواد الحماية كتساقط الملاط وتآكل المادة اللاحمة بين الحجارة أو تكسر أجزاء من مادة البناء أو الأجزاء الإنشائية الحاملة كالأسقف والجدران والأعمدة مما قد يؤثر على عنصر المتانة في البناء وهنا الحد ما أمكن من عملية الاستبدال والاكتفاء بما هو ضروري جدا، لأن إدخال أي تعديل أو تجديد على المعلم أو عناصره سيغير معالمه ويقلل من قيمته، وهنا نصل لواحد من أكثر المفاهيم صعوبة في الترميم الحديث وهو الأصالة[48].

- الصيانة:

تتعرض الأبنية على اختلافها التاريخية والحديثة على فساد جزء منها أو عنصر ما أو إلى تشويه أو عبث، هذه الحالة تحتم تدخل مستمر على المباني لضمان بقاءها واستمراريتها وهذه التدخلات هي أعمال صيانة .

من الضروري أن تجرى صيانة المعالم الأثرية على أساس ثابت[49]، وحسب الضرر اللاحق بالمبنى الأثري، ويمكن تقسيم هذه الأعمال إلى :

أ- التكليس التكحيل:

إنّ تساقط الكلسة من جدران البناء يعرّض ما تحتها من مواد البناء الضعيفة للتآكل التدريجي، والتلف بتأثير الأعراض الجوية المختلفة ولذا فإن تجديد الكلسة يشكل كساء واقيا، فضلا عن أنه يعيد للبناء شكله الأصلي، ولنفس الأمر يجب الحرص على سد الثغرات وتجديد ما تلف من المونة المستخدمة بين حجارة البناء أو في حشوة الجدران[50].

ب- إصلاح الحجارة التالفة:

تشاهد في المعالم الأثرية عناصر حجرية تالفة أو مكسرة كالجدران والأبراج، وقد يؤثر بقاءها بهذه الحالة على متانة البناء، ونوصي هنا بالحد ما أمكن من تجديد هذه العناصر، والاكتفاء بتجديد ما هو تالف كلي منها، أما في الأحوال العادية فيمكن اللجوء إلى عمليات اللصق والتجبير التي يمكن أن تتم بسهولة بالاعتماد على المواد الحديثة وباستخدام القضبان والأطواق المعدنية والمخفية أو الظاهرة.

ج- أعمال التنظيف:

ويراد بها سائر الأعمال التي تزيل ما علق بالمعلم من مواد وشوائب، كقشر الكلسة المحدثة التي كانت في الأصل ظاهرة للعيان ... ومن أعمال التجديد أيضا إزالة ما علق بالمعلم الأثرية من أوساخ، وحشائش الخضراء الناتجة عن الرطوبة الدائمة[51].

- الترميم:

إنّ عملية الترميم عملية متخصصة بدرجة عالية، وهدفها حماية وكشف القيمة الجمالية للمعلم الأثري وتستند على إحترام المادة الأصلية والوثائق الحقيقة، ويجب عليها أن تتوقف في اللحظة التي يبدأ فيها الحدس، وفي هذه الحالة يجب أن يكون أي عمل إضافي، ولابد من القيام

به متميزا عن التكوين المعماري ويجب أن يحمل طابعا معاصرا، وعلى كل حال فإن الترميم يجب أن تسبقه دراسة أثرية[52].

يتفق جميع المختصون في مجال الترميم، إنّ عملية الترميم حساسة يكون التدخل فيها على المعلم الأثري بصفة مباشرة، وتتم عملية الترميم على المعالم الأثرية التي مازالت قيد الاستعمال، التي هجرت منذ وقت.

وتختلف كيفية التدخل على المعالم الأثرية من معلم لآخر وقد حدد الأخصائيون أشكال التدخل حسب الحالات وفي اتفاقيات عالمية تضم نصوص توجيهية مثل:

أ-الإحياء:

هو إعادة إحياء فكرة ما ضمن الأثر وتقوم على احترام مادة الأثر الأصلية والأدلة الأثرية والمخطط الأساسي في الترميمات والإضافات اللاحقة على المعلم، يجب أن تحترم وأن تحدد تاريخه، وعندما تتراكم التدخلات المتلاحقة عبر العصور يسمح بإزالة القسم العلوي الذي يمكن أن يكون أقل أهمية بإظهار جزء أقدم يحمل أهمية كبرى ولكن ضمن حدود[53].

إن المساهمات السليمة لكل الفترات في بناء معلم أثري معين يجب أن تحترم طالما أنّ وحدة الأسلوب ليست هدف الترميم، وعندما يشمل بناء ما عملا مهيبا على فترات مختلفة، فإن الكشف عن الحالة الأساسية يمكن تبريره في الحالات الاستثنائية عندما يكون الشيء المراد ترميمه ذا أهمية ضئيلة، وأنّ حالة حفظهما جيدة بدرجة تكفي لتبرير هذه العملية، وأنّ تقييم أهمية العناصر التي يحتويها الأثر والقرار بشأن ما يمكن هدمه ولا تترك إلى الشخص المكلف بالترميم فقط[54].

ج3- ضمان استمرارية حفظ ووقاية المواقع الأثرية:

يختلف العمل في حفظ ووقاية المواقع الأثرية من دولة لأخرى وفقا لقدرتها المالية والفنية والثقافية ونظرتها إلى التراث بكافة جوانبه، فهناك من يرى ضرورة حماية ذلك التراث تعبيرا عن الاحترام للماضي والحرص على مواصلة الحوار معه لأنّ في ذلك ربطا للماضي بالحاضر وتطلعا إلى مستقبل زاهر مزدهر ومتطور، وهناك من ينظر إلى التراث نظرة سلبية ويرى فيه دلالة على تخلف الماضي وضرورة التخلص منه[55].

وقد سبب التفكير السلبي اتجاه المواقع الأثرية، تدمير وتخريب تثير منها، في كثير من بلدان العالم، فلم تعد الحماية والحفاظ على الموارد الحضارية والثقافية أمرا كافيا، بل اتجه التفكير إلى تحقيق استدامة هذه الموارد على المدى البعيد والاستفادة منها من الناحية الاقتصادية كذلك، وذلك لأنها تشكل ثروة قومية لجميع الأجيال الحالية واللاحقة، وهي ملك لهم جميعا تقع عليهم مسؤولية حمايتها والحفاظ عليها[56]، ولضمان ذلك يجب توفر العوامل الآتية :

- اهتمام الإنسان بالتراث الأثري:

تبدأ حماية التراث الأثري باهتمام الإنسان وتعلقه بإرثه وإرث أجداده، فإن غاب هذا الحس فقد التراث قيمته في أعين الناس وبالتالي الرغبة في حمايته وإيصال للأجيال القادمة، لهذا مهما تعددت الوسائل والأساليب، يبقى الإنسان هو العامل الأول والأساسي في صون وحماية الإرث الثقافي، تتوقف عليه وعلى مدى وعيه بحالة، إشكالية، ونظم الحفاظ على التراث .

- الإدارة والمراقبة:

لا تكون التشريعات دائما كافية لحماية المواقع الأثرية، فقد أثبتت لنا التجارب أن العديد من المعالم الأثرية هدمها أصحابها أو الأشخاص التي توجد تلك الآثار على أراضيهم لإقامة أبنية حديثة أو استعمال مواد تلك المعالم من حجارة، وغيرها لبناء منازلهم أو أحد مشروعاتهم أو قاموا بتوسعات أو إضافات تسيء إلى هوية الموقع ومعالمه، هذا ما يوجب على المؤسسات المختصة إلى التكفل بإدارة مراقبة تلك المواقع أي لتفادي أي عمل قد يضر بالمعالم الأثرية أو استحداث رجال أمن خاصّين بحراسة المواقع يكونون تابعين للدولة، أو مؤسسات خاصة معتمدة من طرف الدولة.

- التوعية:

من أجل تشجيع مساهمة السكان، يجب إعداد برنامج معلومات عامة من أجل جميع السكان بدءا من الأطفال في سن المدرسة ويجب أيضا تشجيع نشاط الهيئة من أجل حماية التراث، كما بجب تبني إجراءات مالية لصالح الحماية[57].

فحماية التراث واستمراريته لا تكون إلا بإسهام الكل في مفهوم الاستدامة، وتقع المهمة الأولى لضمان إسهام شرائح المجتمع المختلفة في الحفاظ على المعالم الأثرية على المختصين في مجال الحماية، المسؤولين، المرممين، والجمعيات التي تنشط للحفاظ على المواقع الأثرية، وذلك

بإشراك الفئات المختلفة في عمليات الحفظ والوقاية، بالوسائل المختلفة(المسابقات، البحوث، الأعمال الفنية...الخ)، وإحداث المحفزات لضمان مشاركة واسعة في مجال التوعية بالثقافة التراثية وبالتالي اهتمام أكثر، إذ بالاستثمار في مجال الوعي بالتراث، تكون فائدة المجتمع العامة بالحفاظ على الإرث الثقافي الذي هو كنز لا يمكن تعويضه، جعل التراث في منأى عن الضرر الملحق بالتراث الأثري الناجم عن الإنسان، استثمار هذا الأخير كثورة اقتصادية[58].

ج- 4- ترقية التراث الأثري وإعادة الاعتبار له:

من خلال:

- تعزيز قيمة التراث الأثري وهذا بتوعية الناس على محافظة وحماية ممتلكاتهم الأثرية بتخصيصه بوظيفة ملائمة لطبيعته ومناسبة للمجتمع.

- ربط الآثار بشبكة الأنترنت والتعريف بها، وتقديم الآثار والمواقع الأثرية عبر القنوات التلفزيونية الدولية كخدمة ذات فائدة عامة.

- فتح المجال أمام المواطن لزيارة المعالم المحمية بتدعيم نشاطات الجمعيات الخيرية وتلاميذ المدارس والثانويات.

- الاستفادة من التراث اقتصاديا من خلال التهيئة العقلانية للمواقع والمعالم الأثرية ودمجها في المسار السياحي.

- إصدار طوابع بريدية تحمل صور الآثار المادية للمنطقة من أجل إيصالها إلى أبعد نقطة في العالم من أجل تحسيس المواطن بأهمية التراث.

- إنجاز دكاكين بالمواقع الأثرية تباع فيها نماذج مستنسخة من الأثريات والبطاقات البريدية والصور والمطبوعات والمنشورات كما يمكن اتخاذ هذه المحلات نقاط مراقبة وحراسة ومكان تواجد المرشدين السياحيين[59].

ج- 5-تنظيم حفريات أثرية:

يكتسب التراث الأثري التاريخي أهمية علمية وتاريخية بالغة باعتباره حافظا للذاكرة الجماعية وللإرث الإنساني على الرغم من مختلف الإجراءات والجهود المتخذة من طرف

الهيئات المعنية العمومية للحفاظ على هذا التراث إلا أن شبح التخريب الطبيعي والبشري لا يزال يهدده لهذا كان من الضروري إيجاد حلول لحفظها ووقايتها لمسايرة سرعة المشاريع التنموية،ومن بين أهم هذه الحلول تنظيم حفريات، خاصة إذا قمنا بإثبات وجود موقع أثري بالعملية المسماة المسح.

- تنقيب الموقع:

ينقب الأثريون بحذر بحثا عن المواد المدفونة في عملية تدعي التنقيب الأثري، وتعتمد طريقة التنقيب الأثري جزئيا على نوع الموقع، إن في المواقع الكبيرة يمكن حصر التنقيب في أجزاء معينة من الموقع[60]، كما أن هناك اعتبارات أخرى تقرر في الأغلب منهج التنقيب الأثري مثل المناخ ونوعية التربة، وتتباين الأدوات التي تستخدم في الحفريات بين الجرارات والآليات الثقيلة والمحافير الصغيرة وفي بعض الحالات يقوم الأثري حتىّ بغربلة التربة بغربال سلك للحصول على المعثورات الصغيرة وفي حالات أخرى يقوم بتحليلها[61].

إن طرق التنقيبات الأثرية هي الوسيلة التي يستخرج بها الأثريون مخلفات الإنسان القديم وبواسطتها يفسرون ويحللون نتائج حفرياتهم ويؤرخون زمنها ويقدرون أدوارها الحضارية، لكن تلك التقنيات الأثرية إلى وقت قريب كانت تجرى على يد هواة لم يكن لديهم علم بطرق الحفر العلمية لكن مع مطلع القرن العشرين بدأت التنقيبات الأثرية تتوفر لديها طرق خاصة بكل ما يتعلق بالتنقيبات فأصبح علم الآثار يهتدي بها ويعمل بموجبها، ولما كان الغرض من الحفريات الأثرية هو إنقاذ المعلومات التي يمكن جمعها من الموقع من خلال المخلفات واللقى الأثرية والمواقع الأثرية التي تشير وتعبر عن حضارة الإنسان الذي عاش في هذا الموقع قديما، لذلك تتحدد أنواع الحفريات حسب الظروف وتبعا لطبيعة الموقع الذي ستجرى فيه الحفريات وعليه هناك أنواع عدة من هذه الحفريات حسب مدى المعلومات التي يراد الحصول عليها من الموقع، لاشك أنّ إجراء حفريات علمية منظمة ستزيح النقاب عن كثير من الجوانب الغامضة.

التراث الثقافي مبعث فخر الأمم على اختلاف أعراقها، فهو يمثل الهوية الوطنية لكل مجتمع، وصلة وتواصل بين الماضي والحاضر، ومهما بلغت هذه الأمم من تطور، ورقي فإنها تبقى متصّلة بهذا الإرث، وقد عملت الأمم المتحضّرة وعيا منها بقيمة هذا الإرث، على إنشاء مؤسسات علمية وبحثية، كما قامت على شؤون هذا الإرث الثقافي إدارات حكومية تحافظ عليه.

مزاب، المنطقة العريقة بتراثها وتاريخها الحافل بالإنجازات الكبرى، بما تحويه من إرث حضاري غني في ميدان الآثار والعمران، ممّا خلّفه الإنسان المحلّي لتلك المنطقة منذ عصور ما قبل التّاريخ إلى الفترة الإسلامية.

لكن الأمر المؤسف فرغم امتلاكنا لهذا الزّخم المتبقّي والمتمثّل في المواقع الأثرية، وشعور السلطات المعنية بأهميّة الآثار، والمحافظة عليها بوسيلة الحفظ الوقائي، وعملها على إنشاء المؤسسات وسنّ التشريعات التي تضمن الحفاظ على هذا الإرث، وتمنحه الحماية اللاّزمة، ورغم تصنيف المنطقة كقطاع محمي عالميا ووطنيا فإنه ما زال عرضة للضّياع والهدم والتخريب وبالتالي الاندثار والزوال إلى غير رجعة.

وما إدراكنا من خلال إبحارنا في عالم التّراث العالمي، أن التّراث الثقافي أصبح ركيزة مهمّة للثقافة، ومصدرا معرفيا لتاريخ، وحضارات الشعوب، ولا توجد منظمة محلية أو إقليمية أو قارية أو دولية تعنى بالتراث الثقافي إلا وتأتي الآثار في مقدمة أولويتها، حيث سنّت الدول تشريعات ووقوانين، ولوائح ونظمًا ووضعت الاستراتيجيات بهدف المحافظة على هذا الإرث الحضاري وتنميته من أجل العلم، والمعرفة والسياحة، ليكون مرجعا تاريخيا وإرثا ثقافيا وموردا اقتصاديا متناميا.

وبعد البحث في طرق الحفظ والوقاية المختلفة والمتبعة في مجال المحافظة على المواقع الأثرية بمزاب ومعرفة الإنجازات الدولية في هذا المجال وتطوره، اتضح أنه لم يعد حفظ ووقاية المواقع الأثرية أمرا كافيا لحمايتها من الإهمال والهدم والتخريب، بل يلزم التفكير في طريقة يتسنى لنا الحفاظ عليها بصفة مستدامة.

ولتحقيق الحفظ والوقاية المستديمة للتّراث الأثري وبالأخص للمواقع الأثرية، يجب إتباع سياسات واستراتيجيات علمية مدروسة، وذلك:

بالتركيز على الإنسان كونه العامل الأساسي في التّأثير على محيط الآثار، سواء أكان ما يفعله لصالح الموقع بعدم التخريب، أم بالمساهمة في حمايته، بتعريف المواطن على أهمية الآثار الثقافية والاقتصادية له ولغيره، وانتهاز الفرص لإثارة اهتمامه بالتّراث الحضاري، وإشعاره بالمسؤولية وإشراكه في تحمل مسؤولية حماية التّراث الأثري الحضاري والثقافي، ذلك بإدخاله وإشراكه في اللّجان والمؤسّسات الحكومية الراعية لذلك الأمر، ومن الضّروري إحداث مؤسسات

تعمل على توعية المواطنين والساكنين حولها بأبعاد المحافظة على التّراث وفائدتها على الشعب وعلى الهّوية، وبتخصيص الأموال اللاّزمة لإستراتيجية حفظها ووقايتها، ولفت انتباه المختصّين إليها بجعلها مركز بحثهم علما أن معظم المواقع بمزاب مشاريع لحفريات مستقبلا إن شاء الله.

هوامش البحث

1 . Gouvion M – E ; Monographie Du M ' Zab. Imprimerie Vigie Marocaine Casablanca, paris, 1926, p:177.

2 . دليل ديوان حماية واد مزاب وترقيته، مسيرة رائدة في إعادة الاعتبار لتراث ولاية غرداية، غرداية، الجزائر، ص:**03** .

3 . Coyne A ; Le M ' Zab , Ed. Adolphe Jourdan, Alger, 1879, p :3.

4 . يوسف الحاج سعيد، تاريخ بني مزاب دراسة اقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، غرداية، **2003**م، ص:**01.**

5 . Aumassip G ; Le bas Sahara Dans La Préhistoire , Ed. C . N .R .S , Paris ,1986 , pp :15–16.

6 . يحيى بوراس، العمارة الدفاعية في منطقة وادي مزاب، (نموذج بني يزقن)، رسالة ماجيستر في الأثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر،**2002** م ، ص: **19.**

7 . Klenchnnechet C ; Monographie De L'arrondissement de Ghardaïa, Ministère Du Sahara ,Département des Oasis , Paris 1962 , p:02 .

8 . Rolland G ; Sur Le Terrain Cittace du Sahara SeptenIrional, p:551.

9 . Claude Pavard ; Lumières Du M' ZAB ,Bilroisse , p:06.

10 . الديوان الوطني للأرصاد الجوية.

11 . نفسه.

12 . حمو عيسى محمد النوري، دور الميزابين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، دار البعث، قسنطينة، ط. **1**، **2000**م، ص:**147.**

13 . الديوان الوطني للأرصاد الجوية. المرجع السابق.

14 . حمو عيسى محمد النوري، المرجع السابق، ص:**20.**

15 . Morel J ; Note sur le De Préhistoire Mozabite, LIBYCA ,tome xxvi, p :179.

16 . بلحاج معروف، العمارة الإسلامية: مساجد مزاب ومصلياته الجنائزية، دار قرطبة، **2007**م، ص:**41.**

17 . دليل ديوان حماية وادي مزاب وترقيته، مشروع القطاع المحمي لسهل وادي مزاب، غرداية، الجزائر، ص:**03.**

18 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:**41.**

19 . يوسف الحاج سعيد، المرجع السابق، ص:**03.**

20 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:**49.**

21 . عيسى محمد النوري، المرجع السابق، ص:**20.**

22 . Morel J; Op. Cit., p:179.

23 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:**41.**

24 . ديوان حماية وادي مزاب وترقيته، مشروع القطاع المحمي لسهل وادي مزاب، غرداية، ص:03 .

25 . Huguet J ; Le Pays du M'Zab , in bull de la Sociétés Géographique d'Algérie imprimerie Topographique et logographique Selon, Alger, 1889, p : 153.

26 . Huguet J ; Les Villes Mortes du M'zab ,Bulletins et mémoires de la société d'Anthropolgie de Paris T. IV, 1903, p : 583 .

27 . إبراهيم متياز، تاريخ مزاب، مخ، بحوزة عائلة المؤلف بقصر بني يزقن، ص:16.

28 . بلحاج معروف، المرجع السابق، ص:45.

29 . إبراهيم متياز، المصدر السابق، ص:18 .

30 . نفسه، ص:17-18 .

31 . نفسه، ص:14-15 .

32 . Huguet J, Les Villes...., Op. Cit, pp : 586-587.

33 . Ibid.

34 . ديوان حماية وادي مزاب وترقيته، مشروع القطاع....، مرجع سابق، ص:04.

35 . ديوان حماية وادي مزاب وترقيته، النقوش الصخرية والقصور المندثرة، ص:02.

36 . Huguet J, Les Villes...., Op. Cit, p : 588.

37 . زيدان عبد الكافي كفافي، المدخل إلى علم الآثار، الأردن، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، 2004م، ص:117.

38 . القانون 98-04، المرجع السابق، المادة العاشرة .

39 . نفسه، المادة الحادية عاشر.

40 . الاتفاقية : تعرف باسم : اتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي، أقرها المؤتمر العام لليونسكو في دورته السابعة عشرة في باريس بتاريخ 16 نوفمبر 1972م .

41 . سعيد بن دبيس العتيبي، التراث العالمي وأهمية تسجيل الدول لمواقعها الثقافية والطبيعية في قائمة التراث العالمي ، جريدة الرياض ،العدد 13822 ، الجمعة 30ربيع الأول 1427هـ الموافق 28 أفريل 2006م.

42 . عبد القادر طاهر، التراث المبني في تلمسان وطرق صيانته، رسالة الماجستير في الفنون الشعبية، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2008م، ص:99.

43 . اليونسكو، الإيكوموس، اللجنة الدولية لإدارة التراث الأثري، اتفاقية من أجل إدارة وحماية التراث الأثري ""لوزان""، 1990م، المادة الثالثة.

44 . عبد القادر طاهر، المرجع السابق، ص:102.

45 . عبد القادر ريحاوي، المباني التاريخية حمايتها وطرق صيانتها، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، سوريا، 1972م، ص:24.

46 . نفسه، ص:24.

47 . عبد القادر طاهر، المرجع السابق، ص104.

48 . هزار عمران، جورج دبورة، المباني الأثرية ترميمها، صيانتها، والحفاظ عليها، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1998م، 1998م، ص:129.

49 . عبد القادر ريحاوي، المرجع السابق، ص:26.

50 . نفسه، ص:26.

51 . نفسه، ص:27.
52 . اليونسكو، الوثيقة الدولية لصون وترميم المواقع الأثرية، ميثاق البندقية، البندقية، 1964م، المادة التاسعة.
53 . هزار عمران، جورج دبورة، المرجع السابق، ص:129.
54 . اليونسكو، الوثيقة الدولية لصون وترميم المواقع الأثرية، ميثاق البندقية، البندقية، 1964م، المادة الحادية عشر.
55 . شوقي شعث، المعالم التاريخية في الوطن العربي وسائل حمايتها وصيانتها وترميمها، مجلة التراث العربي، إتحاد كتاب العرب، 26 كانون الأول2006م/ ذو الحجة1427هـ العدد104، ص:299.
56 . طاهر عبد القادر، المرجع السابق، ص:123.
57 . اليونسكو، وثيقة حماية المدن التاريخية والمناطق العمرانية، واشنطن، 1987م، البند 15 .
58 . طاهر عبد القادر، المرجع السابق، ص:124.
59 . علي خلاصي، المحافظة على التراث الثقافي وتنمية المتطلبات السياحية بالجزائر، الملتقى السابع للبحث الأثري والدراسات التاريخية، خنشلة، 1999م ، ص:80.
60 . غالان رودريغو مارتن، مناهج البحث الأثري ومشكلاته، تر. خالد غنيم، دمشق، سوريا، ط1، 1998م، ص:86.
61 . حيدر كامل، منهج البحث الأثري والتاريخي، دار الفكر اللبناني، لبنان، 1995، ص:55.

7 . Ibid, p: 9.

8 . Jean-Paul MINVIELLE; TOURISME SAHARIEN ET DEVELOPPEMENT DURABLE ENJEUX ET APPROCHES COMPARATIVES, COLLOQUE INTERNATIONAL TUNISIE, 09/11/2007. p: 20.

9 . Le pèlerin, Op. Cit. p: 4.

10 . Définition adoptée par le Comite Français du Groupe de travail International sur le Tourisme Durable, le 4 juillet 2006

11 . Jean-Paul MINVIELLE; Op. Cit. p: 13

12 . Azouz BEN TEMESSEK; TOURISME SAHARIEN, TOURISME ECOLOGIQUE, TOURISME CULTUREL, L'INEVITABLE INTERDEPE-NDANCE: ETUDE DU CAS TUNISIEN, COLLOQUE INTERNATIONAL TUNISIE, 09/11/2007. P: 199.

13 . Sabrina BENMECHERI; DIAGNOSTIC ECOTOURISME DU : PROJET MENA-DELP, Partage des connaissances et coordination sur les écosystèmes désertiques et les moyens de subsistance Au profit de l'Algérie, Egypte, Jordanie, Maroc et Tunisie, Développement du secteur touristique dans les zones désertiques, Pour l'Observatoire du Sahara et du Sahel, Février 2014. p: 17.

14 . Déclaration d'Alger 2006 – Année Internationale des Déserts et de la désertification. p:1.

15 . Ministère de l'Aménagement du territoire de l'environnement et du tourisme; SCHEMA DIRECTEUR D'AMENAGEMENT TOURISTIQUE «SDAT 2025», livre 3, Les sept pôles touristiques d'excellence, Janvier 2008. p; 32-39.

qui pourra constituer un avantage concurrentiel déterminant.

Cependant, le tourisme culturel durable doit être une activité responsable envers ce patrimoine et en faveur des générations actuelles et à venir. Il devrait avoir des principes similaires au tourisme écologique:

- Il doit contribuer activement à la préservation et à la réhabilitation du patrimoine culturel.
- Il doit impliquer les populations locales qui doivent également bénéficier de ses subsides.
- Il doit également avoir des objectifs éducatifs en faveur des populations et des visiteurs locaux et étrangers.
- Eduquer, sensibiliser et promouvoir les valeurs patrimoniales et le développement durable.
- Impliquer les populations locales dans le développement de l'écotourisme et du tourisme culturel et les faire bénéficier des retombées économiques.

Bibliographie:

1 . Jean-Didier URBAIN; L'IDIOT DU VOYAGE, éd. Payot, p: 227.

2 . SAURET S; IL ETAIT UNE FOIS LE DESERT, Dossier Déserts, Études, n°399, 2003/12, pp: 664-670.

3 . La Le pèlerin, LES GRANDS CHANTIERS DU SAHARA, La tribune, 06/01/2008, p:4.

4 . Yaël KOUZMINE; DYNAMIQUES ET MUTATIONS TERRITORIALES DU SAHARA ALGERIEN VERS DE NOUVELLES APPROCHES FONDÉES SUR L'OBSERVATION,

Thèse de Doctorat, géographie, Université de Franche-Comté. p:43

5 . Ezzedine HOSNI; DECENNIE MONDIALE DU DEVELOPPEMENT CULTUREL STRATEGIE POUR UN DEVELOPPEMENT DURABLE DU TOURISME AU SAHARA, UNESCO, 2000, p: 5.

6 . Ibid, p: 6.

Tout cela étant dit, il y a cependant des premiers pas qui ont été fait comme les travaux de l'OMT dans le cadre de l'Année Internationale des Déserts et de la Désertification en 2006 ont abouti à la déclaration d'Alger, lors de la réunion régionale en présence des pays membres et concernés par la thématique des déserts. Cette déclaration a validé la nécessité d'aller vers un développement éco touristique dans les déserts comme moyen de développement durable des peuples des déserts[14].

Cependant, ces mesures n'ont jamais vu le jour compte tenu des situations économiques & sécuritaires qui n'ont pas été favorables.

Cela étant, un nouveau schéma directeur a été élaboré pour 2025 avec les points suivants :

- Plus d'aéroports;
- Plus d'hôtels;
- réseaux touristiques et circuits thématiques;
- Réhabilitations des systèmes d'irrigation traditionnelle et de comité de sauvegarde;
- Inventaire du patrimoine immatériel saharien;
- Ateliers de formations sur la protection de l'environnement;
- Infrastructures de base et réhabilitation d'habitations traditionnelles;
- Création des pôles d'économie du patrimoine[15].

Ceci semble très ambitieux, et nous souhaitons voir ces projets menés à bien et jusqu'au bout pour revivifier l'espoir d'un réel tourisme durable dans notre Sahara.

Conclusion:

Les touristes internationaux sont de plus en plus sensibles au tourisme durable, comme l'indique la multiplication des labels et des initiatives dans le domaine. À l'orée de son développement touristique, l'Algérie dispose, de ce fait, d'une opportunité unique pour adopter un modèle Algérien du tourisme durable

alors des éléments plus physiques en rapport avec le vécu historique: il s'agira alors principalement de vestiges archéologiques ou d'éléments significatifs rassemblés dans les musées. Les valeurs culturelles pouvant également être mises en avant en terme de valorisation touristique peuvent également concerner l'art contemporain[12].

Le tourisme durable doit développer ces axes à travers un programme d'actions adapté, dans les domaines suivants :

- Valorisation du programme de biodiversité du Sahara à travers des actions d'informations et de promotion : film, reportage, et journée à thème pour la préservation de la biodiversité.
- Valorisation des oasis à travers un programme d'agro-écologie : c'est-à-dire redonner du sens à l'agriculture oasienne, en termes d'activités de valorisation des produits de terroir : datte, henné, palmier, etc...
- Valoriser l'architecture et le patrimoine bâti.
- Gestion de l'eau permet de valoriser les systèmes anciens de collecte et de gestion de l'eau dans les déserts.
- Ressources humaines : valoriser globalement les modes de vie des bédouins, nomades et sahariens à travers tout ce que cela peut apporter de positif aux cultures des peuples des déserts[13].

Les professionnels recommandent cependant des mesures à même de hisser le tourisme à un niveau qui soit à la hauteur des potentialités de la région. Parmi ces mesures, l'on cite :

- La création de tour-opérator ;
- le renforcement des campagnes publicitaires ;
- le recrutement de personnel qualifié dans les hôtels ;
- la recherche des ressources de financement.
- La création de manifestations riches en thèmes et en couleurs.

Dans ce cadre, le tourisme saharien durable pourrait se définir comme une volonté et une pratique du développement touristique et des activités récréatives dans notre Sahara, qui intègre les principes de base du développement durable et se montrent respectueuses de l'homme, de l'environnement, de la culture et de l'économie locale de la région d'accueil (figure3). Partant de là, il est possible de réaliser une amélioration de la qualité bénéficiant à toutes les parties concernées et assurant à toutes les générations, présentes et futures, la possibilité de jouir de la destination en question[10]. Toutefois, la présence de certaines difficultés rend aléatoire la réalisation de cet objectif.

Le rôle du tourisme saharien dans le développement des zones concernées pose la question du rapport entre développement local et stratégie nationale de développement.

La spécificité du tourisme dans les zones concernées pourrait être déclinée sous la forme «Tourisme au Sahara» ou «Tourisme saharien» et articulée autour de la différenciation établie par Wided Majdoub entre touristes classiques et touristes à la recherche d'expériences[11]. Ce tourisme saharien se révèle aussi dans le contact avec des éléments naturels exotiques, imprévisibles, contact d'autant plus fort et impressionnant qu'il peut être soudain et qu'il se pratique sans aucune protection possible autre qu'un simple feu de bois ou une tente.

C'est sur les plans législatif et institutionnel que l'essentiel reste à faire, car là également ce sont de nouveaux dispositifs qu'il s'agira de mettre en place afin d'aboutir à une gestion participative de ces espaces impliquant à la fois l'administration centrale pour les prises de décisions stratégiques, les institutions locales, les populations et la société civile.

Le tourisme culturel, comme le tourisme en rapport avec le milieu naturel, exploite également des valeurs patrimoniales en relation avec les acquis historiques d'une zone, d'une région ou d'un pays. Il peut s'agir de valeurs immatérielles comme les arts et les activités traditionnelles (artisanales, agricoles, architecturales) ou

3. Sahara – Tourisme durable

Il est indéniable, que le tourisme représente aujourd'hui l'une des activités économiques les plus rémunératrices et les plus créatrices d'emplois dans le monde.

Pourtant, le tourisme saharien recèle, malgré les agressions assénées par l'homme, un riche patrimoine naturel et culturel encore peu ou pas exploité:

L'Algérie est l'héritière privilégiée d'un legs patrimonial exceptionnel: les civilisations qui se sont succédées et le brassage culturel qui en a résulté ont engendré un étonnant mélange qui brille par son originalité, que ce soit sur le plan des vestiges archéologiques ou du patrimoine immatériel dans sa globalité.

Par ailleurs, il y a le tourisme et les cultures locales. Constitué essentiellement de regs, d'ergs et d'oasis luxuriantes, le désert algérien et ses savoirs ancestraux ont depuis toujours captivé l'intérêt et l'engouement des voyageurs et des aventuriers du monde entier, même s'il reste beaucoup à faire en matière d'infrastructures d'accueil de haut standing. Rien qu'au cours des dernières fêtes de fin d'année (2013), le Sahara a accueilli quelque 12 000 touristes étrangers, selon les chiffres de l'Office national du tourisme. Djanet, Tamanrasset, Timimoun, Taghit, Ouargla, Ghardaïa, le parc national du Tassili figurent parmi les destinations les plus prisées par les vacanciers, essentiellement européens[9].

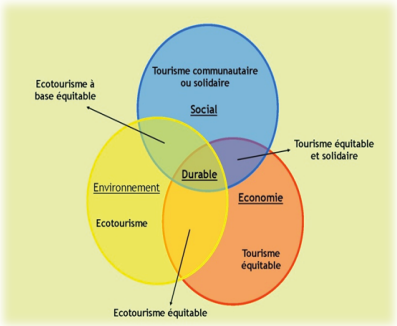

Fig 03. Le concept du tourisme durable.

par la sécheresse et la désertification ou l'insécurité engendrée par des conflits politiques ou interethniques sont souvent amplifiées par les médias. Certains pays de l'Afrique centrale et de l'Afrique de l'Ouest tels que le Tchad, le Niger, le Mali et la Mauritanie ou des pays limitrophes au nord, tels que le Soudan, la Libye ou l'Algérie, subissent les conséquences de ces situations. Cela est de nature à contribuer, en plus de l'absence parfois d'une réelle volonté politique, à la faiblesse relative de leur activité touristique internationale[6].

Par ailleurs, ces régions connaissent de très sérieux problèmes de dégradation de l'environnement autour de leurs vieilles oasis et cités sahariennes qui subissent les phénomènes d'ensablement progressif, de l'avancée du désert, accentuée par la surexploitation agricole et pastorale ainsi que de l'exode rural relatif des jeunes. L'ampleur de ces phénomènes de désertification, additionnée à une sécheresse persistante affectant surtout les pays de l'Afrique septentrionale, y compris ceux du Sahel, ont été largement abordés à Rio (Brésil) en juin 1992, lors de la Conférence des Nations Unies pour l'environnement et le développement (CNUED). La CNUED (intitulée également le Sommet de la terre a amené la communauté internationale à décider l'établissement d'une Convention internationale sur la lutte contre la désertification qui fut adoptée en juin 1994.[7]

Sur le plan économique, l'évolution climatique et la raréfaction des ressources (eau en particulier), combinées aux pressions sur les activités agricoles (impératifs d'adéquation à l'évolution des débouchés marchands), conduisent à une fragilisation des systèmes économiques oasiens traditionnels, à une augmentation de la pauvreté et de la vulnérabilité et à des mouvements de populations. Face à ces difficultés, le développement du tourisme pourrait apparaître comme une réponse adaptée[8].

Le tourisme dans le Sahara algérien est un secteur porteur et pourrait jouer facilement le rôle d'une véritable locomotive de développement économique et social.

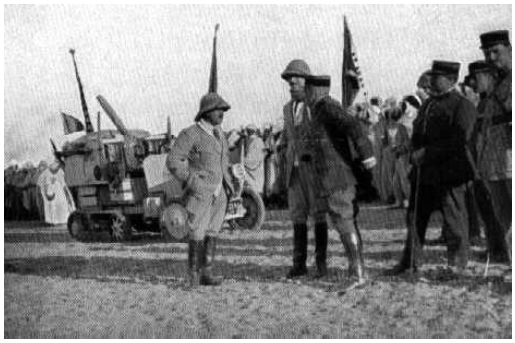

Fig 02. Mission Citroën. Arrivée à Wergla.

Le tourisme au Sahara est récent: en 1919 seules les limites nord du Sahara avaient été survolées et il faudra attendre 1922 pour que la mission Citroën dirigée par Haardt, Audoin et Dubreuil traverse pour la première fois le Sahara en automobile (figure2). En une douzaine d'années, les pistes les plus importantes seront progressivement ouvertes aux «touristes»: la ligne du Hoggar de 1922 à 1929, celle du Tanezrouft en 1923, celle de Mauritanie en 1934. En 1924, le capitaine Delinguette et son épouse partaient sur une «six roues» Renault et réalisaient la traversée de l'Afrique toute entière, d'Oran au Cap, qu'ils atteignaient en 1925. Mais il s'agit là d'un exploit isolé. Les choses changeront fondamentalement en 1930 quand, à l'occasion du centenaire de la prise d'Alger, était organisé le premier rallye transsaharien qui sera remporté par l'équipe Cottin Desgouttes sur des roadsters 14 cv «Sans Secousses»[5]. Dans ce contexte de développement des transports et du tourisme, des infrastructures d'accueil seront progressivement mises en place afin d'accueillir les voyageurs.

Cependant, depuis que les peuples africains ont eu leur liberté, ils souffrent tous, à part quelques rares exceptions, souvent d'une image de marque désastreuse auprès des marchés émetteurs de touristes européens ou américains. Des situations réelles de sous-développement structure1 ou de catastrophes humanitaires causées

S'inscrivant en opposition avec le Nord algérien, espace compartimenté et segmenté, où les circulations sont rendues complexes par les formes du relief, l'espace saharien constitue un espace globalement ouvert et relativement plan avec une très grande diversité de paysage (figure1)

Le Sahara algérien, immensité désertique représentant près de 80% de la superficie globale du pays (soit 2 millions de kilomètres carrés), regorge de richesses minières et énergétiques. Un vaste territoire exotique, avec un sous-sol généreux, qui a toujours fait figure de «coffre-fort» pour le reste du pays[3].

Cette terre mythifiée, constitue un espace soumis à des représentations sociales, culturelles fortes et structurantes sous-tendues notamment par les notions de vide et d'aridité.

A travers l'histoire, le Sahara a constitué pour le Maghreb la porte de l'Orient et également une voie de passage vers l'Afrique sub-saharienne. Aussi, tout le Sud est-il marqué par une grande richesse du patrimoine culturel, témoin de la succession de plusieurs civilisations.

Au-delà des spécificités physiques et topographiques qui fondent le particularisme saharien, la forme, la structure et le fonctionnement des pôles du peuplement saharien se caractérisent par une terminologie porteuse de sens, de pratiques et de configurations spatiales[4].

2. Sahara – Tourisme & conséquences

Les atouts architecturaux n'en sont pas moins nombreux avec les ksours, ceux-ci représentent la grande majorité de l'habitat saharien traditionnel en Algérie, seules quelques cités sahariennes émergèrent avant la phase d'urbanisation massive du XXe siècle.

dès aujourd'hui les ressources culturelles, naturelles et sociales et enfin de permettre aux populations locales de s'épanouir par le biais du tourisme : conserver leur culture, prendre soin de leur environnement, percevoir une « juste » rémunération, échanger avec les voyageurs, etc…

Le but du présent travail et de mener une réflexion sur l'application ce mode de tourisme au Sahara Algérien.

Après cette courte introduction, nous allons donc discuter des enjeux géostratégiques du Sahara et faire ensuite un constat sur les conséquences de la mauvaise exploitation actuelle du tourisme anarchique sur les différents plans sociaux, culturels & économiques pour finir avec des propositions sur l'application concrète du tourisme durable.

1. Sahara - Généralités

«Voici donc le désert, espace natif, pré-humain, polymorphe, dont le vide naturel est offert à toutes les solitudes. Il fascine car il n'a précisément plus rien d'humain»[1].Cette citation de Jean-Didier Urbain, qui résume en quelques mots l'essentiel de ce qui fait l'attractivité du désert pour les voyageurs occidentaux.

Les déserts chauds et les déserts froids constituent aujourd'hui autant d'espaces participant d'une géographie du mythe, « d'une géographie de la négation, du manque et de la menace»[2]

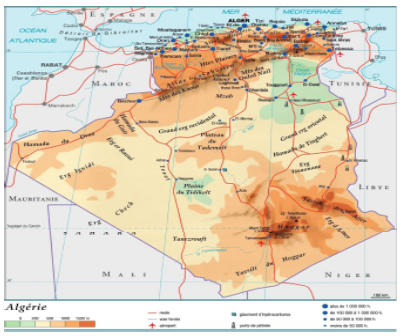

Fig 01. Carte géographique de l'Algérie.

Source Larousse Français.

Le Tourisme durable

Mme. LACHACHI Amina,

Enseignante (Université de Tlemcen)

Abstract :

The term sustainable tourism development is used on all forms of development of the tourist activity that respects, preserves and makes long-term value of natural resources, cultural and social territory.

The Algerian Sahara remains largely under-exploited in comparison with neighboring deserts while its potential is much higher.

The main solution we propose through this study is to create well-designed tours that would, first, attract the tourist activity and, on the other hand, guide the majority of the people around to go towards modernity while preserving the authenticity of their environment. With targeted activities, that would give added value to sites and could largely benefit to the region.

Introduction :

On entend par développement du tourisme durable toute forme de développement de cette activité touristique qui respecte, préserve et met en valeur à long terme les ressources naturelles, culturelles et sociales d'un territoire.

Le développement du tourisme durable doit s'inscrire dans une dynamique qui articule des modes de production et de consommation responsables, tout en offrant aux populations qui vivent, travaillent ou séjournent sur cet espace des avantages socio-économiques équitablement répartis.

Ce développement suppose un aménagement et une gestion intégrée des ressources, ainsi que la participation des acteurs locaux afin de concilier sa mise en œuvre avec les besoins et capacités du territoire.

Les objectifs du tourisme durable consistent à faire en sorte que les voyageurs et les populations se rencontrent de façon plus authentique & humaine ; de préserver

40. Colloque international de Kairouan « Montagnes et plaines dans le bassin méditerranéen » du 5 au 7 décembre 2011 (sous presse).
41. Sahed A.T., et Saoudi N., 1998. - Découverte d'une nécropole protohistorique à Sefiane. Région de N'gaous (Hodna oriental). Libyca, Anthrop., Archéol. Préhist., t. XXXV, pp : 181-187.
42. Savary J.P., 1966- Monuments en pierres sèches du Fadnoun (Tassili N'Ajjer). Mémoire du CRAPE, AMG, Alger, 80p.
43. Voinot L., 1908- Note pour servir à l'étude de l'ethnographie ancienne du Sahara central. Bull. Soc. Géogr. Archéo. d'Oran, t. XXVIII, pp : 325-368.
44. Woisard A. 1955- Monuments antéislamiques dans le Sahara occidental. B.S.L., t. VI, n+21, pp : 154-158.
45. Le « tumulus à cratère » est un tumulus avec une dépression sommitale évidée en cratère, peu profonde. ** Missions de travaux de prospections effectuées par les chercheurs du centre national des recherches préhistoriques, historiques et anthropologiques (CNRPAH) en collaboration avec les chercheurs du Parc national de l'Ahaggar (OPNA): Mai 1997. *** Selon J.P. Savary, cette forme laisse supposer une relation avec le soleil. **** Gétules: en latin : Gaetuli, selon G. Camps est le nom d'un ancien peuple établi en Afrique du Nord depuis la protohistoire jusqu'à l'antiquité, habitants du Sahara nord-ouest.

*

d'étude sur l'histoire du Sahara. Edition Kartala.
26. Maitre J.P., 1976- Contribution à la préhistoire récente de l'Ahaggar dans son contexte saharien. Trav. Et mém. De l'inst. De l'ethnographie, t.XIX, Paris.
27. Monod Th., 1932- L'Adrar Aknet. Contribution à l'étude archéologique d'un district Saharien, Trav. Et mém. De l'inst. d'ethnographie, t. XIX, Paris.
28. Paris F., 1993- Les sépultures du Sahara nigérien, du néolithique à l'islamisation. Coutumes funéraires, chronologie et civilisations. Thèse de doctorat, université de Paris I, Bondy, Orstom, 2 volumes, 692p.
29. Paris F., 1995- Essai de classification des monuments funéraires sahariens. Bull. Soc. Préhist. Françaises, t. 92, n°42, pp: 549-553.
30. Paris F., Saliège J.F., 2010- Chronologie des monuments funéraires sahariens. Les nouvelles de l'Archéologie, n°120-121, pp : 57-60.
31. Petit M., 1905- Note sur les tumulus d'Ain Sefra. Bull. Soc. Géogr. Archéo. d'Oran, t. XXV, pp: 285-294.
32. Pothier E., 1886- Note sur les tumulus de la Dia de Tilghemt. Revue d'ethnographique, pp :301-332.
33. Renier J. 1961- Monuments antéislamique de taille exceptionnelle dans le Sahara central. B.S.L., t. XII, pp : 137-140.
34. Reygasse M., 1950- Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du nord. AMG, Paris.
35. Roffo. P. 1938- Sépultures indigènes antéislamiques en pierres sèches. Etude sur trois nécropoles de l'Algérie centrale. Revue Africaine, t. XXXII, pp : 197-240.
36. Sahed A.T., 1997. - Premiers résultats des monuments funéraires de la nécropole de Sefiane- région de N'gaous (Monts de Bellezma). Journée d'étude du C.N.R.P.A.H, écologie et adaptation, Juin 1997, pp: 83-89.
37. Sahed A.T., 2010. - Contribution à l'étude de la nécropole protohistorique de Sefiane (régionde N'gaous), revue Anthropo, Vol 21, pp : 61-77, www.didac.ehu.es/antropo.2010.
38. Sahed A.T., 2011. - Lecture de l'habitat dans la vallée d'Oued Mzi (Laghouat) à travers une approche protohistorique. Premier séminaire national sur l'habitat traditionnel dans la région de l'Atlas saharien. Revue de l'université de Laghouat du 17-18 Avril 2011.
39. Sahed A.T., 2011. – Occupations protohistoriques dans la région de l'Aurès- Sud Est Algérie.

9. Camps G. 1986- Protohistoire de l'Afrique du Nord. Questions de terminologie. LAPMO, Univerisité de Provence.
10. Chudeau R. ,1915- Observations nouvelles sur les tombes et les monuments lithiques du Sahara. Congr. De l'AFAS, 43 ème. Le Havre, pp : 711-717.
11. Denis P., 1959- Tombes préislamiques en croissant du Hoggar. B.S.L., t. X, n°36, pp : 295-298.
12. Dessigny M., 1908- Notice sur quelques monuments de la région d'Ain Sefra. Bull. Archéo. du comité des trav. Hist. et scient., pp : 63-86.
13. Foureau F., 1905- Documents scientifiques de la mission saharienne. Mission Foureau-Lamy. Paris, Masson.
14. Friquet J.C., Lequellec J.L., 2007- « utilisation de Google Earth pour l'inventaire des monuments funéraires sahariens. L'exemple de l'Immidir (Algérie) ». Les Cahiers de l'AARS, n° 11, pp : 33-49.
15. Gaussen J., 1986- « Sur trois nécropoles préislamiques » du sud de Tanzerouft. Bull. Soc. Anthrop., t. XXI, n°3, pp: 127-142.
16. Gauthier Y., Gauthier Chr., 2007- Monuments funéraires sahariens et aires culturelles. Les Cahiers de l'AARS, n°11, pp : 65-78.
17. Gautier E. F., 1907- Etude d'ethnographie saharienne, indications sur les tombeaux et les cimetières de l'Adrar des Ifoghas. L'Anthropologie, t. XVIII, pp : 37-68.
18. Gautier E. F., 1908- Le Sahara algérien. A. Colin. Paris, 371 p.
19. Hachid M., 2000- Les premiers berbères. Entre Méditerranée, Tassili et Nil. Edition INA-YAS.EDISUD, 314 p.
20. Haddouche A., 2003- Notes sur les monuments funéraires de l'Ahaggar. Annales du musée national des Antiquités, n°13, pp : 5-22.
21. Haddouche A., et Iddir S., 2004- Sur quatre types particuliers de monuments protohistoriques de l'Ahaggar. Annales du musée national des Antiquités, n°14, pp : 61-71.
22. Leroi-Gourhan A., 1988- Dictionnaire de la préhistoire. Edition P.U.F., Paris
23. Lhote H., 1967- Les tumulus du Tassili N'Ajjer, à propos d'un ouvrage récent. Trav. de l'IRS, t. XXVI, pp : 113-132.
24. Lhote H., 1971- Observations sur quelques monuments préislamiques du Sahara central ayant livré des restes humains et contribution à l'inventaire des squelettes préhistoriques de la même région. Libyca, t. XIX, pp : 185-198.
25. Lihoreau M., 1993- Djorf Torba. Nécropole saharienne antéislamique. Centre

massif de l'Adrar des Iforas et le plateau de Tanezrouft.

La diversité de ce patrimoine nous impose son classement en différentes périodes. Chacune de ces périodes reflètent une situation complexe, mais définissable à travers les indices multiples qui facilitent la lecture de l'environnement qui n'est plus le même aujourd'hui. La succession des cultures depuis paléolithique, néolithique et protohistoire, fait du Sahara un espace de diffusion culturelle.

Ce patrimoine est aujourd'hui menacé par la modification des modes de vie, l'urbanisation et la désertification notamment. Il nécessite une plus grande attention et des mesures de sauvegarde et de gestions appropriées.

Bibliographie :

1. **Aumassip G., Roubet C., 1966- Premiers résultats d'une mission archéologique (Grand erg d'Admer). Trav. De l'IRS, t. XXV, pp : 57-94.**
2. **Begouen (Comte)., 1931- Les tumulus de la région d'In-Ekker (Hoggar). Extrait des mélanges au professeur Hamal-Nandrien, Bruxelles.**
3. **Begouen L., Begouen (Comte), Benoit L., 1933- Les tumulus du Hoggar (Tafedest), note préliminaire, XV ème Cong. Inter. D'Anthrop. D'archéo. Préhist., V session de l'instit. Inter d'Anthrop, Paris, t. XXXIII, pp : 213-219.**
4. **Bernard (Capitaine), 1884- Notes au sujet de quelques monuments de pierres brutes relevés au cours du de la première mission Flatters chez les Touaregs Azguers. Revue archéologiques, 3 ème série, t. IV, pp : 206-214.**
5. **Bessac H., 1953- Contribution à l'inventaire préhistorique du Sahara occidental. BIFAN, t. n°4, pp : 1582-1604.**
6. **Camps G., 1960 - Un mausolée marocain, la grande bazina de Souk El Gour. Bulletin d'Archéologie marocaine, t. IV, pp. 47-92.**
7. **Camps G. 1961- Aux origines de la Berbérie, Monuments et rites funéraires protohistoriques. Mémoire du CRAPE, Alger, AMG, Paris.**
8. **Camps G. 1965- Le tombeau de Tin Hinan à Abalessa. Trav. de l'IRS, t. XXIV, pp : 65-83.**

ans av. J.C. Pour ce qui est des bazinas à base cylindrique, la date est étalée vers 3050 ans av., J.C.

Conclusion

Les tumulus et bazinas, formes simples, sont les plus répandus et éparpillés dans l'ensemble du Sahara. D'autres monuments particuliers ont une répartition restreinte, parmi on peut l'exemple des margelle à puits qui sont localisées uniquement dans les régions de l'Ahaggar (principalement à Tit), et dans la région du Fadnoun, les cercles de pierres, les dallages et les plates formes sont des monuments rares au Sahara algérien, on les rencontrent surtout au sud, avec quelques exemples au nord, tout en tenant compte le manque recherches archéologiques surtout les régions sahariennes.

Quant aux formes complexes telles que les tumulus à couloirs et à enclos, elles sont très variées nombreuses mais pas assez étudiés, les monuments à chapelles ne sont connus qu'à Djorf Torfa, de semblables types ont été récemment rencontrés au piémont des monts des Ammours, dans la région d'Oued M'zi (Laghouat). De même les tumulus et bazinas à niche sont aussi présents dans le Sahara. Les monuments à bras sont selon les études récentes de K. Haddouche très présentes dans l'Ahaggar mais aussi dans le Tassili N'Ajjer, nonobstant les tumulus en croissant sont situés particulièrement dans la région ouest de l'Ahaggar, mais également à l'est de Tindouf. Les monuments « en trous de serrure» sont très connus dans le Tassili N'Ajjer, principalement dans la région de Djanet.

Nous venons d'énumérer les principaux monuments funéraires à travers le grand Sahara, leurs grandes variétés architecturales, qui expriment sans aucun doute l'existence de plusieurs peuplements ayant cohabité et transmet des traditions funéraires à travers le temps depuis le néolithique jusqu'aux périodes tardives. Il s'agit d'un vaste territoire limité au nord par l'Atlas saharien, à l'Ouest par les Réguibate de Tindouf, à l'Est par le massif du Hoggar et du Tassili et au Sud par le

l'avulsion dentaire des deux incisives du maxillaire, cette pratique était beaucoup courante pendant la préhistoire chez les Ibéromaurisien (épipaléolithique). Dans un autre tumulus, M. Lihoreau a cité un squelette en mauvais état de conservation dont le crane et les os longs ont été peints avec de l'ocre rouge (M. Lihoreau 1993), qui selon G. Camps, cette pratique était très commune depuis l'épipaléolithique (préhistoire) et se poursuit jusqu'à la période romaine (G. Camps, 1961, p.522).

Les chercheurs s'accordent à dater des premiers siècles de notre ère les bazinas à chapelles de Djorf Torba en raison de la présence de certains motifs et caractères libyques trouvées sur les dalles peintes, que G. Camps les attribue au territoire des Gétules**** dont la datation varie entre 500 ans BC et 500 AD (G. Camps, 1986). Une autre datation relative est proposé par G. Camps, il s'agit d'un bracelet serpentiforme trouvé par H. Bessac en 1953 dans un tumulus à dalles dressées d'Aouanet El Graa, qui remonte beaucoup plus du néolithique, sans aucune autre indication (G. Camps, 1986, p. 434).

Pour ce qui des datations absolus par C14, elles sont rares, parmi on peut citer deux datations effectuées par J. Gaussen en 1986 dans deux tumulus de l'Ahaggar, l'une à Bidon V sur du charbon: 4750±80 BP, l'autre prés du site de Launey, daté de: 5055±85 BP ou 3105 ans Av. J.C (J. Gaussen, 1986). Une autre date a été cité dans un monument particulier qui celui de Tin Hinan daté de: 470±130 BP. Les fouilles des monuments à margelles ont confirmé un âge compris entre 1300 et 1270 ap. J.C pour le site Tit et 1270 et 1390 ans apr. J.C pour ceux de Silet.

Selon les datations obtenues par F. Paris dans les fouilles au Niger septentrional, il date les tumulus à couloir et enclos, connus communément sous l'appellation des trous de serrure, qui sont considérés comme les plus anciennes monuments dans le Sahara central, c'est-à-dire néolithique, il les situé entre 4300 et 3200. Pour ce qui est des tumulus en croissant, F. Paris les a daté autour de 3300 et 1900 ans av. J.C, les Tumulus sur dallage concentrique apparaissent dans le nord du Niger vers 3800

ces types de monuments au Sud-est de Tindouf au dit Aouanet El Graa, il a décrit un tumulus de forme elliptique orientée nord/sud, mesurant 6 mètres de diamètre et 0.70 mètre de hauteur, et autour du tumulus étaient implantées de grandes dalles, puis par L. Fréderic en 1954 qui fouilla un type de tumulus semblable.

- Les *« monuments à éléments cultuels »,* ce sont généralement des tumulus ou bazinas auxquels sont accolées des managements de différentes formes, ils sont localisés aussi bien dans l'Ahaggar que dans le Tassili N'Ajjer. L'exemple le plus cité est celui cité par G. Camps à In Ikker en 1986.

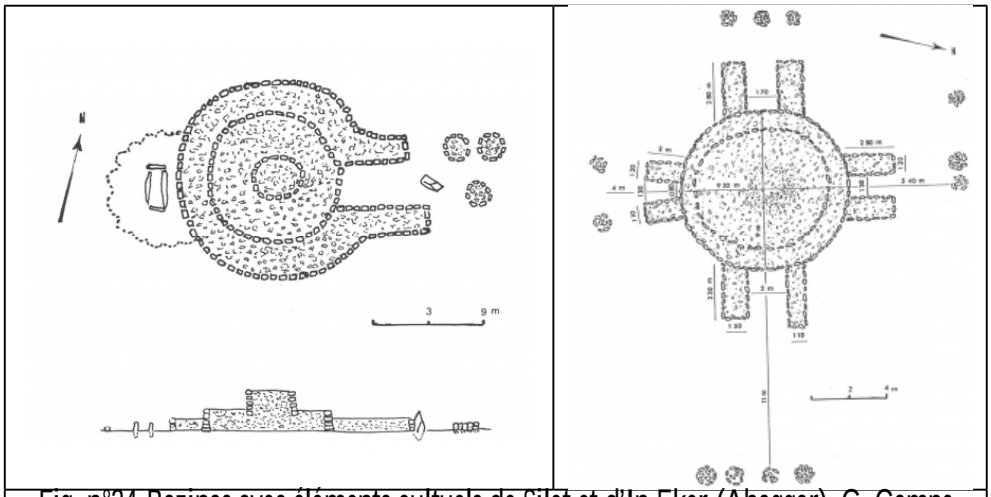

Fig. n°24-Bazinas avec éléments cultuels de Silet et d'In Eker (Ahaggar). G. Camps 1986.

3. La question de datation des monuments funéraires du Sahara

Les datations absolues effectuées sur les monuments funéraires du Sahara ont permis de les attribuer certains types au néolithique et d'autres à la période au post-néolithique (protohistoire). Parmi les datations relatives proposées, certaines ont été reportées à une période historique, d'autres à une période plus ancienne se référant aux pratiques funéraires, l'exemple le plus cité est celui du tumulus à fosse, cité par M. Lihoreau en 1993 dont le squelette était disposé en décubitus dorsal et ayant subi

accolées aux tumulus et bazinas, M. Petit a découvert un type semblable à Ain Sefra en 1905, l'allée est construite par des dalles disposées à plats sur une pente assez douce, et accolée à une bazina d'environ 7 mètres de diamètre et de 2 mètres de hauteur. D'autres types ont été retrouvés à Djorf Torba par M. Lihoreau, représenté par une allée de pierres de 6 mètres de longueur et 1,90 mètre de largeur accolée à un tumulus tronconique de 6 mètres de diamètres et de 1 mètre de hauteur (M. Lihoreau 1993, p. 21). A In Ekker, le Comte Bégouen a signalé en 1931 un type similaire dont l'allée set formé pierres, long de 2.10 mètres et large de 0.70 mètre accolée du côté sud à une bazina.

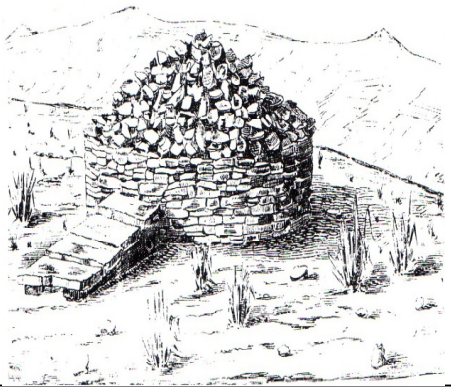

Fig. n°22-Bazina à allée d'Ain Sefra
(. Petit, 1905)

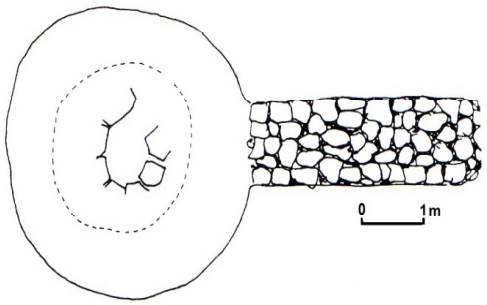

Fig. n°23-Tumulus à allée de Djorf Torba
(M. Lihoreau, 1993,p. 23)

- Les *« monuments à dalles dressées »*, Ce sont des tumulus de forme circulaire, de faible hauteur, évalue à 0.70 mètre, au bord et même à l'intérieur du tumulus sont disposés de grandes dalles dressées ou monolithes de chant atteignant une hauteur de deux mètres et plus. Ces formes abondent la région de Tindouf au lieu dit Bidon V, plus de 3000 monuments ont été recensés. Ils ont été signalé au nord de l'endroit dit Abankor par F. Foureau en 1905, en 1953 H. Bessac a noté la présence de

Fig. n°19-Tumulus à couloir et enclos de Tikoubaine (Tassili N'Ajjer)

Fig. n°20-Tumulus à couloir et enclos de Ti-n-Amali, Tassili N'Ajjer

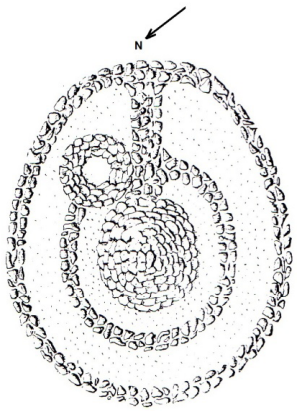

Fig. n°20-Tumulus à couloir et enclos de l'Edjéré (L. Voinot, 1908)

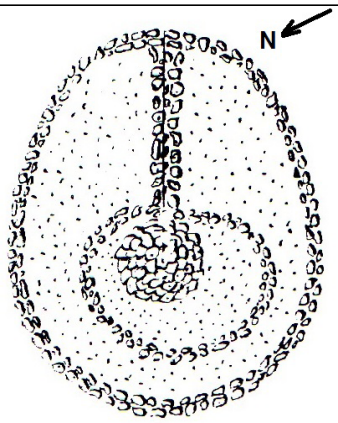

Fig. n°21-Tumulus à couloir et enclos de l'Edjéré (L. Voinot, 1908)

- Les ***« monuments à antennes »***, ils sont porteurs de deux antennes imposantes courtes et situés à l'est du tumulus. Ces formes sont très présentes dans le Tassili N'Ajjer et l'Ahaggar. A. Haddouche a noté la présence de ces types dans le l'Ahaggar central occupant des vastes espaces à Abalema et Tagréra (A. Haddouche, 2003, p.13). Leurs dimensions sont très importantes atteignant 180 mètres à Hassi Tan Taménokalt dans le Tassili des Ajjer et 390 mètres celui de d'Ifragh (J.P. Savary, 1966).

- Les ***« monuments à allées »***, Ce sont généralement des allées construits

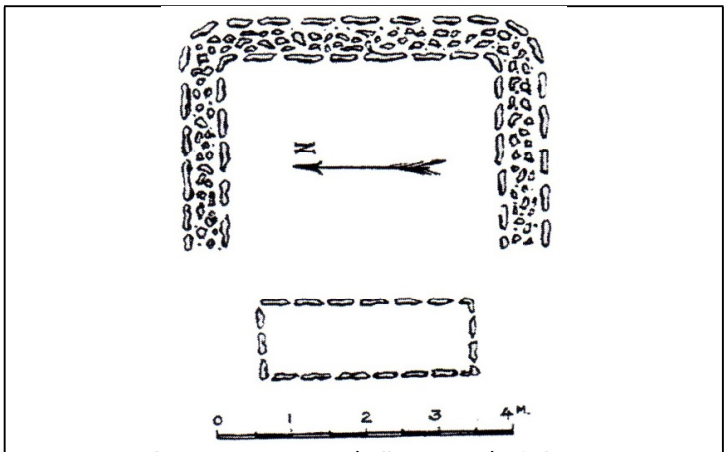

Fig. n°18- Monument à alignement à Abalessa
(M. Reygasse, 1950)

- Les ***«tumulus « à couloir et enclos»***, plus connus sous l'appellation : monuments « en trous de serrures», Ce sont monuments associés à enceinte plus ou moins ovoïde qui circonscrit l'ensemble. Ils sont matérialisés par deux bordures rectilignes et parallèles, formant ce qu'on appelle communément un couloir, destiné sans aucun doute aux cultes rituels[***]. Ces monuments sont signalés dans le Tassili N'Ajjer jusqu'à Izzane. Ces monuments ont été signalés dés le début du siècle dernier, L. Voinot a signalé en 1908 à Amguid et dans l'Edjéré (L. Voinot, 1908). M. Reygasse a décrit en 1950 de semblables types dans l'Erg Tihodaine aux lieux dit Ouan et Tin Abdallah (M. Reygasse, 1950, p.52). L'inventaire des tumulus à couloir et enclos, datées à plus de 3000±200 ans av. J.C (F. Paris et J.F. Saliège, 2010), a bondi des 158 exemplaires recensé par J.P. Savary en 1966 au Fadnoun dans le Tassili N'Ajjer et à quelque 435 monuments par Gauthier en 2007 dans l'Ahaggar.

Haddouche a noté la présence d'un rassemblement considérables de ces monuments dans le pourtour Est et nord-est de l'Ahaggar, surtout dans l'Egéré, la Tourha, l'Amadoror et à Sérouanet dans le l'Aghéchoum (A. Haddouche, 2003, p.7).

M. Lihoreau, dont l'une, a une forme circulaire de 5.50 mètres de diamètre et d'un mètre de hauteur, et à l'est une niche est accolée à la base de la bazina, constituée de deux murettes de 2 mètres long (M. Lihoreau, 1993- pp : 76-79).

Fig. n°16–Fouille d'une bazina à niche, Nécropole de Kef Jder, vue du côté ouest (région d'Oued M'zi)

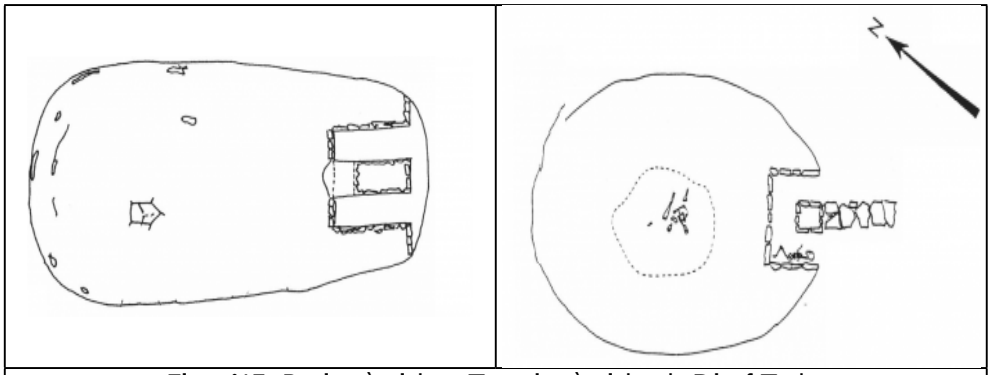

Fig. n°17- Bazina à niche - Tumulus à niche de Djorf Torba
(M. Lihoreau, 1993, p.76 et p.79)

- Les *« monuments à alignements »*, ce sont des monuments (tumulus ou bazinas) qui présentent un ou des alignements continus sous forme d'une murette ou en discontinue sous forme d'un tas de pierres ou petites tours sur une ligne rectiligne. A. Haddouche a noté la présence de ces monuments dans l'Ahaggar à Iglen prés d'Abalessa et aussi à Silet (A. Haddouche 2003, p.7).

(d'environ 1 m2) sur sa face Est, aboutissant sur un déambulatoire réservé aux rituels funéraires. Ces monuments ont été signalés pour la première fois à Djorf Torba, prés de Béchar (Oued Guir) (M. Lihoreau, 1993), dans la région de Négrine au nord est de l'Algérie (région de Tébessa) par E. Bastistini en 1936, et aussi dans la région d'Oued M'zi, prés de Laghouat par A. T. Sahed en 2010.

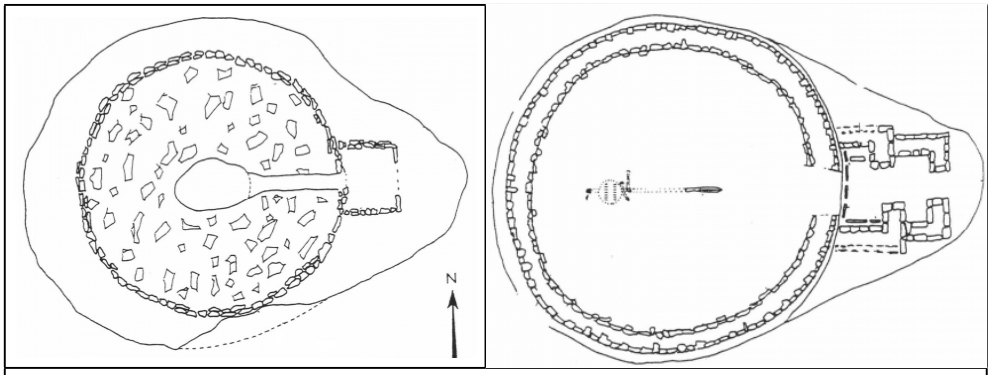

Fig. n°15- Monuments à chapelle externe, n° 6 (diamètre, 13 m) et n° 5 (diamètre, 13 m), d'après M. Lihoreau, 1993.

- Les « ***monuments à niche*** » ce sont des structures de tumulus ou bazinas, de formes circulaires, qui présentent sur ses côtés une niche construite par des pierres ou de dalles plantées de champ (type rare). Il s'agit probablement d'un autel dédié aux offrandes (G. Camps, 1959). Ces monuments sont signalés au nord et au sud de l'Algérie, on les retrouve à Oued Tamda, prés de Biskra, à Oued M'zi- Laghouat (Fig. n°16), au Tassili N'Ajjer, prés de Djanet et dans l'Ahaggar, à Ahnet.

Quatre tumulus à niche ont été signalé à Djorf Torba par M. Lihoreau en 1993, dont l'un a fait l'objet d'une bonne description, il s'agit d'un tumulus de forme ovalaire orienté nord-ouest/sud-est, de 10 mètres de diamètre et de 1.75 mètre de hauteur et dont le sommet était largement aplati, prolongé par une niche de 2.7 mètres de long et 0.7 mètre de large. Deux autres bazinas à niches ont été décrits par

le Tassili N'Ajjer, prés de Djanet, dans le Fadnoun, et à Ouagarta (prés de Béchar), Ainsi que dans la région de Tindouf à Ouinet El Graa.

Dans l'Ahnet, Th. Monod a signalé un type semblable au lieu dit In Ziza, dont la hauteur du tumulus avoisine 2 mètres avec un sommet éventré, les bras étaient formés par des pierres de petites dimensions, dont l'un mesurait 9.60 mètres et le second 16 mètres (Th. Monod, 1932, p. 50). Il est à noter qu'au cours d'une mission effectuée au mois de Mai en1997 au Sahara central[**], nous avons constaté une abondance de monument en forme de croissant dans l'Ahaggar, notamment à You Ehéket. Un autre type est signalé par L. Voinot à Amguid, ce monument présente une véritable forme en croissant dont le tumulus central (L. Voinot, 1908, fig. n°33).

De nombreux tumulus en croissant ont été signalé par A. Haddouche dans l'Ahaggar méridional, au sud de Silet, dans la région de Tin Zaouatine, région d'In Guezzam aux tassilis Ouan Ahaggar jusqu'au environ de You Ehéket (A. Haddouche, 2003, p.8).

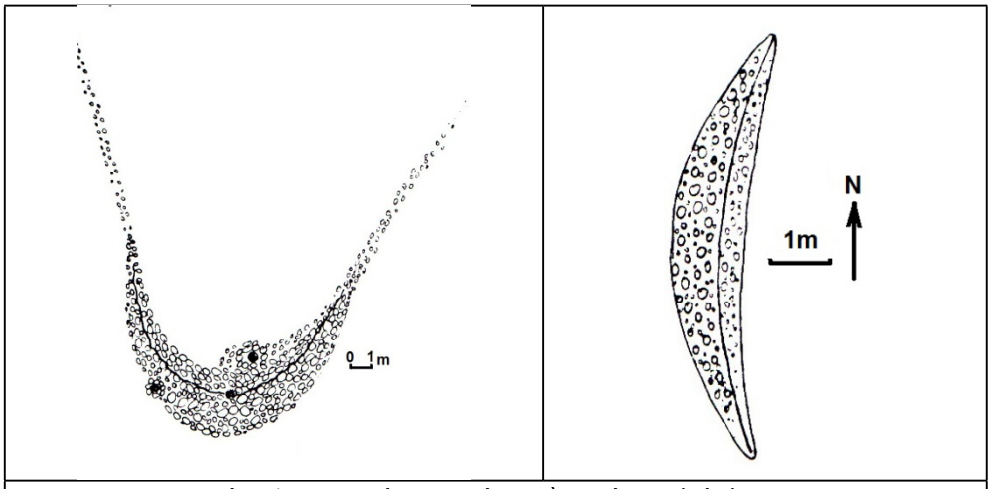

Fig. n°14- Tumulus en croissant à In Ziza et de l'Ahnet
(Th. Monod 1932, , p. 42 et p. 55)

- Les *« monuments à chapelle »* ce sont des bazinas de formes circulaires ou rectangulaires. Elles sont de grandes dimensions possédant une entrée

diamètre avec deux bras régulier et symétrique. L'un des bras était légèrement plus long, qui mesurait 5 mètres et l'autre 4.4 mètres et de 0.40 mètre de largeur.

Ce type de monument existe également à Ouan Torha, dont les bras mesuraient chacun 15 mètres et le centre occupait par un tumulus en mauvaise état de conservation (Th. Monod, 1932, p. 50). Au sud-ouest de Tamanrasset, à Tin Tahart, P. Denis a signalé en 1959 un monument à bras prés du rivage de l'oued Tin Tehoq, formé d'une enceinte de 12 mètres de diamètre, de forme ovale et délimité par des pierres ancrées partiellement dans le sol, elle est prolongée par deux bras ouvert vers l'est de 9 mètres de longueur (P. Denis, 1959).

A Djorf Torba, M. Lihoreau a signalé un tumulus qui mesurait 8 mètres de diamètre et 1.60 mètre de hauteur, au sud est accolée un petit bras constitué par des petites pierres et un autre bras long est accolé dans sa partie nord du tumulus et orienté vers le nord-est (M. Lihoreau, 1993, p. 47).

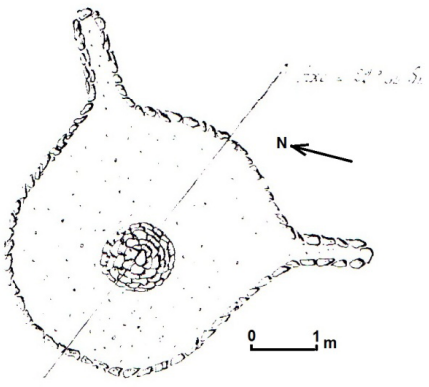

Fig. n°12-Monument à bras Amguid (L. Voinot, 1908)

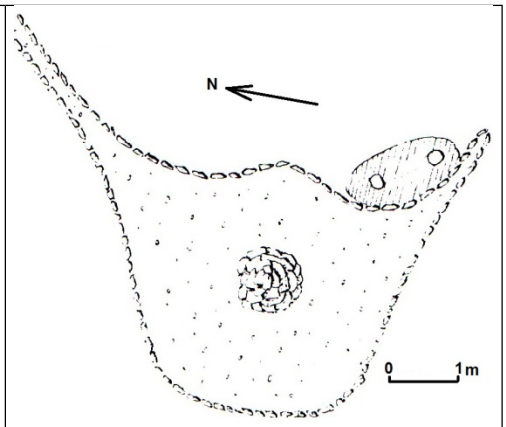

Fig. n°13- Monument à bras dans le Mouydir (L. Voinot, 1908)

- Les « ***monuments*** **en croissant** », ils sont formés d'un tumulus central portant des antennes qui lui donne cette forme particulière en croissant. Ils sont très répandus aux abords d'Amguid, Idles In Ekker dans l'Ahnet,

formes semblables sont rencontrées dans le Tassili N'Ajjer, sur les flans de colline prés de Djanet et dans la région de Fadnoun (G. Aumassip et C. Roubet, 1966).

Fig. n°10- Tumulus sur dallage concentrique et à dalles accolées - Oued Igharghar-Ahaggar

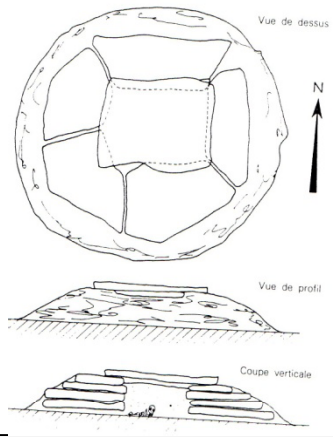

Fig. n°11 - Bazina à dalles superposées de Djorf Torba (Lihoreau, 1993, p. 82)

b. Les formes complexes

- Les « **Monuments à Bras** », ce sont des monuments funéraires tels que les tumulus, bazinas, cercles et autres, qui sont munis de deux prolongements convergents ou opposés. Ces formes sont très répandues sur des surfaces plates dans le Sahara central, principalement dans l'Ahaggar.

L. Voinot a signalé six monuments de ce type dans le Mouydir, à Amguid, dans l'Edjéré et Tin Felki (Ahaggar). Le monument de Mouydir était muni de deux bras, l'un mesurant 3 mètres et l'autre 6 mètres, le diamètre de l'enceinte était de 8 mètres. Un autre monument à Amguid était muni de deux bras particulièrement long et situés au sud, dont l'un des bras mesurait 76 mètres et l'autre 67 mètres avec un tumulus de 3 mètres de diamètre. D'autres monuments ont été cités dans l'Edjéré, dont l'un est très particulier par son enceinte de forme circulaire de 3.6 mètres de

juxtaposés (Th. Monod, 1932, p. 41), un autre monument est composé de six cercles concentriques est cité à Taloak par E. F. Gauthier (E. F. Gauthier, 1908).

- Ces constructions ont été signalées dans la région d'Ain Sefra (entre Beni Ouinif et Zennaga), composées de pierres posées ou plantées très régulièrement sur une ou deux rangés dont la surface interne est jonchée par de petits cailloux, leur diamètre varie de 6 à 12 mètres. Dans l'Oued Taguin, au nord-ouest de Ghardaïa, le capitaine Bernard a signalé en 1886 des grands cercles de 15 à 20 mètres de diamètre, dont la circonférence est formée de pierres amoncelées (Capitaine Bernard, 1886).

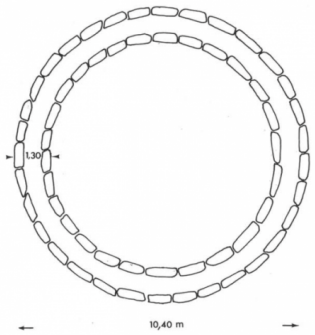

Fig. n°8- Cercles de pierres de l'Oued Ouahen à Tiffert (Ahaggar).

Fig. n°9- Cercles de pierres d'Amadghor

- ***Les « Tumulus sur dallage concentrique*** ou ***superposées»***, il s'agit des formes cylindriques avec un revêtement de pierres et de dalles entreposés à plat le sol, construit sur une plate forme circulaire empierrée dont bords peuvent être en léger relief, leurs grandes dimensions ne laissent pas visible leurs reliefs, et donnant l'aspect d'une plate-forme. Ces constructions sont signalées dans l'Ahaggar, pré d'Abalessa (M. Reygasse, 1950, p. 88), A. Haddouche les a signalé aussi entre Youf Eheket et Imbroum et aux environs de Tamanrasset (Adriane) (A. Haddouche, 2003, p.9). D'autres

Ce type de monuments est très signalé dans l'Ahnet et sont nommés par Th. Monod (Th. Monod, 1932, p. 39) « gâteaux surbaissés aplatis », de formes ovalaires. L. Voinot avait signalé la plate forme de Tighammar au pied de la colline de grés, de forme ovale. Une autre plate forme est signalée par le Comte Begouen en 1931 au nord–est d'In ekker (Comte Begouen 1931). R. Chudeau, en 1915, a signalé plusieurs plates formes à l'ouest d'Ahnet. Ces formes sont retrouvées aussi dans l'Oued Taguin prés de Ghardaïa par le capitaine Bernard (Capitaine Bernard, 1886).

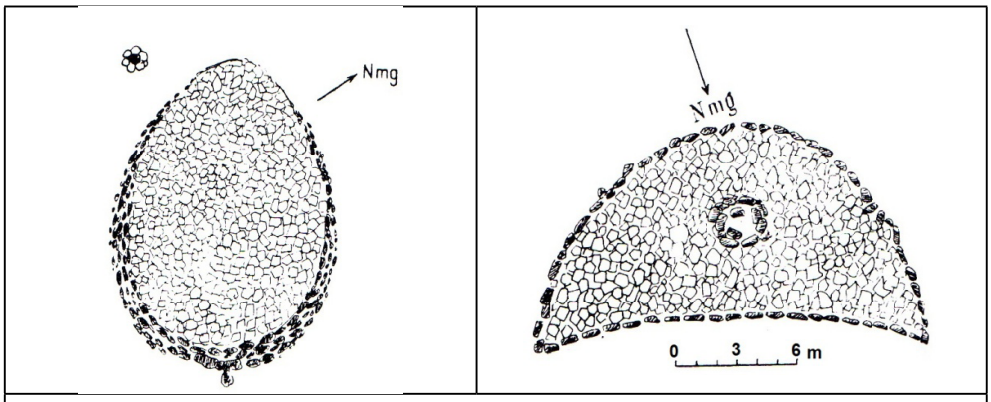

Fig. n°7- Plates formes de Tighammar (Th. Monod 1932, p.43 et p.29)

- ***Les «cercles de pierres»***, appelés aussi aires funéraires, Les cercles ou aires funéraires (cromlechs), terme désignant un ou des simples cercles de pierres ou les dalles sont plantées dans le sol, et rien d'autres au alentour ou à l'intérieur du monument (G. Camps 1961, p. 84). Ces constructions sont très présentes dans l'Ahaggar, on retrouve un cercle à huit rangées de pierres prés d'Amekni, deux monuments à Tighammar signalés, l'un par F. Fourreau en 1905, formé par trois cercles concentriques de pierres distantes d'un mètre l'un de l'autre, d'un diamètre de 10 mètres, l'autre signalé par L. Voinot en 1908 constitué par trois cercles concentriques, de 12 mètres de diamètre avec une structure de pierres au centre délimitant un espace carré. Dans l'Ahnet (Ahaggar), Th. Monod signale un monument particulier à sept cercles concentriques et un autre cercles

- ***Les «margelles de puits»*** ou ***(pseudo-chouchet),*** Ce sont des constructions en formes des petites tours, construites par des petites murettes constituées par des petites empilées les unes sur les autres, de formes circulaires ou ovales et recouvertes par une ou deux dalles juxtaposées (F. Paris, 1993, p. 343). G. Camps définit les margelles du Sahara comme une véritable cheminée centrale autour de la quelle est construit le mur d'enceinte et qui n'a pas de dalles de couverture (G. Camps, 1961, p. 170).

Ces formes sont très abondantes dans le Sahara central, principalement dans l'Ahaggar, Prés de Tit (M. Reygasse, 1950), à Ahnet (Th. Monod, 1932, p. 34), et au Fadnoun du Tassili N'Ajjer (J.P. Savary, 1966, p.17). Le capitaine Bernard avait signalé en 1886, au sud-est de Ghardaïa, de semblables constructions bâties en moellons reliés par une sorte de mortier rougeâtre, la chambre est généralement faite par deux ou trois dalles pour protéger le défunt inhumé (Capitaine Bernard,1886), on retrouve également ces formes à El Goléa (J. Morel, 1946).

Fig. n°6- Monument « margelle de puits » de Tagmart

- ***Les « monuments à plate forme»*** représentent une structure délimitée par un muret de trois ou quatre assises de pierre parfois plaqué de dalles portant en son milieu un tumulus. Ces constructions ne diffèrent des bazinas que la hauteur du muret qui est deux fois plus que celui des plates formes (F. Paris, 1993).

à carapace et à cratère, L. Voinot avait signalé en 1908, quatre bazinas à degrés situés sur les hauteurs à Abankor, Abalessa, à Ouan et à Tamoudhat, elles sont de forme circulaire et à deux degrés et constituées de murettes concentriques. Quant à la chambre funéraire était simplement faite de dalles posées à plats. J.P. Savary avait recensé dans le Fadnoun (Tassili N'Ajjer) plus de 228 bazinas dont la majorité appartenant au type de bazina à carapace (J.P. Savary, 1966, p. 26). La bazina à cratère semble à priori caractéristique des régions sud de Biskra (Ain El Hammara, Oued Tamda) (P. Roffo., 1938), mais aussi dans la région d'Oued M'zi, prés de Laghouat (A.T. Sahed, 2010).

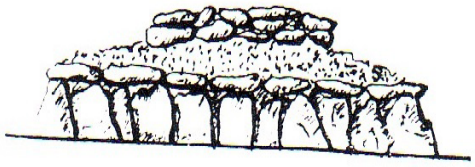

Fig. n°2- Bazina à degrés de Tamoudhat – Ahaggar (L. Voinot, 1908)

Fig. n°3-Bazina cylindrique, nécropole de Besbes prés de l'Ouled Djellal (Biskra)

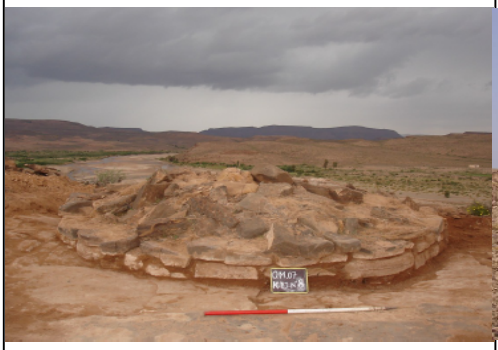

Fig. n°4- Bazina simple, Nécropole de Kef Jder -Oued M'zi- Laghouat

Fig. n°5- Bazina à carapace de Djorf Torba –Oued Guir- Béchar

creusée dans le sol, de forme ovoïde, qui mesurait 1.20 mètre de diamètre et 0.50 mètre de profondeur et pardessus était dressé un tas de pierres. Parmi les types les plus étudié dans le Sahara, nous distinguons : Quatre types de tumulus : simple, à caisson, à cratère et à fosse.

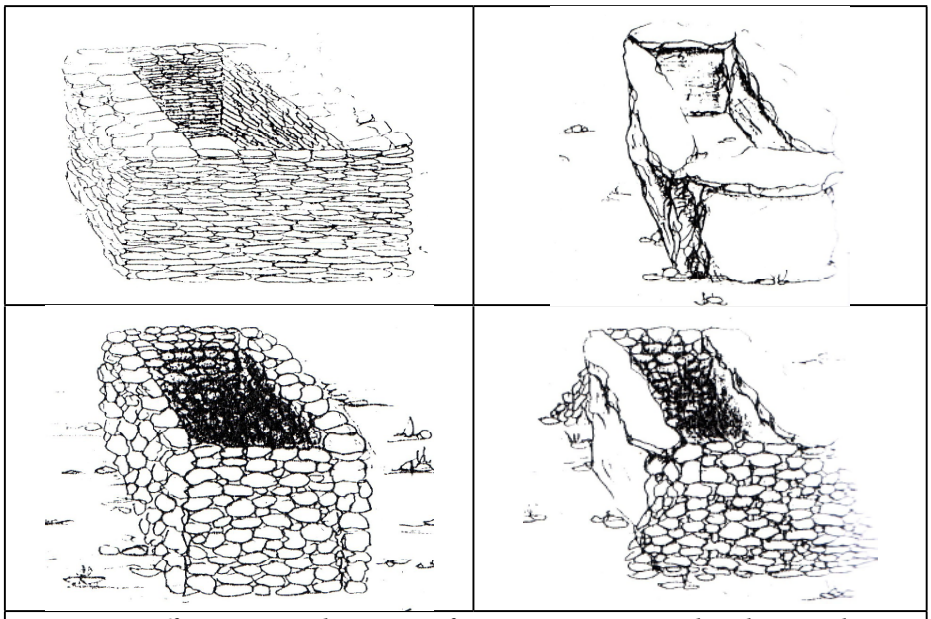

Fig. n°1- Différents types de caissons funéraires rencontrés dans les tumulus et bazinas (A.T. Sahed, 1997)

- ***La « Bazina »***, elle ne diffère du tumulus que par son revêtement extérieur, même s'il est réduit. Le terme bazina est d'origine berbère, signifiant simplement une butte. C'est un tumulus entouré par une murette bâtie ou revêtement extérieur et comprenant parfois, d'une ou plusieurs enceintes ou cercles concentriques en forme de gradins. Il en existe de différents formes: à enceintes concentriques, à carapace, à degrés, cylindrique. La forme la plus commune présente un plan circulaire, parfois quadrangulaire (A. Leroi-Gourhan, 1988, p. 112).

Nous pouvons distinguer six types de bazina : simple, à degrés, à base cylindrique,

2. Les principaux formes de monuments funéraires du Sahara algérien

Le Sahara présente différentes formes de monuments funéraires, isolés ou regroupés en nécropoles. Les formes des monuments sont réparties en deux grandes catégories, les formes simples et les formes complexes en prenant en considération les aménagements cultuels. Nous nous sommes référés aux travaux de classifications de Th. Monod (1932), E. F. Gautier (1907 et 1908), G. Camps (1961, 1965), M. Milburn (1978) et F. Paris (1994). Dans cette présentation générale, nous allons énumérer les différents types de monuments funéraires sahariens ainsi que leurs répartitions spatiales. Les formes des monuments sont ainsi réparties par la majorité des chercheurs en deux grandes catégories, les formes simples et les forme complexes en prenant compte des aménagements extérieurs.

a. Les formes simples

Le « Tumulus» paraît être le monument plus ancien. Ces amoncellements de pierres de dimensions et de nature diverses sans ordre apparent, mais dont la base peut être circonscrit par une rangée de pierres plus grosses en terre (G. Camps, 1961, p. 65). Ces monuments sont représentés par des sommets en cône, souvent tronquée. L'aménagement d'un tumulus consiste en une accumulation de pierrailles, galets ou de fragments de rochers placés sans ordre apparent, dont la base est circonscrite par un cercle de pierres fichées en terre, l'usage du mortier ne fut utilisé que très rarement. Ce type de monument n'exigeait pas de très grands travaux sauf pour les amoncellements de dimensions considérables (G. Camps, 1960, pp. 47-92).

Le mot tumulus dérive d'un mot latin, désignant la forme de monument la plus simple. Il consiste en simple tas ou amoncellement des pierres mêlées à la terre, placé au dessus du corps, dont le rôle principal est de protéger le cadavre. Il y' a des monuments qui comportent un caisson pour contenir le corps, d'autres n'en ont pas; certains ont au sommet, une sorte d'entonnoir facilitant l'accès à la chambre funéraires (tumulus à cratère)* et le dernier type, il s'agissait d'une excavation

répartitions spatiales, ainsi que leurs coutumes funéraires.

Au Tassili N'Ajjer, on note quelques missions effectuées dans le Fadnoun par J. P. Savary en 1966, et dans la même année, les missions de prospections effectuées par G. Aumassip et C. Roubet dans l'Erg d'Admer.

De même, le Sahara occidental (Bechar/Tindouf) n'a fait l'objet que peu de prospections archéologiques. En 1905, M. Petit a fouillé six tumulus dans la les environs d'Ain Sefra, ce sont de forme circulaire avec un sommet légèrement en cratère. En 1908, M. Dessigny a signalé la présence non loin d'Ain Sefra un important nombre de tumulus circulaires de grandes tailles, de 15 à 20 mètres de diamètre et de 3.50 à 6 mètres de hauteur, leurs sommets sont de forme conique ou en dôme. Et dans la même année, c'est-à-dire en 1908, E. F. Gauthier, a indiqué la présence d'un tumulus de 12 mètres de diamètre et de 3 mètres de hauteur, de forme circulaire dont le sommet en forme de cône très surbaissé.

D'autres recherches ont été entamées dans la région Biskra (nécropoles Oued Tamda et Ain Hamara) et dans la région de Sidi Laâdjel, près de Chahbounia (nécropole d'Oued Ouerk), plusieurs sépultures ont été fouillé par P. Roffo en 1937 et 1938 dans ces nécropoles, et qui ont donnée des renseignements assez importantes sur les types de monuments érigées dans ces zones présahariennes. De même, d'autres prospections et fouilles archéologiques ont été entreprises au piémont de l'Atlas saharien, dans la région d'Oued M'zi- monts des Ammours-Laghouat (A.T. Sahed, 2010).

D'autres recherches archéologiques ont été entamé hors de l'Algérie, dans le prolongement du Sahara central, c'est-à-dire au nord du Niger par F. Paris des le début des années1990. L'Apport des travaux de fouille de F. Paris en 1994 dans le nord du Niger (pays limitrophe du Sahara algérien), ont bonifiée une bonne connaissance des formes et types des monuments funéraires sahariens ainsi que les pratiques funéraires (F. Paris, 1996).

qu'on enregistre la mise en place de petites unités qui annoncent la sédentarité des hommes. On domestique un territoire ou on s'installe pour construire son lieu de vie (habitat) et ou on aménage l'espace funéraire (nécropole).

Les monuments funéraires témoignent de l'intérêt qu'on accorde aux morts. On y relève une certaine hiérarchisation exprimé par les soins apportés à la sépulture ou par sa forme monumentale. On maintien l'usage de la pierre, mais on note la profusion d'objet en métal. Les fouilles ont réussis à mettre au jour le type d'inhumation. Le corps adopte différentes positions (pliée, contractée, accroupie ou allongée) à travers les âges.

Les premières recherches datent du début du siècle dernier par l'exploration des militaires comme Voinot, Vallet, Denis, Régnier et autres, qui signalent la présence de plusieurs formes de monuments au Sahara central. Plus tard, des travaux de recherches entrepris par des chercheurs éminents tels que Th. Monod (1932), E. Gautier (1907 et 1908), G. Camps (1961, 1965, et 1976) et M. Milburn (1978 et 1988), qui ont permet de donner, primo la répartition spatiale des monuments funéraire au Sahara central et secundo un aperçu sur les différentes formes architecturelles.

L'Ahaggar a enregistré plusieurs explorations, L. Voinot a effectué en 1908, plusieurs fouilles des monuments funéraires dans le bassin d'Igharghar, à Tighammar dans le sud de l'Ahaggar, le nord de l'Ahnet et du Mouydir, trois autres monuments fouillés dans l'Edjéré et un monument à Abalessa. Ce sont des tumulus de formes circulaire variant entre 8 et 10 mètres de diamètres et de 1 à 2 mètres de hauteurs (L. Voinot, 1908). En 1932, Th. Monod, a signalé la présence des tumulus dans l'Ahnet, ce sont des tumulus en forme circulaire, leurs diamètres varient entre 3 et 8 mètres et leurs hauteurs de 0.50 mètre à 1.60 mètre. Th. Monod a beaucoup contribué à la connaissance des structures funéraires de l'Ahaggar sur la base de fouille 190 monuments funéraires (Th. Monod, 1932, p. 30). Et enfin, A. Haddouche a entamé dés l'année 2000 un programme de recherche sur les monuments de l'Ahaggar leurs

à l'inhumation et aux pratiques rituelles. Ces grands monuments, composés de divers éléments architecturaux et répondent à plusieurs types et formes : tumulus, bazinas, monument à couloir et enclos, monument à alignement, monument en forme de cercle, etc.

Généralement très visibles, Ces monuments funéraires parsèment d'innombrables régions dans le Sahara, ils sont construits en général en pierres sèches, et présentent des formes et des dimensions variables. Les implantations topographiques de ces constructions sont les plus souvent situées sur les abords des oueds, dans les vallées, sur les plateaux, prés des points d'eau, sur les flans des petites collines, prés des paroirs gravés ou peints. Ces monuments sont aisément observables en bordure de larges vallées, et notamment dans le piémont du Tassili n'Ajjer, de l'Ahaggar, sud de l'Atlas saharien, et même dans les petits monticules (Réguibate) de Tindouf.

Les monuments funéraires ont fait l'objet de recherche depuis les premières reconnaissances coloniales du Sahara datant de la fin du 19 siècle et du début du 20 siècle, principalement par les militaires, médecins, administrateurs, amateurs, explorateurs et rarement les scientifiques, depuis peu de chercheurs se sont intéressés à ces construits.

Ce travail s'appuie sur les anciens travaux des chercheurs et sur quelques données récoltées lors des prospections archéologiques dans l'Ahaggar et le Tassili N'Ajjer ainsi que sur des travaux de fouilles récentes de A. Haddouche effectués dans l'Ahaggar et aussi de F. Paris au nord du Niger.

1. Historique des recherches

Aux côtés des figures schématiques et peintures rupestres, on note la profusion des monuments funéraires. Les premières structures funéraires peuvent remonter au Néolithique et persistent aux périodes tardives, ce mouvement se poursuivra jusqu'au XIIe siècle après J.C. C'est au cours de la période néolithique

Les monuments funéraires du Sahara algérien: Etat de la question

Dr. Aziz Tarik SAHED
Institut d'archéologie – Université d'Alger, 2

Abstract:

This article aims to know a very abundant archaeological legacy in the algerian Sahara, these funerary monuments are built with dry stone, with different architectural forms and changeable dimensions. This synthesis allows the retrospective of the different monuments of the algerian Sahara which remain poorly known for different reasons.

These monuments are presented in two forms, one represented by single structures without planning and the second with a complex shape, represented by landscaping. As for their geographical distributions, these monuments are numerous in the Sahara and are distributed primarily in regions of the Hoggar and Tassili N'Ajjer and Tindouf, located on the flanks of the hills, trays, and mainly in the valleys.

Introduction:

Le Sahara, est un espace important de l'Algérie, caractérisé par une richesse culturelle, humaine, et naturelle exceptionnelle d'une très grande fragilité. Ainsi, en est-il des gravures et peintures rupestres, de monuments funéraires, des Ksours et des villes anciennes, des paysages variés de dunes, de montagnes et d'oasis, abritant une faune et une flore rares et diverses. Ce patrimoine est menacé par la modification des modes de vie, l'urbanisation et la désertification notamment, et nécessite une plus grande attention et des mesures de sauvegarde et de gestion appropriées.

L'art funéraire a certainement, dans l'histoire de l'humanité, précédé tous les autres. À partir de 8000 BP, les hommes ont élaboré des structures en pierre destinées

Sommaire

Les monuments funéraires du Sahara algérien: Etat de la question **Dr. Aziz Tarik SAHED**	5
Le Tourisme durable **Mme. LACHACHI Amina,**	31

République Algérienne Démocratique et Populaire
Ministère de l›enseignement supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université de Tlemcen

Revue
Minbar Et-Tourath El-Etheri

Revue scientifique indexée spécialisée en patrimoine archéologique

Numéros : Quatre - 04 - Décembre 2015

Réalisée par le laboratoire :
Patrimoine archéologique et sa valorisation
2012 - 4129
ISSN 2335 - 1500